رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِينَ

مقالاتي

بصائر سياسية إسلامية للثورة السورية

تأليف

الدكتور محمد كمال الشريف

تحليلات عميقة

تشخص الداء وتصف الدواء

للأزمة السورية

موجهة لأحرار سورية في

الداخل وفي الخارج

طبعة إلكترونية أولى مجانية 2013

مقالاتي

بصائر سياسية إسلامية للثورة السورية

تأليف

الدكتور محمد كمال الشريف

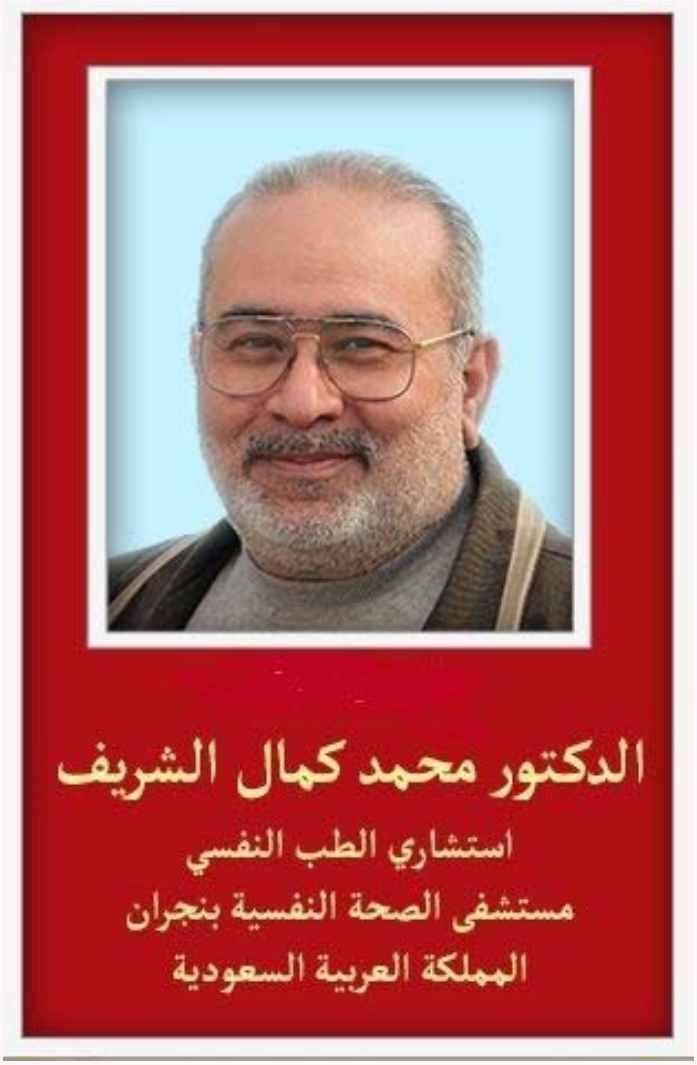

بسم الله الرحمن الرحيم

المحتويات

- المقدمة.... صفحة 9
- المقال الأول... ما يحدث في سورية إلى أين... صفحة 25
- ما كنت أتوقع.... صفحة 25
- الانتصار السهل في تونس.... صفحة 26
- القابلية للاستعمار.... صفحة 28
- انتصار أسهل في مصر.... صفحة 29
- ثورات غير جذرية.... صفحة 31
- ليبيا واليمن غير.... صفحة 32
- حكم آل الأسد.... صفحة 33
- ثورة كرامة.... صفحة 36

- النظام والطائفة.... صفحة 38
- محاذير التطييف.... صفحة 40
- المواطنة للجميع.... صفحة 42
- السلمية أقوى.... صفحة 44
- الأمل بالعلويين.... صفحة 46
- اثبتوا على السلمية.... صفحة 48
- كلنا مواطنون سوريون.... صفحة 51
- غيرهم مثلهم.... صفحة 53

- **المقال الثاني... ما لنا غيرك يا الله ... صفحة 55**

- حيرة وتخبط.... صفحة 55
- يحلمون بتقسيمنا.... صفحة 58
- تقسيم العراق.... صفحة 60
- نحن لا نهمهم.... صفحة 63
- الاحتمالات.... صفحة 66
- المصلحة تقتضي.... صفحة 70
- المصلحة قبل العاطفة.... صفحة 73

ثورة لكل السوريين.... صفحة 76

المقال الثالث. الطائفية والثورة في سورية صفحة 79

التدخل العسكري.... صفحة 79

يريدون تفتيتنا.... صفحة 80

تقطيع أوصال بلا تخدير.... صفحة 82

خطر الطائفية حقيقي.... صفحة 84

النظام يستغل الطائفة.... صفحة 87

لا دماء مهدورة.... صفحة 89

الإكراه في الدين استثناء.... صفحة 93

حماية من التلاعب.... صفحة 97

سيادة فقدناها.... صفحة 100

المقال الرابع ... الثورة السورية بين العنف واللاعنف... صفحة 104

عام على الثورة.... صفحة 104

غباء واستكبار.... صفحة 106

ثورة أشعلها النظام.... صفحة 109

ترشيد الثورة.... صفحة 113

اللاعنف من الإسلام.... صفحة 116

الثورة أقوى بسلميتها.... صفحة 123

السلمية والإعلام.... صفحة 125

عسكرة الثورة.... صفحة 129

لا للتخوين.... صفحة 133

اختلاف ونية حسنة.... صفحة 137

التوكل على الله.... صفحة 139

استخيروا ربكم.... صفحة 143

لا يحل إلا الدفاع.... صفحة 145

الخيار الثالث.... صفحة 147

إسقاط النظام لا إسقاط الدولة.... صفحة 150

المقال الخامس... دولتنا المنشودة جمهورية سورية ديمقراطية تعددية... صفحة 152
ونجعلهم أئمة.... صفحة 152
نماذج الدولة الإسلامية.... صفحة 153
إذن ما العمل ؟.... صفحة 156
الكتاب والحكمة.... صفحة 159
وإثمهما أكبر من نفعهما.... صفحة 163
الدين والدولة.... صفحة 166
خليفة لا جندي.... صفحة 168
شريعة وحكمة.... صفحة 170
الديمقراطية وطغيان الأكثرية.... صفحة 174
المواطنة من أجل المساواة.... صفحة 176
وثيقة المدينة المنورة.... صفحة 177
التعددية هي الحل.... صفحة 178
تطبيق الشريعة بلا إكراه.... صفحة 181
حرية التفكير والتعبير.... صفحة 183

- المقال السادس: ثورة سلمية محمية... صفحة 186
- السلمية عزيمة والدفاع رخصة.... صفحة 186
- القاتل والمقتول في النار.... صفحة 192
- هم في النار إلا المدافعين.... صفحة 194
- الشرع ينفع من يطبقه.... صفحة 197
- وزر أخرى.... صفحة 200
- البغاة.... صفحة 204
- توبة تسقط الملاحقة القانونية.... صفحة 208
- تغليب المصلحة على العاطفة.... صفحة 211
- حكم الله خير.... صفحة 212
- السلاح للدفاع فقط.... صفحة 214
- الدفاع خير.... صفحة 216
- يريدون تقسيمنا.... صفحة 218
- التأمين بدل التحرير.... صفحة 222
- استراتيجية الصراع الداخلي.... صفحة 225
- بلا سلاح لا يكون خروجاً.... صفحة 228
- الطاعة الواجبة.... صفحة 229

العصيان الواجب.... صفحة 231
الدفاع بالسلاح ليس خروجاً.... صفحة 233
الانتقام جائز.... صفحة 237
هل فات الأوان ؟.... صفحة 239

المقال السابع... احذروا تقسيم سورية... صفحة 247
القضية أكبر من دويلة علوية.... صفحة 247
النظام يستغل العلويين.... صفحة 249
الجهاد خدم النظام.... صفحة 251
التقسيم قائم.... صفحة 253
قصة تقسيم سورية.... صفحة 255
دولة سنية ودولة للطوائف.... صفحة 257
لا تضحوا بها بل ضحوا من أجلها.... صفحة 259

الخاتمة.... صفحة 261

المقدمة

الحمد لله رب العالمين وأفضل الصلاة والتسليم على نبينا محمد وآله وأصحابه أجمعين.

أما بعد: لقد جر الربيع العربي كثيرين ما كانوا يمارسون أي نشاط متعلق بالسياسة ليبدؤا حياة الناشطين السياسيين ، وأنا أحدهم. لم أتحول إلى سياسي إنما كتبت لأول مرة في حياتي في السياسة ، فكان مقالي الأول عن سورية والثورة فيها في تشرين أول أكتوبر 2011 . كانت لدي من زمن طويل بعض البصائر السياسية بما يخص بلادنا العربية تساعدني على فهم ما يجري وتوقع ما قد تؤول إليه الأمور في أحيان كثيرة. انطلقت الثورة السورية وبدأت خلال شهور تتحول إلى مسلحة وتستجدي الدول الغربية كي توجه ضربة جوية وتفرض حظراً جوياً على سورية حيث كان ومازال سلاح الجو يجعل موازين القوى غير متكافئة بين الثورة والنظام.. أصابني تسلح الثورة الذي كان مطلباً للنظام بخيبة أمل وبقلق كبير على سورية كدولة وكأمّة ، وكنت أدرك أن تحوّل الثورة إلى مسلحة سينقذ النظام ويخدمه إلى أبعد حد ، ثم أصابني الهلع عندما صار المتظاهرون يكتبون على لافتاتهم أن الشعب السوري يريد حظراً جوياً على سورية. أرعبني أن نستدعي الاستعمار من جديد ونحن لم نتحرر منه كلية بعد.. لقد غادرت

سورية للعمل في المملكة العربية السعودية قبل ستة أشهر من بدء الثورة السورية ، وعندما اندلعت الاحتجاجات في تونس ومصر كنت أقول لزملائي هنا إن سورية هي آخر بلد عربي تقوم فيه ثورة وإنها إن قامت فلن تحسم في أيام أو أسابيع مثل مصر وتونس. خيب السوريون بشجاعتهم ظني الأول وخرجوا ثائرين يتلقون الرصاص في صدورهم العارية وهم يهتفون سلمية سلمية. لكن للأسف ما خاب ظني الثاني وهو الصعوبة البالغة والكلفة الباهظة واحتمال عدم نجاح ثورة في سورية باسقاط النظام.

لقد وقع الثوار السوريين في فخ ذي ثلاث شعب ، نصبه النظام لهم ، وهو تسلّح الثورة ، وتديينها ، وتطييفها ، أي تحولها إلى ثورة دينية جهادية وطائفية تكون ثورة لطائفة السنة السوريين على الطائفة العلوية النصيرية. كنت أدرك بوضوح أن تطييف الثورة وتديينها سينقذ النظام من السقوط ، لأن ذلك سيجعل الطائفة العلوية تستميت في الدفاع عنه ، وسيمنع الطوائف السورية الأخرى من الانضمام للثورة ، وبعدها اكتشفت المكسب العظيم الثالث الذي حققه النظام من تطييف الثورة ، وهو تأييد المسلمين الشيعة في كل البلدان المجاورة والبعيدة له ، وقدوم الآلاف منهم يقاتلون دفاعاً عنه.. كنت أدرك أن التسلح سيجعل قمع النظام للثورة أسهل ومتلائماً مع قوته العسكرية وعجزه السياسي الكامل ، فقد أربكه كثيراً أن تكون الثورة سلمية وتصل لوسائل الإعلام. النظام لا يعرف إلا القوة والبطش والإجرام ولا يجيد لعبة غيرها ، وتسلح الثورة يعني القضاء على سلميتها ، ويعني العودة إلى قواعد اللعبة الوحيدة التي يجيدها النظام. هذا

من جهة ، ومن جهة أخرى كنت على يقين أن التسلح سيحوّل الثورة إلى دينية طائفية ، وسيطول احتراب السوريين فيما بينهم إلى أن يأتي يوم يستجدون الدول الاستعمارية صاحبة النفوذ أن تساعدهم على تقسيم سورية كي يتمكنوا من استئناف حياة عادية من جديد. واليوم أرى أننا على أعتاب هذه المرحلة.

أمضيت إجازتي مع أسرتي في صيف 2011 في سورية وأتيحت لي الفرصة أن أسمع من الناس مباشرة وممن أثق بصدقهم ما الذي يجري في سورية يومها. عدت إلى المملكة وبدأت أفرغ ما لدي من بصائر سياسية قليلة في الكم لكنها قد تنقذنا من مصير مخيف. كتبت كل ما عندي في مقال طويل عنونته "ما يجري في سورية... إلى أين". لم يخطر ببالي يومها أنني سأكتب المزيد في السياسة وأنني سأكتب "تجديد نظرية الإسلام السياسية" الذي بدأت توزيعه قبل أسبوعين ، لذلك آثرت راحة البال ونشرت المقال على النت باسم مستعار كان "الدكتور محمد ناصح عبد الله". كنت متكتماً على نشاطي هذا لدرجة ، أن زوجتي وأولادي من حولي ، ما كان يخطر ببالهم أن جلوسي الطويل ، كلما عدت من عملي على النت كان لنشر مقال عن سورية وثورتها عبر الفيسبوك والإيميل. لم تكد تمضِ أسابيع قليلة حتى بدأ الثائرون السوريون يدركون أنه لن يخفّ إلى نجدتهم أحد ، ورفعوا شعارهم الرائع "ما لنا غيرك يا الله" فخطرت في بالي بصائر جديدة مفيدة للثورة وللأمة السورية ، فكتبت مقالاً ثانياً مكمّلاً للأول عنوانه "ما لنا غيرك يا الله" ، وجمعت المقالين في ملف واحد بكتيب أسميته:

"ثورة لكل السوريين". واستمر دأبي وأنا وحدي، أنشر هذا الكتيب، وأوصله إلى آلاف السوريين، الذين تنبيء حساباتهم على الفيسبوك، أنهم ناشطون في الثورة، وبحثت عن حسابات علماء الدين، الكبار منهم والصغار، والمفكرين السوريين وأرسلت الكتيب إليهم.

كانت تأتيني ردود أفعال مشجعة جداً من كثيرين ما كانوا يعرفون من أكون. كنت صرحت في الكتيب أنني أكتب باسم مستعار، والذين راسلوني وشجعوني كانوا يعلمون أن الاسم مستعار. كان أبرزهم الدكتور علي أسعد وطفة، وهو من العلويين، وأستاذ جامعي في كلية التربية في الكويت، وله مؤلفات ومقالات كثيرة. الدكتور علي قدمني، وهو لا يعلم هويتي الحقيقية، إلى قائمين على مواقع سياسية يسارية كبيرة، مثل مركز دمشق للدراسات الاستراتيجية، ومركز الرافدين للدراسات الاستراتيجية، وحركة مصر المدنية، يومها اكتشفت أن من المقالات ما هو استراتيجي بعد أن كانت هذه الكلمة مرتبطة في ذهني بما هو سياسي أو عسكري... ونُشرت مقالات الدكتور محمد ناصح عبد الله بجانب مقالات كتاب وباحثين سوريين يساريين وليبراليين كبار مع أن المقالات كانت دوماً إسلامية بامتياز. لقد أثنى كثيرون على عمق التحليل، وعلى الإنصاف الذي تحدثت به عن الطائفة العلوية في المقالين، لا تحركني أية مشاعر طائفية، ولا يجعلني بغضي لأي منهم لا أعدل في حقه. وشجعني الدكتور علي أسعد وطفة على الكتابة عن الطائفية في سورية، مع أنه يومها لم يكن يصدقني، أن سورية معرضة بشدة لفتنة طائفية تدمرها وتفتتها. الدكتور علي وطفة على خلق

ودين ويحب السنة ويحبه من يعرفه منهم ، لذلك غلبت عنده الثقة بوعي السوريين وطيبتهم ، فاستبعد بشدة أن تتحول الثورة إلى طائفية ، وكان عنده أمل كبير أننا بمقالاتنا سنجنب سورية مثل هذا الاحتمال ، وأطلعني على مقالة له حول الطائفة العلوية التي يعرفها جيدا ، لأنه أحد أبنائها ، وكانت القرداحة مرتع صباه ، فهو من قرية قريبة منها. وأعانني الله على تجميع أفكاري وكتابة مقالي الثالث بعنوان: "الثورة والطائفية في سورية" ، بدأت فيه أعرض اجتهادات فقهية بخصوص قتل المشرك والمرتد وأخذ الجزية من المسيحيين وجدارة كل السوريين حتى الملحدين منهم بالمواطنة السورية على قدم المساواة بغض النظر عن المعتقد أو الدين أو المذهب. وقد هداني ربي إلى دراسة الوثيقة التي وضعها رسول الله صلى الله عليه وسلم لأهل المدينة بعد هجرته إليها ، لتنظم علاقات مكوناتها المتباينة الثلاث: (المؤمنين والمشركين واليهود)، ويصف الباحثون هذه الوثيقة بأنها ، أول دستور في التاريخ. في دولة المدينة المنورة التي أقامها وترأسها محمد صلى الله عليه وسلم ، كان سكانها كلهم مواطنين فيها ، دون أن تكون هذه الكلمة بالذات قد عرفت في لغتنا ، بالمعنى الذي نفهمه منها هذه الأيام. كان اليهود مواطنين مع المسلمين لهم "الأسوة" اي المساواة معهم ، ولهم دينهم وللمؤمنين دينهم ، أي لهم حريتهم الدينية كاملة. في وثيقة المدينة تقرر انتماء الإنسان لأمة المؤمنين بناء على إسلامه ، دون اعتبار لقبيلته أو أصله القومي ، لكن كانت المواطنة والولاء السياسي قائمة على كون الإنسان أحد سكان المدينة المنورة ، لذلك لم يكن المسلم الذي لم يهاجر إلى المدينة لينضم إلى أمة المؤمنين فيها ، لم يكن مواطناً فيها ولم يكن له على المؤمنين حقوق الولاء ، أي كان على المسلمين في المدينة أن

يقاتلوا مع اليهود فيها في حال هاجمهم عدو لهم ، بينما لم يكن للمؤمن الذي لم يهاجر إليهم مثل هذا الحق على المسلمين ، لأنه لم يكن مواطناً في دولة المدينة المنورة.

بالطبع في دولة كهذه لم يُفرض على اليهود جزية ، بل كانوا شركاء في الوطن ، مع أنهم وافدون إليه ، وأصلهم غير العربي معروف ومؤكد. يمكن لوثيقة المدينة المنورة أن تشكل الأساس لمفهوم المواطنة في مجتمعاتنا المعاصرة ، حيث غير المسلمين ، وغير المؤمنين عموماً ، مواطنون ، لهم ما للجميع ، وعليهم ما على الجميع. ومن حسن الحظ أنني عثرت على النت على سلسلة كتاب الأمة ، التي تصدرها الأوقاف القطرية من أكثر من ثلاثين عاماً ، ويشرف عليها ويحرر كتبها ، ويكتب لكل كتاب منها مقدمة رائعة ، الأستاذ عمر عبيد حسنة ، وهو أخ كبير لي وحبيب. الكتاب كان من تأليف باحث يمني حتى الآن لم أتعرف عليه ، اسمه أحمد قائد الشعيبي ، ولعله الآن يحمل لقب دكتور ، لا أعلم. وكان اسم الكتاب "وثيقة المدينة المضمون والدلالة". كان الكتاب مبذولاً على النت للقراءة ، بحيث تظهر للمتصفح صفحة صغيرة منه ، يقرؤها ثم ينتقل إلى الصفحة التي تليها. لقد أدركت أهمية هذا الكتاب في مرحلة الربيع العربي ، وحرصت على أن يتوفر للناس ، وبخاصة غير المسلمين ، أو غير المتدينين ليطلعوا عليه ، فقمت بحفظ جميع صفحاته في ملف واحد ، وقد احتاج ذلك مني لوقت طويل حيث أنزل الكتاب صفحة صفحة ، وأضمها لما سبقها ، حتى صار لدي الكتاب ، ومقدمة الأستاذ عمر عبيد حسنة الرائعة ، ملفاً نصياً واحداً. قمت

بإعادة تنسيق الكتاب، وتحويله إلى كتاب إلكتروني بصيغة PDF، ووضعته على النت في مدونتي، وفي موقع slideshare.net وأثبت راوابطه في نهاية مقالتي عن الطائفية والثورة في سورية.

كانت المقالة أيضاً محاولة لإعادة النظر فيما يسمى حد الردة في الإسلام، وفي اعتقاد الكثيرين منا أننا مكلفون أن نقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة، وعندها فقط تكون دماؤهم وأموالهم معصومة. هذا الفهم الخاطىء يبني عليه الجهاديون والتكفيريون ويستبيحون على أساسه دم كل من يصنفونه على أنه كافر مشرك، حتى لو كان مسلماً لكنه يتبع مذهباً آخر فيه معتقدات لا يوافق عليها أهل السنة والجماعة. كانت محاولتي ناجحة بفضل الله فوصلني من الدكتور بشير زين العابدين، ابن الداعية الكبير الشيخ سرور زين العابدين، وصلني منه رسالة أخجلتني مما فيها من تقدير لي ولعلمي، مع أنه ما زال يخاطبني باسمي المستعار. ومن يومها توطدت صداقة حميمة بيننا. كانت رسالته لي هامة جداً، لأنها تشكل أول رد فعل تصلني من رجل باحث ومؤلف ومن بيت علم ودعوة، يبدي إعجابه بالاجتهادات الفقهية الجديدة التي تضمنتها المقالة عن الطائفية، والتي تحل الكثير من الاشكالات التي تقف عقبة أمام تقبل شعوبنا للإسلام السياسي.

عظمت معاناة السوريين بفعل البطش والمذابح، ولم يتحرك لحمايتهم أحد، وكان التحول إلى ثورة مسلحة تحرر القرى والبلدات، وترفع عليها علماً مغايراً لعلم الجمهورية العربية السورية، كان ذلك سبباً في دمار أحياء وقرى بكاملها، وتشريد أهلها، وسبباً في ارتفاع عدد قتلى الثورة السورية من، ما بين العشرة والعشرين يومياً، إلى ما بين المئة والمئتين يومياً. أحسست حينها بحاجة السوريين الماسّة للاقتناع باللاعنف والمقاومة السلمية والعصيان المدني منهجاً للتغيير السياسي بدل السلاح، فكتبت مقالي الرابع بعنوان "الثورة السورية بين العنف واللاعنف"، قمت فيه بتأصيل مبدأ اللاعنف إسلامياً، ودعوت السوريين للعودة إلى الثورة السلمية المغطاة إعلامياً، وبذلت وسعي في إقناعهم بذلك، على أمل أن تتوقف الثورة في اندفاعها نحو إسقاط الدولة السورية، بدل إسقاط النظام، أي نحو صومالة، مثل التي يعانيها إخوتنا في الصومال، منذ أن أسقطوا دولتهم، قبل أكثر من عشرين عاماً. ولما كانت العبادة الوحيدة التي أكثر منها هي التوكل على الله، لأني مؤمن بثمراتها، دعوت في مقالي السوريين إلى اللجوء إلى "حسبنا الله ونعم الوكيل"، يرددونها ليل نهار إلى أن تكشف الغمة عنهم.

ثم تأملت في العوامل التي لا تشجع الطوائف الأخرى غير السنية في سورية، على الاشتراك في الثورة، والتي تجعلهم يخافون مما يمكن أن تكون عليه الدولة في سورية بعد سقوط النظام. فكتبت مقالاً خامساً بعنوان "دولتنا المنشودة جمهورية سورية ديمقراطية تعددية" بينت فيه أن

الدولة المنشودة ، حتى لو طبقت الشريعة الإسلامية ، فسيكون ذلك على المسلمين السنة فقط ، ولن تطبق على من يعلن أنه علماني ، حتى لو كان من أسرة مسلمة سنية ، ولا على باقي السوريين من مسيحيين ودروز وعلويين وإسماعيليين وشيعة وغير ذلك ، بل دعوت إلى تعددية تشريعية إقتداء بنبينا صلى الله عليه وسلم ، عندما أسس دولة المدينة المنورة. كما بينت في مقالي الخامس هذا أن الدولة ، حتى لو كانت إسلامية ، وأهلها كلهم مسلمون سنة ، عليها أن تحترم مبدأ لا إكراه في الدين ، فلا تفرض على الناس بالقانون ، إلا فرائض الإسلام الكبرى ، التي لا يختلف فيها فقيهان ، وأن لا تعاقب قوانينها على معصية دينية ، إلا عندما يتعدى ضررها مرتكبها ، ويصيب العامة ، فيكون العقاب لحماية الأمة ، وبينت باختصار كيف أن الحدود في الإسلام تهدف إلى حماية الأمة ، وإن كانت في ظاهرها عقاباً على خطيئة ، كالزنا والسرقة والحرابة وغيرها. وبينت في مقالي هذا أن الإسلام يحتمل شكلاً جديداً للدولة ، يكون فيها حرية اعتقاد كاملة ، بما فيها حرية الارتداد دون أي عقاب.. ثم بينت فيه كيف ستكون الدولة المنشودة دولة الكتاب والحكمة ، حيث لا تطبق الدولة على الناس إلا فرائض الإسلام الثابتة ، والغير اجتهادية ، والتي كانت واضحة منذ أن أكمل لنا ربنا ديننا ، وأتم علينا نعمة هدايته ، ومحمد صلى الله عليه وسلم ما يزال حياً يرزق ، وبينت أن كل ما لم ينزل فيه تحريم أو فرض بيّن قبل وفاة النبي صلى الله عليه وسلم ، يبقى له حكم الخمر والميسر عندما قال الله عنهما: "وإثمهما أكبر من نفعهما" ، أي لا تحليل ولا تحريم لها ، إنما هو العلم والحكمة ، فنتجنب الضار منها ، ونكثر من النافع ، دون أن يكون له حكم شرعي ، أي

يكون مما عفا عنه الله وسكت ، فلم ينزل فيه حكماً دينياً رحمة بنا لا نسياناً.

قلت في عنوان مقالتي الخامسة: إن دولتنا المنشودة هي جمهورية ، أي يرأسها رئيس منتخب ، لمدة محددة ، وليست ملكاً يورثه لأبنائه من بعده ، وإن دولتنا المنشودة ديمقراطية حتى لو طبقت الشريعة الإسلامية ، إذا علينا ألا نعطل حكم الله فيما حكم فيه من أمور حياتنا ، لكن نشرع لأنفسنا بحسب المصلحة ، في كل الأمور التي لم ينزل لنا ربنا فيها حكماً شرعياً بيّناً قبل وفاة النبي صلى الله عليه وسلم ، وبذلك تكون الأمة ولية أمر نفسها ، كما كل واحد منا بلغ الثامنة عشرة ولي أمر نفسه ، ما لم يكن مجنوناً أو متخلفاً عقلياً. ولاية الأمة لأمر نفسها تعطيها الحرية ، دون أن تعفيها من العقاب في الآخرة بما يخص تطبيق الشريعة الإسلامية ، فلا تفرض الشريعة إلا بتصويت أغلب الأمة ، ولا يحق للإسلاميين إكراه الناس على ذلك ، بل لهم الدعوة والموعظة ، والأمة لها أن تطبق الشريعة فتنجو في الدنيا والآخرة ، تماماً كما للفرد أن يؤمن فينجو في الدنيا والآخرة ، ولها أن لا تطبقها أو لا تطبق بعضها وعندها يكون الإثم على كل من صوت لصالح تعطيل الشريعة أو بعضها ، كما للفرد أن يبقى كافراً إن شاء فلا نكرهه على الإسلام ، لكن ذلك لا يعفيه من المسؤولية عن كفره ومن عقاب يوم القيامة. كل أمة لها الحرية أن تختار الشريعة أو ترفضها لكنها تتحمل عاقبة ذلك في الدنيا والآخرة. بعض من قرأ المقال الخامس استغرب أن يكون للأمة الحق في أن تطبق الشريع أو لا تطبقها ، ولم يفطن إلى حق

الإنسان البالغ الراشد في أن يؤمن أو يكفر ، ولا إكراه له على شيء ، لكنه يتحمل عاقبة اختياره ورفضه للإيمان ، سواء في الدنيا أو في الآخرة.. الأمة مثل الفرد ، حرة مسؤولة... ولا إكراه في الدين ، لا على الصلاة ، ولا على الحجاب ، ولا على تطبيق الحدود الشرعية ، بل هي الدعوة والإقناع ، التي ثمرتها أن تقرر الأمة بطريقة ديمقراطية ، أن تحكّم شرع الله بكل رضاً ، وبعد أن تتخذ الأمة قرارها بتطبيق الشريعة أو تطبيق حكم معين منها ، تطبق الشريعة على كل من ينتمي لهذه الأمة (الطائفة) ، حتى لو كان معارضاً لتطبيق الشريعة ، ولا مخرج له إلا الانتقال إلى طائفة العلمانيين ، الذين ستطبق عليهم قوانين علمانية.

وقد أكدت في مقالتي عن دولتنا المنشودة أنها سوريّة ، أي لا نسميها عربية ، ولا نسميها إسلامية ، لأن المواطنة فيها تكون لكل سوري ، مهما كان دينه أوعرقه أو لغته ، وبينت إمكانية تحقيق التعددية التشريعية ، التي تحمي الأقلية ، وتحمي الأكثرية ، من أن يطغى بعضها على بعض ، إذ في العلمانية يقع الظلم على المؤمنين ، قلة كانوا أو كثرة ، وفي الدولة الإسلامية تطغى الأكثرية المؤمنة على غير المؤمنين أو غير المسلمين ، لأن الدولة ديمقراطية ، وفيها قرار الأغلبية يسري على الجميع ، وإلا لن تكون ديمقراطية.

في أيلول سبتمبر 2012 شاركت في مؤتمر علمي في استنبول مخصص لبحث الآثار النفسية والاجتماعية للأزمة السورية وطرق علاجها، فكانت فرصة لي للقاء بعض الأصدقاء الناشطين، وللحوار معهم، وبفضل هذا الحوار، بدأت أتقبل أن تكون الثورة سلمية ومسلحة في آن معاً، ومعنى ذلك أن السلاح والقوة لا يستعملان إلا دفاعاً عن النفس والأهل والمال، ولا يجوز الهجوم، الذي يعني اللجوء للسيف لحل الخلاف السياسي، وبخاصة أنني أرى الصراع في سورية صراعاً سياسياً، وليس حرب تحرير للبلاد من غزاة اجتاحوها واستعمروها، فالنظام وكل أعوانه هم سوريون، ولهم حق في البلاد كغيرهم، لكنهم طغوا، فاستأثروا وظلموا، وأكلوا حق غيرهم مع حقهم، أي هم بغاة يطبق عليهم حكم الإسلام في البغاة.

رجعت من استمبول حيث كان المؤتمر، وبدأت أنضج تصوري عما يحل وما يحل من استعمال القوة في الثورة السورية، وعن صحة ما كان يظنه الشيخ البوطي، غفر الله لنا وله، من أن التظاهر السلمي هو خروج محرم، لأن الحاكم لم يعلن الكفر البواح. أثمر شهران من البحث والتفكر، أن اختمرت في ذهني القضية، فأخذت إجازة من العمل أسبوعاً، تفرغت فيه لكتابة مقالي السادس المطول، بعنوان "ثورة سلمية محمية" في تشرين ثاني نوفمبر 2012، وللمرة الأولى وضعت اسمي الحقيقي على المقال، لإدراكي أن ذلك يساعد على تقبل ما في مقالاتي من آراء فقهية جديدة، إن عرف الناس من هو قائلها. كان مقالاً طويلاً ومفصلاً، تبين لي

فيه المقصود من الأحاديث التي تحرم الخروج على الحاكم ، وما يحل لنا من استخدام للقوة في صراع سياسي بين مكونات الأمة الواحدة ، والحكم الإسلامي فيما يسمى العدالة الانتقالية ، ودعوت في مقالي هذا إلى أن نكون واقعيين ونقطف ثمار انتصارات الثورة الكبيرة ، وبذل ما نستطيع ، وتقديم تنازلات عن بعض مطالبنا ، لنرفع القتل والتجويع والتهجير عن جماهير السوريين ، الذين فُرضت عليهم الثورة ، دون أخذ رأيهم أو إذنهم. كنت أعلم أن انتصارات الثورة المسلحة المتنامية سيأتي يوم يتوقف فيه تقدمها ، ويصبح الانتصار هو الحفاظ على الأرض التي أخرج منها النظام ، وقد تطول الحرب وتطول ، والنظام متوحش لا يتورع عن ارتكاب أية جريمة في حربه مع الثوار ، وينتقم من الجماهير العزلاء ، لأنها حضنت الثوار ولم تحاربهم ، دون مراعاة أن الأهالي منهم المتعاطف مع الثورة فعلاً ، ومنهم الخائف من الثوار المسلحين ويتظاهر بالتأييد لهم. الدول المؤثرة في القضية السورية بمجموعها تريد للثورة أن تستمر ، لكن لا تريد لها أن تنتصر ، وقد بينت ذلك في مقالي السادس وحذرت من أن الأهالي سيتعبون ، إن طال الصراع العسكري ولم يحسم لصالح الثوار ، وسينقلبون على الثورة والثوار عندما يفقدون الأمل في انتصارها على النظام ، وللأسف ما كان إلا القليل يشاركني تخوفي هذا ، إنما الأغلبية كانوا منتشين بانتصارات الثوار على الأرض ، ويتوقعون سقوط النظام لا محالة في غضون أسابيع أو أشهر. لكن النظام لم يسقط ، ووقف مد الثورة المسلحة ، وانتقلت إلى طور الدفاع عن الأراضي التي سيطرت عليها ، ولا يبدو في الأفق أي أمل بحسم عسكري سريع لصالح الثورة.

عندما أخذ النظام ، بمساعدة حزب الله والمليشيات الشيعية العراقية والإيرانية والمتطوعين الشيعة من كل البلدان ، يستعيد مناطق في حمص ودمشق ، كثر الحديث عن دولة علوية يعمل النظام على إنشائها ليتحصن فيها. عندها في يوليو تموز 2013 كتبت مقالتي السابعة بعنوان "احذروا تقسيم سورية" ، لأن إقامة دولة علوية هي آخر ما سيلجأ إليه النظام ، إن هو فعلاً هزم هزيمة ساحقة. كان واضحاً لي أن القوى الدولية والإقليمية التي تحارب إيران على أرضنا وبدماء شعبنا ، تحضّر لإنشاء دولة أو أكثر في المناطق الشرقية من سورية ، التي استطاع الثوار إخراج النظام منها ، وكلها مناطق غالبية أهلها من المسلمين السنة ، أي إن الدولة التي ستقوم فيها ستكون دولة سنية ، وسيكون ذلك انتصاراً على إيران ، لأن هذه الدولة السنية ستكسر استمرارية الهلال الشيعي ، أي النفوذ الشيعي على أرض متصلة من إيران إلى العراق ، فسورية ، فلبنان ، وستفصل سورية أو ما تبقى من سورية ولبنان عن العراق وإيران ، وبالتأكيد ستكون موالية لأمريكا وتركيا ، وصديقة لإسرائيل ، لأن الجولان المحتل ليس جزءاً منها. أما سورية المتبقية ، فستزعم القوى الدولية أنها الحل الأمثل ، لحماية الطوائف السورية غير السنية من الاضطهاد ، حيث ستنخفض نسبة المسلمين السنة فيها إلى ما دون الخمسين بالمئة ، حتى لو عاد اللاجئون إلى ديارهم. النظام حريص على دمشق وحمص مثل حرصه على طرطوس واللاذقية ، وواضح أن أمريكا نجحت ، بعد غلطة النظام في استعمال الكيماوي على نطاق واسع ، في أن تبرم صفقة مع روسيا ، يتنازل فيها النظام عن الكيميائي وعن

أغلب المناطق التي هي بيد الثوار حالياً ، وتتنازل إيران عن طموحها النووي العسكري ، ويبقى ما هو بيد النظام للنظام ، مع ضغوط عليه لإجراء إصلاحات جزئية مماثلة لما يجري في اليمن ، أما الأراضي التي يسيطر عليها الثوار ، وهي في الاتفاق من نصيب النظام ، فلن يجبر الثوار على الانسحاب منها ، بل سيتركون يواجهون النظام وحزب الله وغيرهما ، دون دعم فعال ، فيستعيدها النظام كما استعاد القصير ، ويشعر الثوار بالهزيمة والحاجة للعون الأجنبي ، خشية انتصار النظام وعودته إلى المناطق التي في أيديهم ، وعندها يكون التقسيم والتعاون مع أمريكا خيراً لهم ، لأن شيئاً أفضل من لا شيء. بينت ذلك في المقالة السابعة ، والآن يبدو لي أن الأمور تسير في هذا الاتجاه وللأسف.

لقد وعدت القراء في مقالاتي عن الثورة بتأصيل مفصل لما جاء فيها من اجتهادات جديدة ، وكنت أنتوي أن أجمع المقالات والتأصيل في كتاب أسميه: "دليل الثورة السورية وتأصيله" ، لكن شاء الله أن يصدر التأصيل في كتاب مستقل ، انتهيت من تأليفه وإعداده ككتاب إلكتروني قبل أسبوعين ، ونشره على أوسع نطاق ومجاناً جارٍ حالياً. وكان اسم كتاب التأصيل: "الميزان: تجديد نظرية الإسلام السياسية" ، ثم ألهمني الله أن أجمع مقالاتي عن الثورة في كتاب ، بعد أن أقسم كل مقال إلى عدة أجزاء ، أضع عنواناً فرعياً لكل منها ، مما يساعد القارىء على متابعة قراءة الكتاب ، دون أن يشعر أن تائه في خضم مقالات طويلة ، كتبت استرسالاً ، ولم تقم على مخطط بحث مسبق.

جمعت المقالات السبعة وبما أنها لم تكن مقالات مناسبات وأحداث لها زمنها فإنها مازالت تحتفظ بفائدتها حتى بعد مرور سنتين على أولها ، لذلك تركتها كما هي ما عدا حذف بضع جمل من المقالات الثلاثة الأولى تتعارض مع ما استقر عليه رأيي من أن الدفاع عن النفس والأهل والمال ، ولو كان بالسلاح ، ليس خروجاً على الحاكم وليس محرماً ، ثم كتبت هذه المقدمة لأدعوكم إلى كتابي الجديد "مقالاتي _ بصائر سياسية إسلامية للثورة السورية" داعياً المولى أن ينفع به الأمة ، وأن يكتب لي ولمن يساعدني في إيصاله للناس الأجر العظيم.

والآن تفضلوا إلى "مقالاتي".. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

نجران ، المملكة العربية السعودية

في 23 تشرين ثاني / نوفمبر 2013

الدكتور محمد كمال محمود الشريف

استشاري الطب النفسي

بمستشفى الصحة النفسية بنجران

المقال الأول:

ما يحدث في سورية: إلى أين ؟

بقلم الدكتور محمد كمال الشريف

(سبق نشره بالاسم المستعار: الدكتور محمد ناصح عبد الله)

تمت كتابته في 2011/10/01 وتم تنقيحه وإعادة نشره في 31/ 05/ 2013

ما كنت أتوقع

ما كنت أتوقع أن يتجرأ أحد في سورية على الخروج متحدياً النظام السوري ولو بكلمة لكن ذلك حدث وبجرأة واستبسال رائعين يدلان على أن السوريين تغيروا وصاروا جديرين بحكام أحسن وأقل سوءاً من حكامهم الحاليين.

ما حدث في تونس ومصر شجع الشباب في سورية وأعطاهم الأمل في تغيير واقعهم وأعاد لهم الشعور أن الجهود يمكنها أن تؤثر ، وأنه لا بد لنا من التحرر من اليأس والشعور أنه لا جدوى من المحاولة اللذين كانا

مسيطرين علينا. لقد كان سقوط ابن علي ومبارك سريعاً وسهلاً ومغرياً للجميع بالمحاولة ، لكن الأمور لم تنجح بنفس السهولة في اليمن وليبيا وسورية ، ونحن مدعوون للتفكر في العوامل التي أدت إلى النجاح السهل السريع لثورتي تونس ومصر بينما تطلب الأمر دماراً واسعاً وشهداء بعشرات الآلاف وتدخلاً عسكرياً مكلفاً للإطاحة بالقذافي ، ولم تثمر المليونيات العديدة في اليمن حتى الآن.

الذي علينا الانتباه له هو أن استقلال الكثير من بلادنا ما زال منقوصاً وما زالت الدول المستعمرة تمارس التحكم بمصائر بلادنا وسياساتها عن طريق التحكم عن بعد وبطريقة غير ظاهرة للعيان بحيث تعيش الشعوب العربية وهم الاستقلال بينما هي ما تزال في الحقيقة شبه مستعمرة.

الانتصار السهل في تونس

خرجت فرنسا من تونس لكنها سلمت البلاد لمن يحكم تونس نيابة عنها ويضمن استمرار تبعية تونس لها في كل شيء ، ولم يكن الحكام وحدهم من يعمل لحساب فرنسا هناك ، بل حرصت فرنسا على الإمساك بخيوط التحكم بالجيش التونسي بحيث لا يستطيع أي حاكم أن يتمرد على فرنسا لو سولت له نفسه ذلك..وهكذا مرت عشرات السنين والشعب التونسي ينعم باستقلالية معلنة وظاهرية ، لكنه مستعمر من قبل وكلاء

الاستعمار الذين يضمنون للمستعمر الحد الأدنى من مصالحه بينما يترك لهم الحرية لينهبوا ويفسدوا كما يشاؤون لأنها الطريقة غير المكلفة له لدفع أجورهم.

ثم ذات يوم ثار الناس في تونس ، وسقط شهداء ، لكن ثورة الجماهير استمرت ووصلت إلى أسماع المستعمر الذي خاف أن تنجح الثورة في القضاء على كل الترتيبات التي مازال يحكم تونس من خلالها فكان لا بد له من إنقاذ الموقف عن طريق الاستجابة لمطالب الجماهير في التغيير سواء تغيير الوجوه أو إعطاء الحريات والديمقراطية.. عندها كان القرار أن ابن علي عليه أن يرحل ، وكانت التوجيهات للجيش التونسي أن يتركه يسقط ، وأن لا يسانده أبداً في محاولته البقاء . كان الرجل أذكى من غيره فحمل ما خف وزنه وغلا ثمنه ورحل غير مأسوف عليه. وانتصرت ثورة تونس بيسر وسهولة لم تكن تخطر ببال الكثيرين. إنه انتصار جزئي حيث ما زال الجيش التونسي على حاله وهو الجهة الوحيدة في البلاد القادرة على فرض ما تريد وقتما تريد لأن القوة هي الحق كما يقول المثل الإنكليزي. وهذا أبداً لا يقلل من قيمة التغيير الذي حصل في تونس لكن يجب الانتباه إلى أنه جزئي ونسبي ولن يكون جذرياً كما حلم الذين طالبوا به. الأمور لن تصبح مثالية في تونس قريباً ، لكنها بالتأكيد ستكون أقل سوءاً ، وسيكون الشعب التونسي قد حقق درجة أكبر من الاستقلال عن المستعمر الذي لن يزعجه أن تتحسن معيشة التونسيين وأن يتمكنوا من التعبير السلمي عن آرائهم طالما أن مصالحه الاستراتيجية مضمونة له. ستأتي حكومات منتخبة تعبر

عن اختيارات الشعب وستمارس سياسات تنطلق من مصالح الشعب لكن الجيش سيبقى دائماً جاهزاً لإجهاض أية ديمقراطية تهدد مصالح فرنسا وسياستها ، أي تتجاوز خطوطاً حمراء بالتأكيد منها أمن إسرائيل والحيلولة دون قيام دولة إسلامية مماثلة للدولة الإيرانية.

القابلية للاستعمار

ما حدث في تونس جعل المستعمرين يدركون أن الشعب التونسي قد تغير بعض الشيء ولم يعد قابلاً للاستعمار بنفس الدرجة التي كان عليها ، وبالتالي لن يتحمل نمط الاستعمار السابق ، ولا بد من التراجع أمامه ولو درجة . القابلية للاستعمار مفهوم اعتمد عليه مالك بن نبي رحمه الله في محاولته لفهم واقع بلداننا وتخلفها ، وهو مفهوم مهم وصحيح. فبقدر ما يتحمل شعب من الشعوب من استعمار ، وبقدر ما تكون الشعوب الغالبة مستعدة لدفع ثمن سيطرتها واستغلالها للشعوب المغلوبة ، وبقدر المنفعة المتوقعة من استعمار أمة لأخرى ، تتحدد نوعية الاستعمار ودرجته.

انتهت الحرب العالمية الثانية بهزيمة ألمانيا واليابان واستسلامهما دون قيد أو شرط ، لكن الدول المنتصرة لم تقم باحتلالهما بل اكتفت بقواعد لها في أراضيهما وبفرض قيود سياسية وعسكرية عليهما ، بينما نجح

البلدان المهزومان في بناء أقوى اقتصادين في العالم بعد الاقتصاد الأمريكي. لم يمتنع الغالبون عن استعمار ألمانيا واليابان بالطريقة التي استعمروا بها بلادنا كرماً أو أدباً منهم ، بل لأن شعبي البلدين غير قابلين لذاك النوع من الاستعمار ، ولئن أصر الغالبون عليه فستكون الكلفة عالية جداً ، أي هم استعمروهم بقدر ما يتحملون. والمتأمل يمكنه ملاحظة أن اليابان ما تزال غير مستقلة تماماً في سياستها الخارجية عن الولايات المتحدة التي تغلبت عليها . وهذا لا يعني أن وضع اليابان ليس أحسن من وضع البلاد العربية ، ولا بد لليوم الذي تتحرر فيه اليابان من جميع آثار هزيمتها من أن يأتي.

انتصار أسهل في مصر

أما مصر التي خرجت منها بريطانيا مهزومة وحصلت على قدر كبير من الاستقلالية فقد تم في عهد مبارك أن تحولت إلى شبه مستعمرة أمريكية. فمنذ كامب ديفيد ومصر تنفذ سياسات أمريكا في المنطقة وتتلقى ثاني أكبر مساعدات تقدمها أمريكا إلى دولة أخرى بعد إسرائيل. لكن هذه المساعدات أغلبها مساعدات عسكرية لا لأن أمريكا تريد تقوية مصر عسكرياً ، بل لتصل تلك الأموال إلى الجيش المصري الذي صارت رفاهية ضباطه معتمدة على المال الأمريكي ، وتحول كبارهم إلى موظفين عند أمريكا يقومون بضمان أمن إسرائيل وحماية النظام الذي ينفذ سياسات أمريكا.

قامت الاحتجاجات في مصر ، وكانت أمريكا ذكية ، حيث كان قرارهم منذ الأيام الأولى ، الاستغناء عن مبارك ومعاونيه ، من أجل أن تبقى مصر تحت نفوذها ، أي تخسر مبارك ولا تخسر مصر. وهكذا كان. منذ الأيام الأولى للاحتجاجات سافر المشير طنطاوي إلى الولايات المتحدة وتكررت تطمينات الأمريكيين أن الجيش المصري لن يطلق النار على المتظاهرين ، وأخذ الجيش المصري موقفاً سلبياً جعل مبارك يسقط بسرعة وسهولة ، ولو أن الجيش المصري كان يتلقى تعليماته من مبارك لما سقط مبارك ، ولكان الذين سقطوا بدلاً عنه عشرات بل مئات الآلاف من القتلى والجرحى. عندما قامت الثورة الإيرانية عام 1979 كانت سلمية مئة بالمئة ، وكان المتظاهرون يحملون الورود ويقدمونها للجنود ، لكن الجنود كانوا ينفذون أوامر قادتهم ويطلقون النار على المتظاهرين حتى سقط أكثر من سبعين ألف شهيد ، عدا عن أضعاف هذا العدد من الجرحى ، قبل أن تبدأ حالة من التململ في الجيش الإيراني جعلت الشاه يغادر البلاد ، ليقوم مجموعة من السياسيين الذين ترضى عنهم أمريكا بإعلان جمهورية إسلامية ، كانت بمثابة نجاح جزئي للثورة الإيرانية التي قبلت بهذا التغيير الجزئي حتى حين ، لتقوم بعد أشهر بثورة على الثورة ، قامت فيها بتطهير النظام الجديد من كل من له ولاء لأمريكا ، والذي ساعد على ذلك أن الثورة الإيرانية كانت منظمة ومخطط لها ولها قيادة موحدة ومطاعة إلى أبعد الحدود بخلاف ثوراتنا العربية الحالية العفوية الارتجالية.

ثورات غير جذرية

نجحت الثورة في إيران في أن تكون كاملة وجذرية وتحررت إيران من التبعية للغرب تحرراً تاماً ، ولا يخفى علينا مقدار الإرباك والإزعاج الذي سببته إيران لإسرائيل والغرب منذ سقوط الشاه. لكن ما حدث في إيران لن يحدث في مصر بل ستبقى مصر تابعة في سياساتها الاستراتيجية لأمريكا ، وسيبقى الجيش المصري حارساً للمصالح الأمريكية والإسرائيلية في مصر حتى لو جاءت حكومات منتخبة تمثل الشعب المصري تمثيلاً حقيقياً ، فهي لن تستطيع أن تخالف الجيش الذي يمسك بزمام القوة والقادر على الإطاحة بأية حكومة لا ترضى عنها أمريكا ولن يصعب عليهم إيجاد المبررات والأعذار لذلك. وحال تركيا وديموقراطيتها المنقوصة التي تعرضت للإجهاض مرات عديدة على يد الجيش التركي كلما تجاوزت الحكومات المنتخبة خطوطاً حمراء عنوانها علمانية الدولة ، هذه الحالة تصلح توضيحاً للدور الذي يلعبه الجيش المصري الآن والمتوقع له أن يلعبه لعدة عقود قادمة.

مع ذلك فإن التغيير الذي وقع في مصر جيد وخطوة نحو التغيير الجذري المنشود ، لكن التغيير الذي نحلم به لا يمكن أن يتم ما لم يكن التغيير في نفوس المصريين من حيث أفكارهم ومشاعرهم وأخلاقهم تغييرا كاملاً يتخلصون فيه من عللهم الاجتماعية ومن قابليتهم للاستعمار ، وقد يحتاج المصريون لبلوغ ذلك إلى أجيال. المهم أنهم يسيرون نحوه والتغيير الذي أنجزوه في نفوسهم يجعلهم جديرين بنظام حكم أقل سوءاً وأكثر حفاظاً

على كرامتهم ومصالحهم المعيشية ، والأوضاع الجديدة ستساعدهم على المزيد من تغيير ما بنفوسهم لتتغير أحوالهم. فالله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وتغيير ما بهم يتناسب مع مقدار التغيير الذي حققوه في نفوسهم.

ليبيا واليمن غير

الوضع في ليبيا واليمن مختلف حيث يمسك الحاكم بعوامل القوة في البلاد ويضمن للمستعمر تحقيق السياسات التي يريدها مقابل أن يتركه يفعل ما يشاء ويساعده على القضاء على خصومه السياسيين بغض النظر عن المباديء والقيم ، فالغربيون منافقون بما يخص حقوق الإنسان ، وكما قال الشاعر ، فإن قتل شخص واحد منهم جريمة لا تغتفر ، بينما قتل شعب آمن منا قضية فيها نظر.

الغرب خائف من مجيء حاكم لا يكون مخلصاً لهم مثل علي عبد الله صالح ، لذا تراهم لا يدعمون الحراك الشعبي دعماً حقيقياً ، بل يدعون إلى تغيير يتحكمون به ، تعبر عنه المبادرة الخليجية ، مع أنه صار واضحاً أن استمرار علي عبد الله صالح ليس في صالح أحد. لو كان الجيش اليمني يتلقى التعليمات من دولة أجنبية لسقط علي عبد الله صالح ربما بنفس السرعة والسهولة التي سقط فيه ابن علي ومبارك ، لأنه وقتها لن تتردد القوى

الاستعمارية في تغييره إرضاء لشعب صار واضحاً أنه الآن أكثر وعياً وأقل جبناً. ولو كان البديل عن صالح جاهزاً لما تمكن صالح من العودة إلى اليمن بعد أن خرج منها مصاباً، لكن ما زال في ظن هذه القوى أن صالح خير من غيره ريثما تتم ترتيبات لإحداث تغييرات ترضي الناس جزئياً دون أن تكون جذرية تهدد مصالح الغرب في اليمن والمنطقة.

أما القذافي الذي كان الغرب مقتنعاً أن من الخير أن يرحل فإنه ما يزال حتى الآن يقاوم، وله أنصار يقاتلون من أجله، وإن كان في حكم المنتهي. لكن علينا التفكر في الذي جعل سقوط مبارك وابن علي بتلك السهولة بينما سقوط حاكم بغيض وغير سوي من الناحية النفسية يحتاج إلى كل الدماء والأموال التي بذلت.

حكم آل الأسد

في سورية كان حافظ الأسد رجلاً قوياً ماكراً ويمسك بزمام الأمور بنفسه، ومتحكماً من خلال أجهزة أمنية متعددة تتجسس على بعضها البعض، يساعده بذلك اعتماده على الطائفة العلوية التي استطاع أن يربط رفاهها واستمتاعها بمميزات لم تحظ بمثلها في التاريخ ببقائه هو وأسرته في السلطة. كان حافظ الأسد يقدم لفرنسا ما تريده من سياسات وتعاون وتحقيق أهداف، وإن كان في الظاهر مستقلاً وممانعاً. الأمر الذي أسكتهم

عنه وجعلهم يتركونه في السلطة دون أن يعينوا عليه خصومه ودون أن يحاولوا جادين شراء ولاء الجيش والأمن في سورية.. فقد كان معهم كما يريدون ابتداءً من تقديم الجولان لإسرائيل إلى الوقوف مع التحالف الدولي ضد العراق وإقناع إيران بالحياد وقتها ، وذلك عندما قررت فرنسا الانضمام إلى أمريكا في حرب تحرير الكويت ، ورضيت بحصة من الغنيمة ، بعد أن كانت تحلم ببترول العراق والكويت من خلال دعمها لصدام. مات حافظ الأسد وجاء خير أبنائه ليحل محله ، بعد أن رد الله عن السوريين البلاء الذي كان سيقع عليهم لو كان باسل - بما فيه من كبر وتجبر وعدوانية - مكانه. بشار كان أطيب أولاد حافظ ، ومن طيبته قيل أنه كان يقال عنه في المدرسة الثانوية الأهبل. لم يكن أهبلاً على الحقيقة ، فذكاؤه واضح ، لكنه لم يكن عدوانياً ولا فاسد الطباع مثل إخوته أو عمه سيء الصيت رفعت. كان متوجهاً للطب والمعلوماتية وليس له أية طموحات سياسية ، ولعل عيب النطق بحرف السين ساعده على أن لا يكون متكبراً متغطرساً كبقية العائلة. وكان من طيبته مؤمناً بما كان يعلنه والده من قومية ومقاومة لمشاريع الاستعمار وإسرائيل في المنطقة ، فصار يتصرف بما يخالف مصالحهم ، فأغضبهم إلى حد أصبحت فيه فرنسا ألد أعداء سورية ومتحالفة مع أمريكا جورج بوش الابن في سعيها لإسقاط النظام السوري وبخاصة بعد مقتل الحريري.

بشار الطيب أو الأهبل كما وصفه من كان معه في المدرسة ، حاول أن ينتقل بسورية إلى مرحلة من الحرية والديمقراطية النسبيتين ، فكان

ربيع دمشق المعروف ، الذي يقال أن خدام كان أشد المعارضين له والأكثر حرصاً على إنهائه. وانتهى ربيع دمشق ، وأدخل الحرس القديم في نظام الأسد والمنتفعون الجدد بشاراً في إحباط تلو إحباط ، حتى اقتنع بطريقتهم واستسلم لهم ، ورضي بجمع المال ، فصار واجهة جميلة لنظام قائم على عصابة أمنية تسيطر على المدنيين والعسكريين في البلاد ، ولا تفهم من السياسة شيئاً ، بل هي كالوحوش لا تعرف إلا الافتراس والتعامل بالظفر والناب.

طيبة بشار وتهذيبه أكسباه حب الكثيرين من جماهير السوريين والعرب الذي كانوا لا يحبون أباه ، وبالتدريج استوعب بشار الدرس وبدأ يقدم لفرنسا وغيرها ما تريد ، فانتهت حالة العداء التي كانت بين سورية وفرنسا ، وصار طالب الشهادة الثانوية في سورية مطالباً بدراسة لغتين أجنبيتين الفرنسية إحداهما ، رغم الميل العروبي القوي لدى السوريين بما فيهم العلويون ، ولعل تلك المكاسب الثقافية لفرنسا كانت بعض الثمن الذي قدمه بشار ونظامه لاسترضائها. وعلينا أن نذكر أن الحكومة الفرنسية الاستعمارية التي كانت تحكم سورية أعلنت ولاءها لألمانيا عندما احتلت ألمانيا فرنسا في الحرب العالمية الثانية ، مما جعلها عدوة للحلفاء ، فدخل الجيش البريطاني ليحرر سورية من أتباع ألمانيا وليبقى فيها حتى تم إنهاء الانتداب الفرنسي على سورية بقرار أممي ، فخرج الفرنسيون من سورية مهزومين ، وكانت المكاسب الثقافية من نصيب بريطانيا ولغتها الإنكليزية رغم أن الاستعمار كان فرنسياً. وبعد الاستقلال استمر الصراع بين بريطانيا

وفرنسا على سورية وكانت الانقلابات الكثيرة التي عرفتها سورية بسبب هذا الصراع ومظهراً له ، إلى أن جاء حافظ أسد وطائفته ، وحُسمت الغلبة لصالح النفوذ الفرنسي ، وبدأت من وقتها فرنسا تحقق مكاسب ثقافية متزايدة في سورية.

ثورة كرامة

بدأت الاحتجاجات في سورية بهتافات في الحريقة بدمشق اعتراضاً على غطرسة رجل شرطة وتعامله المهين لبعض المواطنين ، لكن وزير الداخلية وقتها كان حكيماً واستطاع تهدئة الناس وامتصاص غضبهم. ولم أكن أتوقع أن يتجرأ أو قل يتهور غير من تهور ويخرج في احتجاجات علنية أخرى ، إلى أن قام فتية في درعا بالكتابة على الجدران (جاك الدور يا دكتور) وما شابه ، وبدأ القمع الوحشي المستكبر الذي لا يحترم قيماً ولا أدياناً ولا مقامات ، ولا يرى أية خطوط حمراء أمامه.. مما استثار السوريين الذين خرجوا يرددون (الشعب السوري ما بينهان) و(الموت ولا المذلة).. وتفتقت عبقرية كبار رجال الأمن عن خطة لمواجهة الانتفاضة ، تسرب ملخص لها وكان محضر جلسة لهم ، لكنه لم ينل حقه من الاهتمام ، ربما ظناً أنه قد يكون مفبركاً ، لكنني أعتقد أنه كان حقيقياً ، والأحداث حتى اليوم تؤكد أنه هو المتبع والمطبق في مواجهة النظام لثورة الشباب السوري. وتبين من هذا المحضر ومن سلوك النظام ولجوئه إلى حثالة الطائفة العلوية الذين جمعتهم عائلة الأسد حولها كعصابة لإرهاب الناس وفرض

سيطرتها عليهم خارج القانون والأجهزة الرسمية وهم المسمون "الشبيحة" ، تبين أن النظام ليس فيه من أصحاب القرار من يفهم شيئاً في السياسة وفن التعامل مع الشعب ومع أزمة مثل الاحتجاجات الشعبية السورية. فكان في كل تصرف أحمق من تصرفاتهم ، وتصرفاتهم كانت كلها حمقاء ، استفزاز لمشاعر السوريين وكشف لحقيقة النظام التي كانت خفية على الكثير من السوريين الذين ما كانوا يتصورونه بهذا السوء ، وكانوا مخدوعين به وبكلامه ويؤيدونه ، لأنه يبدو لهم أحسن الأنظمة العربية موقفاً من قضايا الأمة ، وأكثرها حرصا على مصالحها ومقاومة للمؤامرات عليها. أحبوه لذلك ، وغفروا له الكثير ، وتغاضوا عن الكثير من عيوبه ، فالرمد أهون من العمى.

جاءت أحداث سورية الأخيرة وردود الفعل الهمجية الحمقاء للنظام عليها ، لتعري سوأته للجميع ، وليراه القريب والبعيد على حقيقته ، وليتبين للكل أنه غير صالح لقيادة أمة تفوقت عليه كثيراً في الوعي والإخلاص والأخلاق ، وبالتالي لا يمكن أن تبقى راضية به يتحكم بمقدراتها ومصيرها ويرسم لها سياساتها. وهكذا فقد النظام وعلى رأسه بشار الكثير من شعبيته إن لم يكن قد فقدها كلها عند السوريين غير العلويين. لقد سقط النظام أخلاقياً وفقد احترام الذين كانوا يظنون به خيراً ، وتبين للجميع جهله وحمقه وعجزه عن القيام بشؤون الوطن في هذه المرحلة وفي قادم الأيام.

النظام والطائفة

المشكلة في سورية ، وربما النعمة الكبرى ، هي أن استقلال سورية عن فرنسا والقوى الاستعمارية الأخرى استقلال حقيقي إلى حد لا بأس به ، وليس لأي من هذه الدول على الجيش والقوى الأمنية المتحكمة بالبلد سلطة الأمر والنهي كما هو الحال في مصر أو تونس. لذا طال الأمر وقد يطول أكثر مما نتمنى ، وذلك لأن النظام الذي قام على الطائفة العلوية وحاباها ومكّن أراذلها من الاستعلاء والتجبر على باقي السوريين جعل هذه الطائفة لا تتصور حياتها من دونه وتخشى على مستقبلها إن هو سقط.

النظام يستخدم الطائفة العلوية ويقوم عليها لا من حيث هي طائفة دينية تربطها وتحركها معتقدات مشتركة ، بل من حيث هي أسر وعشائر مترابطة ويمكن أن يثق النظام بولائها. والسؤال الآن ما الفرق ؟ الفرق هو أن العلويين طائفة محددة ومعرفة على أساس معتقدات دينية معينة ، لكن هذه الطائفة قليلة التدين ولا تحركها إيديولوجيا دينية ، هم في الغالب الأعم غير متدينين لا وفق عقيدة أجدادهم (التي تؤمن أن الله نزل إلى الأرض واختلط بالبشر على هيئة رجل هو علي بن أبي طالب وبالتالي علي هو الله وليس مجرد ولي الله كما هو عند الشيعة)، ولا هم متدينون وفق عقائد إسلامية أخرى إلا قليلاً منهم. إنهم متسلطون على سورية لا من أجل تغليب معتقدهم ، فكثير منهم قد لا يؤمنون به ، وبخاصة أن أغلب المتعلمين منهم تعلموا الإسلام السني معنا في المدارس ، ولم يكن لديهم تعليم ديني

منزلي يعاكس ما تعلموه في المدارس ، اللهم إلا في بعض الأسر في قراهم ، وهذا ناتج عن ضعف التدين عندهم عموماً ، مما كان له أثر إيجابي في بلوغ دعوة الإسلام غير المحرفة إلى جميع من درس منهم في المدارس ونجا من الضغوط العائلية التي تصر على معتقدات غير التي تلقوها في المدارس.

أقول هذا لننتبه إلى أن الطائفة العلوية الآن تشكل مشكلة للتغيير في سورية لا من منطلق ديني راسخ يصعب التعامل معه ، بل من منطلق ولاء قبلي وعائلي تقويه المصلحة المشتركة والمنافع المتبادلة والمكتسبة من خلال ترابطهم ومحاباة بعضهم بعضاً في الوظائف الحكومية والمناصب وغير ذلك من طرق الانتفاع من السلطة. أي بكل بساطة مشكلتنا معهم ليست دينية ، إذ لو تسلط على الحكم أهل مدينة أخرى أو عشيرة معينة لتصرفوا بنفس الطريقة سواء كانوا مسلمين سنة أو مسيحيين أو غير ذلك ، فالمشكلة هي الاستئثار بخيرات البلد ، وهذا يقع فيه من يغلب على حكم بلد ما أياً كان معتقده ، ما لم يكن في تقوى الأنبياء أو الصحابة ، أو ما لم يكن نظام الحكم لا يسمح بذلك من خلال وجود رقابة شعبية ومساءلة حقيقية.

محاذير التطييف

العلويون في سورية تحركهم النزعة القومية العربية، وتحركهم مطامعهم الحياتية التي تحرك جميع البشر، كالسعي إلى الثراء والجاه والمتعة في إطار من ضعف الوازع الديني لديهم.

في وضع كهذا فإن الصراع مع الطائفة العلوية من منطلق ديني وطائفي سيكون مفيداً للنظام لا لأحد سواه. فمعاداتهم من منطلق ديني سيدفعهم إلى العودة إلى معتقداتهم القديمة لا قناعة بها، بل من منطلق التعصب للدفاع عن الذات والتوحد مع البقية، وهذا سيكون تراجعاً في حالتهم الدينية، بدل الذي نتمناه لهم وهو أن يثبتوا على العقيدة السليمة التي تلقوها في المدارس. إن معاداتهم على أساس المعتقد الديني سيجعلهم حريصين عليه بغض النظر عن مدى اقتناعهم به، وهذا سيحولهم فعلاً إلى طائفة دينية منغلقة على نفسها وولاؤها لنفسها، ويصبح من الصعب عليهم الشعور بالولاء لسورية ككل، كبلد ينتمي إليه أهله بغض النظر عن معتقداتهم الدينية، بل يشكلون أسرة واحدة مترابطة وكل له دينه الخاص، لكن مصلحتهم هي في العيش المشترك، وهم شركاء في الوطن، ولهم حقوق متساوية فيه، وكلهم يحرص عليه ويسعى لخيره.

ثم إن معاداة العلويين على أساس المعتقد الديني يعني أن تتحول الثورة من ثورة سورية شعبية من أجل الحرية والديمقراطية إلى ثورة طائفية سنية مخيفة لباقي السوريين من مسيحيين ودروز وإسماعيلية وغير ذلك ، وهذا سيجعل هؤلاء يفضلون البقاء تحت نظام فاسد وظالم لكنه يعاملهم كمواطنين متساوين - ولو نظرياً - لا كأقليات في بلدهم ، وسيجعلهم يقفون مع النظام ويحاربون الثورة ، رغم أنهم غير راضين عن النظام ، وليسوا مستفيدين منه كثيراً. وهذا يفسر لنا سبب حرص النظام على تحويل القضية إلى صراع سني علوي كالذي كان في السبعينيات وأوائل الثمانينيات ، حيث كانت هنالك حركة إسلامية مسلحة ليس لها امتداد شعبي واسع تحارب النظام من منطلق أنه نظام طائفي كافر. ويرينا أهمية أن لا نرجع إلى الوراء بعد أن نضج وعينا السياسي واقتنعنا أن مصلحتنا جميعاً هي في العيش المشترك على أساس المواطنة لا على أساس الانتماء الطائفي أو الديني.

كما إن استعداء الطائفة العلوية على أساس طائفي لا تستطيع الطائفة تغييره ، فهي لن تغير مذهبها لترضي السنة مثلاً ، وبالتالي تصبح الطائفة أمام تهديد وجودي ، يجعلها تدافع عن نفسها وعن النظام الذي ستتوحد معه بشكل كامل دفاعاً مستميتاً ، بل لنقل مميتاً ، لأن القوة العسكرية في سورية مركزة بيد ضباط علويين ، وهذا يعني اضطرار الطائفة إلى مذابح تسحق ثورة الشباب سحقاً.

يجب على الثائرين الحذر من أي انزلاق نحو الطائفية ، لأنه سيجعل البلد جبهتين: السنة مقابل اتحاد العلويين مع الدروز والمسيحيين والإسماعيلين والعلمانيين بكافة توجهاتهم الفكرية والسياسية ، وهو ما يتمناه النظام لأنه بذلك سيتغلب على الثورة ويقضي عليها قضاء لا تقوم بعده في ثلاثين سنة أخرى.

كما إن تحول الثورة إلى طائفية سيفقدها كل تأييد دولي اللهم إلا تعاطف السعودية ، لأنها لا يمكن أن تصطف ضد الطائفة السنية ، لكنها لن تدعم ثورة طائفية ولو كانت سنية إلا دعماً ضعيفاً لرفع العتب والملامة لا أكثر. الثورة الآن ولأنها ثورة وطنية وشعبية تطالب بحقوق جميع السوريين في حياة حرة كريمة وليست ثورة أصولية إسلامية ولا ثورة معادية للغرب قد اكتسبت تعاطف وتأييد أغلب الدول والشعوب.

المواطنة للجميع

سمعت الشيخ العرعور يقول إن الثورة إن نجحت ستعامل العلويين وغيرهم من الأقليات بالحسنى كما عامل عمر بن الخطاب اليهود في المجتمع المسلم ، وهذا رأي غير موفق ، لأن عمر بن الخطاب تسلم السلطة بعد انتصار المسلمين وتغلبهم على من سواهم بالسلاح ، أما الوضع المماثل لوضعنا الآن فهو وضع النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمين لما

هاجر إلى المدينة وأسس دولة فيها كان لليهود فيها وضع المواطنة الكاملة ، لهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين ، فهم أصحاب البلاد والمسلمون مثلهم ، إضافة إلى المهاجرين من مكة وأعدادهم محدودة ، وعلينا في هذا العصر تذكر أننا لسنا غزاة فاتحين ، بل نحن أبناء وطن واحد نتشارك أرضه وسماءه وخيراته مع إخوة لنا قد يختلفون عنا بالدين أو المذهب لكن لهم علينا حق البر كما لآبائنا وأمهاتنا علينا حق البر ، وليس ذلك كرماً ولا تسامحاً منا معهم ، فنحن لسنا أحق بالبلاد منهم ، أما اختلاف الدين والرأي ، فالأصل أنه لا إكراه في الدين ، ومن حقنا وحقهم أن تكون لنا ولهم حرية الاعتقاد وممارسة المعتقد في إطار قانون ينظم علاقتنا ببعض فلا يطغى جانب على جانب. ولنتذكر أنه لو كان هنالك مسلم وأمه أو أخوه مشرك -ولا أقول كتابياً ، حيث لأهل الكتاب وضع مفضل في الإسلام- فإن عليه بره أو برها ، ولا يحرم حتى الشرك أو الإلحاد أهلنا من حقهم في برّنا ، وهو ليس تفضلاً منا عليهم ، بل حق لهم ، علينا أداؤه بلا منَّة.

رغم اختلاف الدين والمعتقد بين الرسل وأقوامهم الذين قص علينا ربنا في القرآن قصصهم ، ورغم معاندة هذه الأقوام للدعوة واعتدائها على رسل الله حتى استحقت من الله الإهلاك والدمار ، يصر القرآن الكريم على أن الرسل هم إخوان لأولئك الذين كفروا وعاندوا ، وحتى لوط الذي أرسل إلى قوم غير قومه ، فقد وصفهم الخالق أنهم إخوان لوط.

نحن في حاجة إلى إعادة فهم علاقتنا بأبناء أمتنا الذين نشترك معهم في وطن واحد، لنتخلص من أفكار غير ناضجة انتشرت عند بعض المتدينين وجعلتهم يحلمون بدولة إسلامية خالصة للمسلمين، كالدولة التي يحلم بها اليهود ويريدون أن يعترف لهم العالم أن إسرائيل دولة يهودية، ليكون العرب فيها ضيوفاً وهم أصحاب البلاد الأصليين. علينا نحن الذين ننتمي للأكثرية الدينية في سورية أن نضع أنفسنا مكان باقي أبناء وطننا الذين ينتمون لأديان أو مذاهب أخرى ولا يشكلون أكثريات عددية، لنحس بأحاسيسهم ونفهم مخاوفهم ولا نستغرب إصرارهم على حق المواطنة المتساوية معنا.

السلمية أقوى

أما النظام الذي يتصرف بمنتهى الغباء السياسي، والمتوقع له أن يستمر في غبائه المتأصل فيه، فقد خسر الكثير من رصيده عند أغلب السوريين من جميع الطوائف وعند بعض العلويين أنفسهم ، وهو باستمرار أخطائه وجرائمه التي يقع فيها كل يوم سيخسر شعبيته عند الطائفة العلوية، التي سيأتي يوم تخشى فيه على مصيرها مع تورط بعض أفرادها في جرائم بشعة ضد باقي السوريين لا يبررها شيء، بخاصة إن نجحت الثورة في البقاء ثورة لا عنف وثورة سلمية مئة بالمئة، لا تمسك ولا حتى حجراً أو عصاً، بل ثورة التزام بكفِّ الأيدي، كما التزم المسلمون في مكة قبل الهجرة

بكفّ أيديهم رغم كل الأذى والتعذيب الذي تعرضوا له ، لكنهم لم يمدوا أيديهم ولا حتى للدفاع عن أنفسهم.

صحيح أن من مات دفاعاً عن نفسه أو عرضه أو ماله فهو شهيد ، لكن هذا مختلف عن الخروج المسلح على الحاكم ، إنما يحل لنا أن نقول للحاكم الظالم يا ظالم كما هو حال المتظاهرين في سورية ، لكن علينا كفُّ أيدينا وعدم المبادرة بأي نوع من السلاح لأن أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر. وإن كانت رخصة الدفاع عن النفس والعرض والمال تجاه أي معتدٍ قائمة ويحق لنا الأخذ بها ، إلا أن الحرص على السلمية وكف الأيدي هو الأصل... إن الخروج في المظاهرات السلمية جهاد ، والموت فيها استشهاد لا شك فيه ، ومن كان مستعداً للموت في سبيل الله فليقدم عليه ، ولا يفسده ببسط يده إلى عدوه لا بسلاح ولا غيره ، إلآ دفاعاً عن نفسه. فبمجرد أن تبسط يدك لتضرب أو تقتل إلا دفاعاً عن نفسك فإن الموقف كله سيفقد تأثيره في الناس وباقي الشعوب وسيصبح موقف مصارعة يكون لدى الناس رغبة في معرفة من الغالب فيه ، والغالب كما يقال ذنبه مغفور ، فالدنيا بطبعها تميل مع المنتصر والغالب بغض النظر إن كان ظالماً أو مظلوماً.

إن الثورة إن لجأت إلى السلاح ولو مجرد قبضات أيدي أبنائها العزلاء تكون قد دخلت مع النظام في مباراة هو الفائز فيها حتماً ويقيناً ، لأن العنف هو اللعبة الوحيدة التي يجيدها ، والسلاح الذي بيده لا مقارنة بينه وبين ما

يمكن لمعارضة مسلحة أن تمتلكه ، والتنظيم والتدريب لديه لا يمكن لمعارضة شعبية أن تتفوق عليه فيهما ، ولا تخدعنا انتصارات الليبيين فالحال مختلف تماماً. إن إصرار الشباب على التظاهر وتلقي الرصاص الحي بصدور عارية وإيصال صورة ذلك وخبره إلى باقي السوريين وباقي شعوب الأرض هو الذي سيسقط النظام ، ولن يستطيع النظام مقاومته والقضاء عليه. . فسلمية الثورة تجعل الصراع والمنافسة والمباراة في شيء لا يمتلكه النظام ولا يقدر عليه ، فهو إما أن يسمح بالتظاهر دون أن يقتل المتظاهرين وعندها ستخرج المظاهرات المليونية وهذا ما يخشاه ، أو أن يستمر الحال على ما هو عليه الآن مظاهرات خاطفة أو طيارة كما سماها ياسين الحاج صالح يتم فيها الهتاف والتصوير والنشر ثم الهروب مع ما يمكن أن يسقط فيها من شهداء أو مصابين ، وهذا يعني أن تتفاعل الأمور أكثر فأكثر ، فيضطر العقلاء من الضباط العلويين الممسكين بمواطن القوة في البلاد إلى أن ينقذوا أنفسهم وطائفتهم من مصير مخيف ، وذلك بأن يتخلصوا من النظام الذي سيكون يومها عبئاً ثقيلاً جداً على الطائفة العلوية ، وستتخلى عنه حفاظاً على نفسها ومكتسباتها ، فالإنسان مستعد للتضحية حتى بعينه إن صارت مصدر خطر على حياته.

الأمل بالعلويين

العلويون هم الآن الأمل وطوق النجاة الوحيد للنظام ، ما لم تتحول الثورة إلى مسلحة أو طائفية (سنية ضد علوية) ، والعلويون هم من سينقذ

سورية من نظام تغوَّل ومستعد أن يضحي بهم جميعهم ليبقى في الحكم. النظام ليس فئة ذات عقيدة حقيقية تدافع عنها وتموت في سبيلها ، سواء كانت عقيدة صحيحة أو فاسدة من المنظور الديني ، إنه عصابة ممن يستأثرون بخيرات البلاد والعزة فيها لتكون لهم الكبرياء في الأرض من دون الناس ، وللكبرياء لذتها ، وللثروة إغراؤها ، وهم مستعدون للتضحية حتى بأبناء طائفتهم ، لأنهم لا يهمهم إلا أنفسهم ، ولو كان لديهم خلق أو ضمير لما ارتكبوا ما يرتكبونه كل يوم من جرائم بشعة أذهلت البعيد والقريب.

أنا على يقين وإن كان لا يعلم الغيب إلا الله ، أنا على يقين أن الطائفة العلوية سوف تتخلى عن النظام ولو بعد حين ، لأن الطائفة بشر مثل باقي السوريين لهم آمالهم ومخاوفهم وتهمهم أنفسهم ومستقبل أجيالهم ويفكرون بمنطق كما نفكر ، ويوماً بعد يوم سيتكشف للعلويين كذب النظام وزيف ادعائه أنه يواجه مؤامرة خارجية وأن جماعات إرهابية هي التي تقتل المتظاهرين السلميين العزَّل ، وستراه الطائفة على حقيقته عصابة من القتلة واللصوص والدجالين ، وستشعر بالخوف على مصيرها إن تركته مرتبطاً بهذا النظام الذي يورطها كل يوم بمزيد من الجرائم يرتكبها حثالة الطائفة ويتحمل وزرها كل الطائفة.

هذا ليس استعطافاً للطائفة إنما هو توقع لما ستصل إليه الأمور ، لأن سنن الله في خلقه لا تتخلَّف سواء في الطبيعة أو النفوس والمجتمعات.

المظاهرات حتى لو كانت مليونية لن تسقط نظاماً من أناس لا حياء عندهم - وإن لم تستحِ فاصنع ما شئت- كما قال النبي صلى الله عليه وسلم. إن المظاهرات لن تسقط النظام بفعل صرخات المتظاهرين ، إنما ستسقطه لأنها تجبره على التصرف بوحشية لا يبررها شيء ، وعلى ارتكاب المزيد من الجرائم ، وزيادة العيار كل يوم على أمل أن ينجح في إعادة الخوف إلى النفوس.. ضحاياه هم الذين سيقضون عليه وإن بغير أيديهم ، وكما قيل من مأمنه يؤتى الحذِر.

اثبتوا على السلمية

صحيح أن النظام يرعبه الانشقاقات في الجيش لأن الانشقاقات إن كثرت فسينفرط عقد الجيش ويتحول إلى فوضى مخيفة ، لكن النظام لا يخاف من تحول الثورة الشعبية إلى مسلحة ، بل يتمنى ذلك لتتغيير قواعد اللعبة وندخل في لعبة يجيدها هو ومتمرس عليها ولديه كل مقومات الفوز فيها فوزاً ساحقاً. لذا علينا بذل كل شيء لتبقى أيدينا مكفوفة ، ولتبقى ثورتنا سلمية مئة بالمئة ، ولا حاجة هنالك لأي عسكري يريد حماية المتظاهرين من بطش رجال الأمن والشبيحة ، فمن يريد الحماية من هؤلاء المتظاهرين يمكنه لزوم داره وهم لن يأتوا إليه. أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر ، وسيد الشهداء رجل قام إلى إمام (أي حاكم) جائر فوعظه فقتله ، أي لم يزد هذا المجاهد على قول الحق بلسانه ، فقتله الحاكم الظالم وأوصله إلى مرتبة سيد الشهداء.

إن الخروج في المظاهرات السلمية والمشاركة في الفعاليات السلمية للثورة السورية جهاد في سبيل الله يكتب الله الأجر لمن يشارك فيه ولا يلوم من يخاف على نفسه فيمتنع عن المشاركة طالما أن قلبه مع إخوانه المجاهدين من أجله وأجل أنفسهم ، لذا لا مبرر لأي عنف من أجل حماية المتظاهرين.. إنما هو جهاد الكلمة والاستعداد للموت في سبيل إيصالها ، والله يعطي عليه جنة عرضها السماوات والأرض ، وما أحسب المتظاهرين يريدون فعلاً من يحمل السلاح ليدافع عنهم ، فقد خرجوا ليقولوا كلمة الحق ويموتوا من أجلها ، ولا يريدون حماية أحد إلا ربَّ العالمين.

وهذا يوصلنا إلى موضوع الحماية الدولية ومطالبة بعض المتظاهرين بها لأنهم ظنوا أن لا أمل إلا فيها ، ولأنهم غالبهم جماهير طيبة لا تعرف مكر الساسة وأطماع الدول في خيرات غيرها. إن الحظر الجوي لن يحمي المتظاهرين من جرائم الشبيحة والمخابرات ، فالحظر الجوي على جنوب العراق وشماله بعد حرب تحرير الكويت عام 1991 لم يمنع صدام من ارتكاب مجازر بحق أهل البصرة لما انتفضوا عليه ، بل مهد لتقسيم العراق ولم يضمن أية حماية للمنتفضين. وحتى القصف الجوي المركز لم يضمن سلامة الليبيين ، فالذين قتلوا بعد بدئه أضعاف الذين قتلوا قبله ، عدا عن إنه يفقد الثورة طابعها السلمي الذي لا يعرف النظام كيف يتعامل معه ، إضافة إلى أن القصف الجوي لن يستطيع انتقاء الشبيحة ورجال المخابرات ليقضي عليهم ويحمي الناس من أذاهم. أما الاحتلال الأجنبي فاسألوا

العراقيين عنه ، ولعل استمرار النظام الحالي مئة سنة خير لنا من الاستعمار والفوضى المدمرة.

لكن مالذي يمكن للدول الأخرى أن تقدم لثورة السوريين السلمية ؟

يمكنها الاستمرار في فضح جرائم النظام وإيصال صوت الثوار والمعارضة لباقي السوريين وباقي الشعوب والحكومات ، ويمكنها تزويد الثوار بوسائل تمكنهم من كسر الحصار الإعلامي الذي يفرضه النظام وأقلها أجهزة الاتصال التي يمكنها تجاوز أجهزة الاتصالات المحلية ، ويمكنها مواصلة وتصعيد ضغوطها السياسية على النظام والتضييق عليه مما سيعجل في شعور الطائفة العلوية بخطورة الوضع الذي يورطها فيه النظام وعندها تنضم إلى الثورة بالطريقة المناسبة لها.

نحن نريد تحسين أوضاعنا لا أن نعالج البلاء ببلاء أشد منه ، وعلينا أن نصبر ونواصل الجهاد ونحن موقنون أن الله ناصرنا ، لكن لا بد لكل شيء من أسبابه ، ولن نتوقع أن ينقذنا الله كما أنقذ إبراهيم من النار بأن غير طبيعتها فكانت برداً وسلاماً على إبراهيم. لا بد للعوامل أن تجتمع وتتفاعل ليحدث التغيير والنصر. وإنه وإن كان التغيير المتوقع ليس جذرياً ، ولا يعني إزاحة الضباط العلويين نهائياً عن سيطرتهم على الجيش ، لكنه بالتأكيد يعني تحرر الناس من تسلط ضباط الأمن والمخابرات

وتدخلهم في جميع أمور السوريين ، وتمتعهم بحصانة تمكنهم من ارتكاب الجرائم بحق المواطنين دون مساءلة أو عقاب ، والتغيير غير الجذري المتوقع سيعطي الناس حرية التعبير عن آراهم والمشاركة السياسية وسيأتي بأناس منتخبين يتولون إدارة شؤون البلاد والعباد منهم الصالح والطالح ، لكن سيكون هنالك تداول وإمكانية لفضح السارق ومقاضاته. لن تسمح القوى العظمى لحكم ثوري جذري معادٍ لها ويهدد إسرائيل تهديداً حقيقياً ، فعندها ستدعم بقاء النظام الحالي ولن نهمهم في شيء ، كما إنني أتوقع أن يتم أي عمل إنقلابي يقوم به الضباط العلويون ومن معهم من أبناء الطوائف الأخرى بالتنسيق إن لم يكن بدعم ومؤازرة الدول الغربية وبخاصة فرنسا ، التي بالتأكيد لها اتصالاتها بضباط الطائفة العلوية المتنفذين في الجيش والأمن.

كلنا مواطنون سوريون

علينا ترسيخ قناعتنا بقضية المواطنة لكل السوريين على اختلاف أديانهم ، وأنه حتى لو وصل إسلاميون إلى السلطة عندما تعود سورية ديمقراطية فإنهم لن يفرضوا الحجاب على أحد.. فالتاريخ والفقه الإسلامي يؤكدان أن بلاد المسلمين في عصور الخلافة الإسلامية كانت تخرج فيها ملايين النساء وكثير منهن سافرات ، فما لا يعرفه كثيرون أن الإسلام لا يفرض الحجاب على المرأة المسلمة إن كانت مملوكة وليست حرة ، جميلة كانت أو غير جميلة ، ولا يحمي الرجال من فتنة النساء بتحجيبهن بالإكراه ،

بل على الرجال غض أبصارهم. ألم يكن في الجواري الجميلات من كل الجنسيات السافرات فتنة لمن لا يغض بصره من الرجال المسلمين؟ الحجاب يحمي المرأة المسلمة من أن ينظر إليها الرجال كجسد وينسون الإنسان فيها ، لذا ترك وجهها تكشفه للجميع لأنه موضع الإنسانية حيث تلتقي الأبصار بالأبصار ، أما الجارية التي تشترى بالمال فلا معنى لتكليفها بحجاب يصونها من أن تعامل كجسد وهي تُقَيَّم بالمال وتورث كما تورث الأشياء ، أما إن تحررت ، فعندها يكون لحجابها معنىً.

تركيا الآن تحكمها فئة مؤمنة غير قادرة على فرض أي قيود دينية إجتماعية على الناس حتى لو أرادت ، لكنها ولأنها فئة من الناس الذين لا يسرقون مال الأمة ولا يخونونها ، استطاعت أن توصل تركيا إلى مرتبة الدولة العشرين عالمياً في الاقتصاد خلال بضع سنوات لا غير. علينا أن نطمئن غير المتدينين وغير المسلمين أن الثورة ليست كثورة إيران دينية متعصبة ، بل هي ثورة الأمة السورية كلها ومن أجل جميع أبنائها ، فإنه بدون هذا التطمين ستبقى الطوائف الأخرى مترددة في المشاركة ، والثورة بدون مشاركة الجميع فيها لن تحقق التغيير المنشود ، ولن يتحقق أي تغيير مهم ما لم تنضم الطائفة العلوية للثورة ممثلة بجماهيرها وضباطها وزعمائها.

غيرهم مثلهم

علينا أن لا نتصور كل العلويين أشرار لأن منهم الشبيحة وعناصر المخابرات فهؤلاء ليسوا كل العلويين ، والعلويون هم الأكثرون في الأمن لا لأنهم أشرار إنما لأن النظام لا يثق بغيرهم ، ولو وثق لوجد الكثير من أبناء السنة والطوائف الأخرى مستعدين للقيام بما تقوم به الشبيحة والمخابرات. كما علينا أن لا نتصور العلويين شياطين أو مستكبرين لأننا تصادف أن واجهنا إساءة من أحدهم أو سمعنا كيف أساء بعضهم الأدب ، أو أكل حقوق الناس معتزاً أنه علوي لديه القدرة على إيذاء الناس من خلال الأمن. لو كانت سورية تحكمها قبيلة أو عشيرة أو أهل بلدة من أي دين آخر لظهر من كثير من هؤلاء نوعيات لا تقل حقارة ونذالة عما ظهر من بعض العلويين الذين غرتهم قدرتهم على إيذاء الناس فطغوا وتجبروا. إن الطغيان والظلم لا دين له ، والبشر يقعون فيه على تنوع قومياتهم أو أديانهم أو طوائفهم. القضية قضية أخلاق قبل كل شيء.. ألم يقل النبي صلى الله عليه وسلم خياركم في الجاهلية خياركم في الإسلام إذا فقهوا. والذي يعرف العلويين عن قرب ، يعرف أن أكثرهم أناس طيبون ويريدون أن يعيشوا مثل كل السوريين ، وأننا لو كنا مكانهم نتمتع بوضع متميز على الآخرين في البلد ، من منا كان سيترفع عن المنافع أو الوظائف أو المنح الدراسية أو غيرها لأنها لا تعطي للجميع بالعدل؟ أعتقد أن القليل القليل من كان سيفعل ذلك ، وبخاصة أن ما يصل إلى جماهير العلويين من المنافع ليس من قبيل المنافع غير العادية ، بل هي غالباً مما يستحقه أي مواطن سوري ، اللهم إلا

أكابر مجرميها الذين يستأثرون بخيرات البلاد ويحجبونها عن باقي السوريين بما فيهم العلويون. هل سمعتم أن رامي مخلوف وأمثاله يبذلون ملياراتهم للنهوض بحال المناطق العلوية وفقرائهم؟

كل امريءٍ بما كسب رهين، ويوم القيامة يفصل الله بين الناس فيخبرهم من كان منهم على حق ومن كان على باطل، أما في الدنيا فنحن السوريين عائلة واحدة تتعامل بالبر والمعروف فيما بينها وتتعاون من أجل حياة أفضل لجميع أبنائها أياً كانت أديانهم أو قومياتهم.

المقال الثاني

ما لنا غيرك يا الله

بقلم الدكتور محمد كمال الشريف

(سبق نشره بالاسم المستعار: الدكتور محمد ناصح عبد الله)

تمت كتابته في 2011/10/16 وتم تنقيحه وإعادة نشره في 2013/06/01

حيرة وتخبط

أكملت الثورة على الظلم في سورية شهرها السابع ، والحال كما يبدو ظاهرياً يراوح في مكانه ، مظاهرات طيارة سريعة تهدف إلى تسجيل هدف في مرمى النظام ، يقابلها عمليات قتل واعتقال وتعذيب حتى الموت ، بل وتهديد بخطف النساء وانتهاك الأعراض من أجل بث الرعب في النفوس .. المجتمع الدولي مستمر في حربه الكلامية على النظام وفي فرض عقوبات لا تسمن ولا تغني من جوع ، والثائرون في سورية يستجيرون بالحماية الدولية ، حتى إذا يئسوا من البشر لجؤوا إلى رب البشر فكان هتافهم (ما لنا

غيرك يا الله). وفي نفس الوقت يتمرد بعض الجنود والضباط الصغار على الأوامر المعطاة لهم بقتل المتظاهرين ، وينتهي التمرد بتصفية أكثرهم وفرار البعض وتشكيله كتائب تريد القيام بعمليات انتقام ضد الأمن والشبيحة.

أمريكا وأوربا تحاولان استصدار قرار إدانة للنظام السوري وتهديد له من مجلس الأمن فتتبارى روسيا والصين في استخدام الفيتو ضد هذا القرار ، وهذا يزيد النظام غروراً واستخفافاً بالذي يجري وإمعاناً في المكابرة ومحاولة القضاء على الثورة بدل الاعتراف بها والتحاور الجدي معها.

الذين قاموا بالثورة في سورية هم شباب قرروا إما العيش بكرامة أو الموت في سبيل الله ، ولم يعد الخوف كافياً ليبقيهم خانعين خاضعين ومستسلمين للظلم والتهميش. هؤلاء الأبطال لديهم الكثير من النوايا الطيبة المخلصة لكن حنكتهم السياسية ما تزال أقل من همتهم وبطولتهم ، وبخاصة أن النظام الذي حرَّم على الناس ممارسة السياسة في سورية منذ ثمانية وأربعين سنة ، لم يسمح لنمو طبيعي للوعي السياسي في البلاد ، وإن كان الشباب فاقوا كل التوقعات من حيث وعيهم واستبسالهم.

في هذا المناخ يبقى المجال مفتوحاً لمن يريد الاصطياد في الماء العكر ، سواء من قبل النظام أو من قبل بعض القوى الدولية التي تريد اغتنام الفرصة لتحقيق أهدافها الخاصة في منطقتنا. النظام يخوف الطوائف

غير السنية ويخوف العلمانيين في سورية من سقوطه ومجيء حكومة متطرفة على النمط الإيراني الذي يضيّق على الحريات الشخصية والسياسية باسم الإسلام، كما يقوم النظام في نفس الوقت بمحاولة إشعال فتنة طائفية بين السنة والعلويين لعلها تكون طوق نجاة له، كما يحاول استفزاز الثائرين وجرهم إلى التورط في العنف وحمل السلاح كي تتغير قواعد اللعبة إلى لعبة هو ماهر فيها وقادر على المغالبة والانتصار. وبالمقابل تحاول أمريكا استغلال الظروف كي تخلق رأياً عاماً في سوريا مرحباً بتدخلها عسكرياً للإطاحة بالنظام والإتيان بنظام غيره، نظام نحن نحلم أن يكون نظاماً مخلصاً وأميناً على مصالح الأمة، وأمريكا تحلم أن يكون عميلاً لها ينفذ سياساتها ويحمي اسرائيل.

الحيرة والتخبط واضحان هذه الأيام في التناقض بين الأصوات المطالبة بحماية دولية للمتظاهرين والأصوات الرافضة للتدخل العسكري، وبين الأصوات المطالبة بحمل السلاح لمواجهة نظام لا يفهم لغة أخرى غير لغة القوة، وأصوات تؤكد على سلمية الثورة وبعدها عن الطائفية. في غمرة هذا التخبط وهذه الحيرة رفع المتظاهرون لافتات تطالب بتدخل أجنبي في بلادهم، أي بالعودة إلى عصر الاستعمار المباشر، وهم ما كانوا ليطالبوا بذلك لو علموا ما وراء الرغبة الأمريكية المعلنة في مناصرة الثورة السورية عسكرياً، ولو علموا أنهم في غنىً عنها وسينتصرون من دونها.

يحلمون بتقسيمنا

على الرغم من أن حرباً أهلية حصدت عشرات الألوف من الشهداء في ليبيا واستهلكت مليارات كثيرة من الدولارات واعطت امتيازات لأمريكا وفرنسا في نفط ليبيا إلا أن ترقُّع القوى الغربية عن احتلال ليبيا أو تقسيمها أوْهَم الكثيرين منا أن الدول الغربية يمكن أن تساعدنا دون أن تحتل أرضنا أو تقسم بلدنا. والحقيقة أنهم لا يهمهم من ليبيا إلا نفطها وأسواقها الواعدة ، بينما سورية ذاتها مهمة لهم رغم فقرها في النفط وغيره من الثروات الطبيعية. الأرض السورية والأمة السورية هي ما تريد أمريكا أن تسيطر عليه لا النفط ولا غيره. لقد ضمنوا السيطرة على النفط الليبي لأجيال مقابل معونتهم للثوار الليبيين في القضاء على نظام القذافي ، وهم ليسوا في حاجة إلى توسيخ أيديهم باحتلال مباشر لليبيا التي لا تهمهم صحراؤها الشاسعة إلا بما تحويه في باطنها من نفط. إن احتلال بلد شاسع مثل ليبيا والمحافظة عليه محتلاً سيكون أمراً مرهقاً ومكلفاً لهم ولن يعطيهم من المنافع أكثر مما أخذوه دون أن يتورطوا ويكسبوا سواد الوجه.

سوريا مختلفة عن ليبيا من حيث موقعها الاستراتيجي وصغر مساحتها وتشكيلتها الطائفية والعرقية وجوارها لإسرائيل. من يسيطر على سورية ويضع قواعده العسكرية فيها يسيطر على الشرق الأوسط بكامله ، فهي تتوسط هذا الشرق الأوسط وتقع في القلب منه. منذ سنين طويلة والأمريكان يحلمون باحتلال سورية لكنهم كانوا خائفين من رفض

السوريين لهم ومقاومتهم لاحتلالهم على اختلاف طوائفهم وأديانهم وأعراقهم .. لقد دخلت القوات الأمريكية إلى العراق واستقبلها بالترحاب ثلثا الشعب العراقي من أكراد وشيعة ، ومع ذلك أرهقت المقاومة التي لم تكن متوقعة كل خططهم في العراق ، وجعلت بقاءهم فيه مكلفاً جداً لهم. هذا لا يعني أنهم لم يحققوا شيئاً مما احتلوا العراق من أجله ، فالعراق أصبح مقسماً إلى ثلاث دويلات تماماً كما كانت تحلم إسرائيل: دولة كردية ، ودولة شيعية ، ودولة سنية ، وإن كانت شكلياً ما تزال متحدة اتحاداً ضعيفاً. ارجعوا إلى كتيب خنجر إسرائيل الذي نشره صحفي هندي في أواخر الخمسينات أي قبل هزيمة سبع وستين بعدة سنين لتروا ما تحلم به اسرائيل ، من تقسيم لمنطقتنا إلى دويلات طائفية متناحرة تكون إسرائيل بينها بمثابة دولة عظمى متحكمة ، ويكون في ذلك ضمان لبقائها وأمنها وازدهارها. لقد قرأت هذا الكتيب بعد هزيمتنا في حزيران سبعة وستين ربما بسنة أو أكثر ، وكنت قبل حرب حزيران أراه معلقاً مع مجلات سوبرمان وميكي ماوس التي كان يبيعها رجل في حيينا ضمن ما يبيعه مما يرغب به الأولاد من حلوى وألعاب ، وكان الكتيب تزينه فضلات الذباب من طول الزمن الذي عرض فيه دون أن يجد من يشتريه.. كنت أشتري مجلات سوبرمان وقصص الأطفال ولم تراودني فكرة شراء هذا الكتيب الذي كان على غلافه صورة خنجر يقطر دماً ، وحتى عندما قرأته بعد ذلك كانت نسخة أعارني إياها مدرس فلسطيني متقاعد ، وقد ذهلت بما وجدت فيه. كان فيه خطة إسرائيل لاحتلال الجولان والضفة الغربية وسيناء ثم إرجاعها مقابل السلام والتطبيع ، وكان فيه خطة إسرائيل لتقسيم سورية ولبنان إلى دولة علوية تأخذ الساحل السوري وتضم حمص وحماة وطرابلس ، ودولة

مسيحية تأخذ ماتبقى من الساحل اللبناني ، ودولة شيعية ودولة سنية في الداخل ، ودولة درزية تمتد من جبل العرب في سورية حتى المناطق الدرزية في لبنان تكون بمثابة حاجز بشري وطبيعي بين اسرائيل وباقي سورية ، وكان فيه خطتهم لتقسيم العراق إلى دولة كردية وأخرى سنية وثالثة شيعية. ولكم أن تتخيلوا المنطقة لو نجحت إسرائيل في مخططها.

تقسيم العراق

لقد حاولت اسرائيل تقسيم لبنان أولاً، وما كانت الحرب الأهلية اللبنانية في السبعينات والثمانينات إلا من أجل ذلك.. كانت أمريكا مؤيدة لإسرائيل في مسعاها ، لكن فرنسا التي كان لبنان مستعمرة لها لم توافق على تقسيمه ، وأوعزت إلى حافظ أسد أن يدخل لبنان ويحول دون تقسيمه. وهذا لاقى هوىً عند حافظ أسد ذي النزعة القومية الوحدوية ، وكان دفاعه ضد تقسيم لبنان دفاعاً عن وحدة سوريا وتأجيلاً لأي مخطط لتقسيمها. ثم جاءت الفرصة المواتية لتنفيذ خطة تقسيم العراق والفوز بنفطه جائزة إضافية ، فقامت أمريكا بغزوه تعاونها بريطانيا وانضمت إليهما فرنسا التي عاندت في البداية ، وكان معها حافظ أسد معانداً ، حتى إذا تيقنت فرنسا أنها ستخرج من المولد بلا حمّص ما لم تشارك أمريكا في احتلال العراق ، أقالت فرنسا وزير دفاعها وانضمت إلى الحلفاء ومعها سورية التي ضمنت لهم وقوف إيران على الحياد. لقد مهد الحظر الجوي الذي فرضته أمريكا على جنوب العراق وشماله منذ عام 1991 وحتى غزوهم العراق عام 2003 مهد

لتقسيم العراق وكرس شعور العراقيين بالانقسام على أساس طائفي وقومي ، لكنه أبداً لم يَحْمِ العراقيين من بطش صدام الذي ارتكب المذابح في البصرة عندما انتفضت ، ولم يكن بحاجة إلى الطيران للقيام بذلك ، وهو يواجه شعباً أعزل أو شبه أعزل. لقد كانت الحياة في العراق أيام صدام قاسية من حيث فقد العراقيين للحرية السياسية ووقوعهم ضحايا نزوات دكتاتور سفاح مثل صدام ، لكن الأمور لم تتحسن كثيراً بعد احتلال أمريكا للعراق ، فالذين قتلوا بعد الاحتلال أضعاف أضعاف من قتلهم صدام ، وما تزال العراق تعيش حالة من الخوف والفقر وسوء الخدمات والفساد السياسي والإداري والفوضى على كافة الأصعدة ، بما يجعل كثيرين يترحمون على أيام صدام ويرونها خيراً مما يعاني منه العراق الآن. لقد كان الهدف المعلن للغزو الأمريكي للعراق هو تحرير الشعب العراقي من دكتاتور مستبد ونقل العراقيين إلى نعيم الحكم الديمقراطي ، وكان الهدف الحقيقي هو السيطرة على نفط العراق والخليج وتقسيم العراق إلى ثلاث دويلات ضعيفة لا تشكل أي تهديد لإسرائيل ، والواقع يرينا أن الأمريكان نجحوا في تحقيق أهدافهم غير المعلنة ولم يحقق الشعب العراقي الكثير من المكاسب ، ولم تتحقق أحلامه في حياة حرة كريمة راغدة حتى الآن ، رغم الأعداد التي لا تحصى من الضحايا ، والدمار ، والجراح الجسدية والنفسية التي أصابت العراقيين بسبب الغزو ، وبسبب الحصار الاقتصادي الذي سبقه ، وكان الادعاء أنهم فرضوه من أجل الشعب العراقي.

ما تزال إسرائيل ومن ورائها أمريكا تحلم بتقسيم سورية ولبنان. وبالنسبة لإسرائيل لا يبدو هنالك من هو خير من النظام السوري الحالي إلا أن تحتل أمريكا سورية وتقسمها وتضع فيها حكومات تابعة تنفذ سياساتهم وتحمي إسرائيل ، لذا فإن إسرائيل لا تشجع على الإطاحة بالنظام الحالي إلا من خلال التدخل العسكري الأمريكي المباشر الذي يضمن أمنها ومصالحها وتحقيق حلمها في تقسيم المنطقة إلى دويلات طائفية ضعيفة متناحرة. وهذا يعني أن أغلب الساسة الأمريكيين سيكونون متحمسين لمثل هذا التدخل حتى لو كلف أمريكا المال الكثير رغم ما تمر به من صعوبات اقتصادية ، هذا إن افترضنا أن أمريكا لن تجبر دول الخليج على دفع نفقات تدخلها في سورية بحجة أنه تدخل من أجل حماية الشعب السوري وتحريره. وهذا يفسر ضعف الدعم الأمريكي للثورة السورية وفتوره الذي يهدف إلى إعطاء النظام فرصة لقتل المزيد من السوريين ، لا حباً في النظام وحرصاً عليه ، بل ابتزازاً للشعب السوري بتركه فريسة بيد النظام ، مما جعل بعض المتظاهرين السوريين يرفعون لافتات تطالب بالحظر الجوي والتدخل العسكري. إنهم يريدوننا أن نتألم حتى نصرخ ونستغيث بهم ونرضى بشروطهم لنجدتنا ومساعدتنا. وأمريكا لا تتصرف بمفردها في منطقتنا إذ عندها دول تابعة لها لا تقدر على مخالفتها تحيط بسورية وتمارس نفس الضغط على الثورة السورية ، وذلك بالامتناع عن المساعدة مع التلويح بها كي يدفعنا اليأس إلى الالتجاء إليهم والقبول بشروطهم.

نحن لا نهمهم

الأمريكان لا يهمهم أن يقتل منا الآلاف أو عشرات الآلاف ظلماً، فمجزرة تدمر في صيف عام 1980 لم تكن غائبة عنهم، والسوريون يومها وصلتهم أخبار دخول عناصر من سرايا الدفاع إلى مهاجع السجناء الإسلاميين في سجن تدمر وإطلاقهم النار عليهم وقتلهم لأكثر من ألف سجين، دون معرفة أسمائهم، ودون ثبوت أية تهمة عليهم. وما كان ذلك إلا انتقاماً لقيام شاب إسلامي كان في الحرس الخاص بحافظ أسد بإلقاء قنبلة يدوية عليه لقتله، لكن لسوء حظ السوريين أو ربما لحسنه، نجا حافظ أسد، وأمر في اليوم التالي بالانتقام من أكثر من ألف إسلامي لا دخل لهم بمحاولة اغتياله. المهم لم تكن مذبحة كهذه علم بها السوريون فور وقوعها، لتخفى على أمريكا وغيرها من الدول الغربية أو الدول المحيطة بسورية، ولم يكن صمت الجميع عليها نتيجة عدم علمهم بها، بل تجاهلوها لأن دماء السوريين لا قيمة لها عندهم، ولأن النظام وقتها كان يحارب الاتجاه الإسلامي، بعد نجاح الإسلاميين في إيران في ثورتهم عام 1979، وخشية أمريكا من نجاح الإسلاميين في دول المنطقة في ثورات مماثلة.

عندما تخدم الجريمة مصالحهم فإنهم يغضون الطرف عنها حتى لو كان ضحاياها عشرات الآلاف من الأبرياء، وهذا بالضبط ما حصل في حماة في شباط 1982، عندما أعلن مجموعة من الشباب الإسلامي فيها ربما لا يبلغون مئتي شاب، أعلنوا تمرداً مسلحاً، وكانوا مختبئين في الأحياء

القديمة من مدينة حماة ، حيث البيوت متلاصقة والحارات ضيقة ويسهل على الشباب الدخول إلى بيت ثم القفز على الأسطح للوصول إلى أماكن بعيدة يصعب القبض عليهم فيها ، فكانت أوامر حافظ وبتنفيذ أخيه رفعت لها ، بمحو الأحياء القديمة من حماة وتدميرها حتى على رؤوس أهلها ، من أجل القضاء على ذلك التمرد الذي لم يكن مسلحاً بأكثر من البنادق والقنابل اليدوية ، ومن أجل إزالة أي مخبأ يمكن للمتمردين أن يختبئوا فيه ، فكانت مذبحة حماة التي يقال أن ضحاياها كانوا بالآلاف أو ربما عشرات الآلاف.

لم تقع مذبحة حماة في غفلة من أمريكا وحلفائها في المنطقة ، ولم تكن أرواح السوريين الأبرياء لها أية قيمة لديهم طالما كان إزهاقها فيه مصلحة لأمريكا وإسرائيل والأنظمة الحليفة لهما في المنطقة. واليوم لا يتباكى الأمريكان على شباب الثورة السورية الذين يقتلهم الأمن والشبيحة لمجرد أنهم هتفوا مطالبين بالحرية وإسقاط النظام ، لا يتباكون حزناً ورحمة على قتلانا إنما هي الفرصة واتتهم لتوظيف هذه الجرائم التي يرتكبها النظام واستغلالها والاستفادة منها لتحقيق أحلامهم الاستعمارية وأحلام إسرائيل. ولا تظنوا أن روسيا والصين استخدمتا الفيتو في مجلس الأمن حباً في النظام وكرهاً بالثوار ، إنما هي مصالحهم ودفاعهم عن أنفسهم حيث يشكل سقوط سورية في يد أمريكا تهديداً لهما ، لذا أحبطتا مشروع القرار الأوربي الأمريكي في مجلس الأمن لأنه كان يمهد قانونياً وسياسياً لتدخل عسكري أمريكي في سورية ، ولتحوُّل سورية إلى قاعدة أمريكية. في أيام الاتحاد

السوفيتي كانت الإيديولوجية الاشتراكية تدفع روسيا والصين لمساعدة الدول التي تنادي بالاشتراكية ولو كلفهما ذلك الخسائر المالية، لكن الإيديولوجيا الاشتراكية لم تعد تحرك أحداً هذه الأيام.

أقول ذلك لأبين لشباب ثورتنا أن موقف روسيا والصين ليس موقفاً مؤيداً للنظام في سورية ضد شعبه من أجل عيون النظام، إنما هي مصلحتهم الاستراتيجية التي ترى النظام رغم جرائمه خيراً من احتلالٍ أمريكي لسورية، ومن تحولها إلى قاعدة للأمريكان. أي إنه لو ضمن الروس والصينيون أن الإطاحة بالنظام ستأتي بنظام آخر لا يسمح لأمريكا بالسيطرة على سورية أو احتلالها فإن موقفهم من ثورتنا سيتغير. تشرشل قال قديماً: (ليس لبريطانيا أصدقاء دائمون إنما لها مصلحة دائمة)، وهذا ينطبق على روسيا والصين وحتى على إيران، وعلى كل دول الأرض، إلا التي تحكمها أنظمة عميلة تقدم مصلحتها كأنظمة على مصلحة أممها، كما كان حال نظام مبارك على سبيل المثال. أنا لست منزعجاً من الفيتو الروسي والصيني رغم أنه يصب في مصلحة النظام، فرب ضارة نافعة كما تقول العرب، ولعل في هذا الفيتو إبعاداً لشبح الاحتلال الأمريكي عن بلادنا ريثما نتروى ونفكر بما علينا فعله للخروج منتصرين وبأقل الخسائر.

الاحتمالات

ويبقى السؤال هل من مخرج للثورة السورية من حالة المراوحة في مكانها التي تبدو عليها الآن دون تدخل عسكري أمريكي؟ وهل نحن مضطرون للاستعانة بالتدخل الأجنبي ثم تحميل النظام المسؤولية عن اضطرارنا هذا ووضع اللوم عليه؟ وهل ستختلف العواقب إن كنا نحن المسؤولين عن التدخل أو كان النظام هو من اضطرنا إليه؟

دعونا نتخيل الاحتمالات الممكنة ونتخيل عواقبها كي نختار أقلها ضرراً وأكثرها ربحاً لنا.

الاحتمال الأول هو أن تفرض أمريكا حظراً جوياً مشكوكاً بفائدته ، وأن تفرض تركيا منطقة عازلة تكون ملاذاً للعسكريين المنشقين والمتطوعين لقتال النظام. ثم تقوم أمريكا وحلفاؤها العرب بتسليح هؤلاء وعندما يبلغون من القوة حداً معقولاً يشنون حرباً برية تغطيها حرب جوية أمريكية وأطلسية ، تماماً كما حدث في ليبيا ، والأمل أنه على المدى البعيد ستتم الإطاحة بالنظام.

لكن السؤال ما الثمن الذي ستدفعه سورية من أرواح أبنائها ومن دمار مقدراتها حتى نحقق ذلك الانتصار؟ وهل يومها ستكون الدولة السورية الجديدة دولة مستقلة استقلالاً حقيقياً بحيث تحمي مصالح السوريين ولا يكون دورها غير تنفيذ السياسة الأمريكية في المنطقة. لا تنخدعوا بالوضع الليبي فإن المهم في ليبيا هو نفطها وأسواقها الواعدة ومشاريع بناء البنية التحتية التي تنتظر الشركات الأمريكية والأوربية استلامها للاستفادة من الثروة الليبية في إقالة عثار اقتصادهم المأزوم. ما زلت أذكر اضطرار بلد عربي في التسعينات لإعطاء مشروع اتصالات كبير لشركة أمريكية تطلب أربعة مليارات دولار بينما كانت شركة يابانية مستعدة لتنفيذه بمليار وستمئة مليون دولار فقط. يومها تدخل بيل كلنتون شخصياً لإقناع هذه الدولة بإعطاء المشروع للأمريكان رغم الخسارة الرهيبة لهذه الدولة ، وهي دولة مستقلة. ماذا سيكون الحال بعد أن يسقط النظام لنسقط نحن في قبضة الأمريكان؟ والله لن يرحمونا ولن يأتوا إلا من أجل مصالحهم وأطماعهم.

الاحتمال الثاني هو تحول الثورة إلى ثورة مسلحة تحركها الروح الدينية الاستشهادية ، وبالتالي تتحول تلقائياً إلى ثورة طائفية سنية ضد علوية ، وعندها ندخل في حرب أهلية ستكون مدمرة أكثر من الحرب الأهلية اللبنانية التي دامت خمسة عشر سنة وخرج الجميع منها خاسرين ، وعندها سيتمكن النظام من تجييش جميع العلويين ومعهم الدروز والمسيحيين ، لأنهم بالتأكيد لا يريدون أن يحكم سورية حكومة دينية على النمط الإيراني

لا تعاملهم كمواطنين لهم جميع حقوق المواطنة بغض النظر عن أديانهم ومذاهبهم. وعندها ستطول الحرب وتكثر الضحايا وسينتصر النظام في النهاية ، وسيكون ذلك على حساب وحدة الشعب السوري الذي سيعاني الكثيرون فيه من الأحقاد والرغبة في الثأر من بعضهم بعضاً ، وسيطول بقاء النظام إلى أمد لا يعلمه إلا الله.

الاحتمال الثالث أن تستمر الثورة بنفس الزخم أو أكثر منه ، ويستمر النظام في ارتكاب جرائمه ، مما يدفع الكثيرين من العسكريين للانشقاق بحيث يصبح الجيش السوري مهدداً بالتفكك الكامل ، ويرافق ذلك صعوبات اقتصادية حتمية تؤثر على التجار والضباط الكبار الذين يدعمون النظام ، بحيث يصبح النظام عبئاً عليهم ، لا مصدر منفعة لهم كما كان من قبل ، وهم حتى لو صبروا فإن لصبرهم حدود ، وسيكون لا بد من انقلاب عسكري مدعوم من فرنسا بالذات ومن وراءها من الدول الغربية للإطاحة بالنظام ومجيء نظام جديد مع بقاء هؤلاء الضباط في مناصبهم. ولكن لماذا فرنسا بالذات؟ لأن فرنسا غير لا تريد إحتلال سوريا عسكرياً ، ولا تحب أن تسيطر أمريكا على سورية وتفقد فرنسا نفوذها ومصالحها فيها ، لذا فرنسا التي تؤيد في العلن الموقف الأمريكي الداعي إلى التدخل العسكري في سورية ، لا تتمناه في سرها ، وتتمنى لو تنفرد هي بحل المشكلة السورية ، لتبقى صاحبة النفوذ الأكبر في بلد استراتيجي مثل سورية. طبعاً لو تغلبت أمريكا ففرنسا ستكون شريكة لها ، لأن ذلك خير لها من خروجها بلا مكاسب على الإطلاق. هم واقعيون ويتمنون أن تبقى

سورية لهم ، لكن لن يترددوا في الانضمام إلى أمريكا في أي تدخل عسكري في سورية حتى يضمنوا حداً أدنى من مصالحهم في سورية ولبنان وباقي المنطقة. لكن لو أصر الثوار السوريون على سلمية الثورة ، وعلى الرفض التام لأي تدخل عسكري أجنبي ، وبقي انشقاق العسكريين سلمياً ، أي لم يتحولوا إلى مقاومة عسكرية للنظام تُدْخل البلد في ما يشبه الحرب الأهلية ، إلا أن يلتزموا استراتيجية الدفاع عن باقي السوريين المطالبين بالحرية ولم يزيدوا على الدفاع شيئاً ، فعندها سيزداد فتور أمريكا في دعم الثورة من أجل تركيعها ، لكن فرنسا ستبقى مؤيدة لأي انقلاب عسكري يقوم به ضباط متعاونون معها ويضمنون لها بقاءها الدولة صاحبة النفوذ وذات الأفضلية عند السوريين.

لو صبرنا على تقديم الشهداء ولم نتورط في أي عنف ، فإن المزيد من الشباب سينشقون عن الجيش ، ولا بأس أن ينشقوا بأسلحتهم الفردية ، ولا بأس أن يقاوموا محاولات اعتقالهم وتصفيتهم ولو أدى ذلك لاستشهادهم دفاعاً عن أنفسهم وعن السوريين المطالبين بالتغيير ، فالذي يموت دون نفسه شهيد ، والذي يموت دون ماله شهيد والذي يموت دون أهله شهيد.. فالنظام مصر على قتل أي عسكري ينشق لإرهاب باقي العسكريين ممن تراودهم أنفسهم بالانشقاق ، وهذا قتل ظالم لا يستحقونه ، ومهما تمسكنا بسلمية الثورة فإننا لا يمكن أن ندعوهم للاستسلام للنظام ليقتلهم بدم بارد ثم يسير في جنائزهم على أنهم شهداء قتلتهم العصابات المسلحة المزعومة. لكن قيامهم بالمبادرة والمهاجمة سيفقد الثورة طابعها السلمي ، مما سيطيل

عمر النظام ويزيد فرصه في الانتصار والقضاء على الثورة. على المنشقين الإعلان عن أن انشقاقهم كان لأنهم يرفضون قتل إخوانهم السوريين دون حق ، لكنهم لن يمارسوا أي حرب مسلحة ضد أي فئة في بلادهم ، حتى لو كانت الشبيحة سيئة الصيت. يجب أن لا يهاجم السوري سورياً آخر إلا دفاعاً عن نفسه وأهله وماله وباقي السوريين المطالبين بالحرية ، وحتى لو اكتفى العسكريون الأحرار بالانشقاق بأسلحتهم واعتزلوا النظام وكفوه خيرهم وشرهم ، وإذا أصر النظام على مهاجمتهم في مخابئهم لقتلهم ، دافعوا عن أنفسهم وماتوا دفاعاً عن النفس ، فلا بأس في ذلك ، طالما أنهم لم يعتدوا على أحد ، ولم يبادروا في الهجوم على أحد.

قد يبدو هذا الكلام مثالياً أو متخاذلاً لبعض المتحمسين الذين تدفعهم رغبتهم في الانتقام من النظام إلى الدعوة إلى التمرد المسلح على النظام. لكن صدقوني إن الضحايا إن بقيت ثورتنا سلمية ستكون أقل كثيراً مما لو تحولت إلى مسلحة ، وسيكون انتصارها مؤكداً حتى لو كان على يد ضباط علويين وغير علويين هم الآن جزء من النظام.

المصلحة تقتضي

قد يقول البعض إن من الضباط الذين يمكن أن يساهموا في الانقلاب المتوقع ضباط تلوثت أيديهم بدماء السوريين المسالمين خلال

مرحلة القمع للثورة التي نمر بها حالياً ، فكيف سنرضى أن يبقوا في مناصبهم بعد سقوط النظام وأن لا يحاكموا على جرائمهم ؟ وأن لا يلاحقوا على كسبهم غير المشروع قبل أن ينقلبوا على النظام ؟

نعم سنرضى ، لأن المصلحة تقتضي ذلك.

لكن حق أهل الشهداء في التعويض من مال الدولة تعويضاً مجزياً لا يسقط ، بل تدفع دية كل شهيد ويعوض كل مصاب التعويض المالي الكبير الذي يضمن للمصاب ولأولاده ولأولاد الشهيد وأهله حياة كريمة ، إذ دية المقتول كانت زمن الرسول صلى الله عليه وسلم مئة ناقة ، أي ثروة كبيرة جداً في حسابات ذلك الزمان ، ولا بد أن تكون دية كل شهيد من شهداء الثورة ما يعتبر ثروة كبيرة في زماننا.

أما الذين استشهدوا فلن يعوضهم شيء إلا ثواب الله فهم أحياء عند ربهم يرزقون ، ولن ينفعهم القصاص ، إنما هو من أجل ذويهم ومنعاً لعمليات الثأر التي يقتل فيها البريء بجريرة قريبه ، وسيسعدهم كثيراً أن لا تذهب دماؤهم هدراً بل تكون الثمن لتحرر الأمة والنهوض بأحوالها.

نعم المصلحة تقتضي أن لا يلاحق من ينقلب على النظام ويساهم في إسقاطه ، لأن الإصرار على ملاحقته يجعله يستميت في الدفاع عن النظام ، إذ يبقى لديه أمل أن ينتصر النظام ويكون بذلك نجاة له من الانتقام والملاحقة. لا تستغربوا هذا المنطق الذي يغلب المصلحة على العاطفة ، فهو منطق قرآني نجده في مسألتين. الأولى حالة بغي فئة على فئة في مجتمع المسلمين بدافع سياسي ، فقد أذن الله بقتال الفئة الباغية أي المتعدية حتى تفيء إلى أمر الله ، أي حتى ترجع إلى الحق والعدل ، فإن رجعت أو تم التغلب عليها ، فإنها لا تعامل معاملة العدو المهزوم ، فلا يقتل منهم الأسير ، ولا يُجْهَز على الجريح ، ولا يلاحق الهارب ، ولا تصادر أموالهم ولا تُسبى نساؤهم ، إنما هم بعد هزيمتهم مواطنون كغيرهم ، لهم الأمان على أموالهم وأعراضهم وأنفسهم ، ولا يلاحقون فيما سببوه من قتل أو جرح أو إتلاف مال. اقرؤوا ما جاء في سورة الحجرات حيث يقول تعالى: {وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (9) إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (10)}، واسألوا العلماء إن شئتم عن هذه الأحكام التي لا يعلمها كثير منا هذه الأيام.

ثم هنالك المجرمون الذين يمارسون القتل والسطو المسلح ، فإن حكم الله فيهم إن وقعوا في قبضة الحكومة حكم قاس شديد ، وهو أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف ، أو يُنْفَوْا من الأرض ،

وقد فسر البعض النفي بالسجن. لكن إن تابوا قبل أن يتم القبض عليهم سقطت عنهم العقوبة والملاحقة القضائية ، قال تعالى في سورة المائدة : {مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ (32) إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (33) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (34)}.

المصلحة قبل العاطفة

ويبقى السؤال: لِمَ أسقط الله العقوبة عنهم بمجرد أن تابوا وتوقفوا عن جرائمهم ؟

إن في ذلك حكمة عظيمة ، فالحكومات تعرف مدى صعوبة محاربة العصابات المسلحة وتعذر القضاء عليها ، لذا ترك الله لهم باب التوبة والعودة إلى المواطنة الصالحة مفتوحاً ، وإلا فإنهم سيجدون أنفسهم مضطرين للاستمرار في نشاطهم الإجرامي حتى يُقتلوا أو يُؤسَروا طالما أنهم سيلاحقون على جرائمهم التي تورطوا فيها في جميع الأحوال. هذا العفو الدنيوي لا يسقط عنهم الإثم والعقوبة في الآخرة ، ولا يضيع حق من سُلب

ماله أو عرضه أو أصيب بجرح أو قتل فرد من أسرته ، بالتعويض المجزي والسخي في الدنيا وبعدالة رب العالمين في الآخرة ، إنما يتم التعويض من مال الدولة ، ويترك المسلحون الذين تابوا قبل أن يتم القبض عليهم دون ملاحقة حتى يتشجعوا على العودة إلى الحياة الشريفة ولا يتحولوا إلى أسرى لماضيهم ولجرائمهم التي ارتكبوها.

إن هذا العفو عن الذين ارتكبوا الجرائم بحق الأمة ثم قرروا التغيير من قبل أن يهزموا ويتم القبض عليهم ليس من أجلهم ، بل هو من أجل المجتمع الذي يفقد الشعور بالأمان إن استمروا في جرائمهم ويصعب عليه هزيمتهم في أغلب الحالات إلا بعد ضحايا كثيرين.

رب العالمين يحرص على المصلحة العامة ويعطيها الأولوية على العواطف والرغبة في الثأر والانتقام. هذا بخصوص المجرمين فكيف بخصوص الذين يرتكبون جرائمهم بدافع سياسي ونحن لم ننتصر عليهم ونأسرهم إنما هم انقلبوا على النظام وأطاحوا به ليتحقق للثورة بعض الذي تكافح من أجله.

قد يقول البعض إن الثورة في غنىً عن هؤلاء وستستمر من دونهم ولا بد أن يسقط النظام في النهاية وتتم محاسبة هؤلاء على جرائمهم.

أولاً الواقع يقول إن نظاماً من أناس لا حياء عندهم ولا كرامة لن يتخلى عن السلطة ويعرض نفسه للملاحقة لمجرد أن الملايين خرجت إلى الشوارع تهتف مطالبة بسقوطه. إن رجلاً عنده كرامة مثل ديغول استقال واعتزل السياسة عندما طرح للاستفتاء مشروعاً فرفضه أكثر من نصف الشعب الفرنسي فاستقال ديغول ، ولم يكن أحد يطالبه بالاستقالة ، إنما كانوا يعارضون مشروعه ، ولو بقي في منصبه لما ذمه أحد. لكن الأناس الذين نحن مبتلون بهم لا حياء عندهم ولا كرامة ، ولن يأتي اليوم الذي يستجيبون فيه لهتاف الجاهير مهما علا ومهما زاد عدد المتظاهرين. نعم يجب أن لا نيأس وأن لا تتثبط هممنا ، لكن علينا التفكير بواقعية ، فالله لن يفرج عنا بمعجزة ولا بملائكة تهبط من السماء لتطيح بالنظام استجابة لرغباتنا ودعائنا ، إنما فرجه يكون من خلال أسباب وعوامل يبدو لي أن انقلاب بعض الضباط العلويين وغير العلويين على النظام الذي هم جزء منه الآن هي الوسيلة التي يمكن أن يفرج الله عنا بها دون أن نرهن مصير بلادنا بيد الأمريكان وغيرهم. لذا علينا أن نسعى في هذا الاتجاه ، فهو اتجاه واقعي ومحتمل جداً وتستطيع الاحتجاجات السلمية للمدنيين والانشقاقات السلمية للعسكريين والدعم الدولي السياسي والإعلامي أن تقود إليه ، فالهدف هو أن تنصلح أحوالنا ونتخلص من حكم المخابرات والأجهزة الأمنية المتسلطة على رقاب الناس وأموالهم ، حتى لو لم يمكن القصاص والثأر للشهداء والمظلومين من قتلتهم وجلاديهم ، المهم هو أن يتوقف القتل والظلم قبل أن يصيب الكثيرين ممن لم يصل إليهم حتى الآن ، أي

المهم هو إنقاذ ما تبقى ، ولنترك العدالة للسماء ، ولنتغلب على عواطفنا ، ولنكن قادرين على العفو وتقبل الذين أساؤوا إن قرروا الانضمام إلى ثورتنا وتخليصنا من هذا النظام المجرم.

ثورة لكل السوريين

لن تنجح ثورتنا إلا إذا كانت ثورة جميع السوريين بما فيهم العلويون. يجب أن لا يقف استعمال النظام لآلاف من العلويين الذين غسل عقولهم وأقنعهم أن مؤامرة تجري ضده لأنه قومي وممانع ، واستغل فقرهم واستخدمهم في قمع المتظاهرين ، يجب أن لا يقف حائلاً بيننا وبين إخوتنا العلويين. فهذا هو ما يريده النظام لتبقى الطائفة العلوية أسيرة له ومرتبطة به ، والقوة العسكرية والأمنية في سورية مركزة في أيدي ضباط منها ، ولا أمل بتغيير من دونهم ، إلا عن طريق الحرب الأهلية والغزو الخارجي. يجب أن تحرص الثورة على اجتذاب العلويين وباقي الطوائف والقوميات السورية وأن نتناسى الماضي من أجل مستقبل أفضل نشارك كلنا في بنائه العلوي منا وغير العلوي.

صدقوني ليس العلويون أقل فقراً من باقي السوريين ، إنما يلهيهم النظام بالشعور بالتسلط على الناس وخوف الناس منهم ليتخذهم جنوداً له ، ليستمر في نهب خيرات البلد هو ومن معه من المنتفعين ، ولتبقى

الطائفة فقيرة وقليلة الثقافة بحيث يكون التطوع في الجيش والأمن مصدر الرزق الرئيسي لشبابها.

النظام لا يحترم العلويين ولا غيرهم ولا يحرص حرصاً حقيقياً لا على العلويين ولا على غيرهم ، إنما هو نظام من أناس فاسدين يجمعون المال من حلال ومن حرام ولا يفكرون بأكثر من استمرارهم في السلطة ليدوم تمتعهم بالامتيازات التي أعطوها لأنفسهم ، وما الطائفة العلوية إلا مطية لهم مسخرة لخدمتهم وحمايتهم ، وهي بحاجة مثل باقي السوريين لتتحرر منه ولتشارك في بناء سورية بحيث تكون للجميع وتتكافيء فيها الفرص ويسود العدل ويتقدم الأصلح. العلويون بشر مثلنا ، عندهم ضمائر مثلنا ، ولهم آمال ومخاوف مثلنا ، وهم شركاؤنا في هذا الوطن ، ولا يمكننا المسير من دونهم ، وبخاصة بعد أن تركزت القوة العسكرية والأمنية بأيديهم.

ثم علينا كسب الطوائف الأخرى للثورة من خلال تطمينهم أن ثورتنا لا تسعى إلى حكم ديني يتحكم فيه علماء الدين بالناس ، إنما نريد حكماً مدنياً لا يعادي الأديان يستطيع في ظله العسكري أن يؤدي صلاته علانية دون أن يقع تحت المراقبة والتحقيق ، حكم يشجع على مكارم الأخلاق ويحترم شرائع كل طائفة أو دين في الأحوال الشخصية ، حكم يطلق الحريات ويسمح للجميع بالمشاركة في صياغة سياسة البلد بالوسائل الديمقراطية ، ولا يسمح باضطهاد أي فئة من السوريين بسبب دينها أو

قوميتها أو غير ذلك.حكم يتساوى أمامه جميع السوريين فيكون لهم الحقوق ذاتها وعليهم الواجبات نفسها لمجرد أنهم سوريون بغض النظر عن مناطقهم أو مذاهبهم أو أديانهم أو لغاتهم أو قومياتهم. السوريون عائلة كبيرة واحدة تتعاون من أجل حياة كريمة لهم ولأجيالهم القادمة.

حتى تنجح ثورتنا لا بد لها من الحرص على لاءاتها الثلاث: لا للعنف بجميع أشكاله ، ولا للطائفية والحرب الأهلية ، ولا للتدخل العسكري الأجنبي ، فإن بقاء النظام على علاته أرحم للسوريين من أي من هذه الخيارات الثلاث ، وكما يقول فقهاء الإسلام: الشر خيار ، أي العاقل يختار أهون الشرين ولا يزيل المنكر بمنكر أكبر منه. وإن الاستمرار في ثورة سلمية تضم جميع السوريين وتتقبل من الدول الأخرى العون الذي لا يمس استقلال البلاد ، وترفع على أية أحقاد أو نعرات ، هو كفيل إن شاء الله بسقوط هذا النظام ومجيء نظام أحسن منه وأرحم ، لكن علينا أن لا نستعجل ولا نتثبط إن تأخر الفرج فإنه قادم وحتمي إن تواصلت ثورتنا ولم تفتر عزيمتنا.

المقال الثالث

الطائفية والثورة في سورية

(سبق نشره بالاسم المستعار: الدكتور محمد ناصح عبد الله)

تمت كتابته في 2012/01/19 وتم تنقيحه وإعادة نشره في 2013/06/01

التدخل العسكري

طالت المدة كما توقعت ولم يسقط النظام في سورية ، ويوماً بعد يوم يزداد قلقي على بلدي الحبيب وأمتي الغالية ، ويكبر خوفي من المستقبل. يوماً بعد يوم تتصعد في سورية لهجة طائفية مرعبة تنذر بما لا يسر ولا يرضي.

كثيرون يعتقدون أنه لا أمل للسوريين بالتغيير إلاّ بمعونة دولية أمريكية بالدرجة الأولى وهم في نفس الوقت يرون أن أمريكا ليست راغبة في التدخل العسكري في سورية لإسقاط النظام ، فقد أصبح من الواضح للجميع أن النظام السوري رغم ممانعته الشكلية للمخططات الإسرائيلية والأمريكية ورغم تعاونه مع إيران تعاوناً مزعجاً للدول الغربية فإنه يبقى في

نظرهم أفضل من مستقبل مجهول وغير مضمون بالنسبة لهم وبالتالي هم لا يمانعون في بقائه لكن مع إجراء بعض الإصلاحات التي تهدِّيء خواطر السوريين وتعيد الاستقرار إلى المنطقة. لكني ما زلت لا أطمئن لنوايا أمريكا وإسرائيل نحو سورية ، فهم لديهم مخطط استراتيجي يعتقدون أنه من خلاله يمكن أن تنعم إسرائيل بالأمان والرفاهية والسيطرة على المنطقة كلها لأجيال عديدة قادمة.

علينا الحذر, وأن لا نظن أنه عدو عدونا هو صديقنا في جميع الأحوال ، فقد يكون عدو عدونا ألد أعدائنا ، وقد يتعاون معنا ضد العدو المشترك لكنه يبقى عدونا يخطط للإيقاع بنا ويتحين الفرصة للإنقضاض علينا ، لذا حتى لو كانت أمريكا معادية للنظام السوري فإنها أبداً لن تكون مخلصة للثورة والثوار إلا بمقدار ما يحقق ذلك لها مصالحها ، وأمن إسرائيل على رأس تلك المصالح.

يريدون تفتيتنا

لذا إن تعذرت المحافظة على النظام السوري ، أو إن حانت الفرصة المواتية ، فإن أمريكا وإسرائيل سترجعان إلى خطتهما القديمة وهي تفتيت سورية ولبنان إلى خمس دول طائفية ، وربما إلحاق أكراد سورية بكردستان العراق. الخطة تقضي بإقامة دولة علوية تضم الساحل السوري وطرابلس

لبنان وحمص وحماة ، وإقامة دولة مارونية في وسط لبنان ، ودولة شيعية في جنوب لبنان ودولة درزية تمتد من السويداء إلى المناطق الدرزية في لبنان ويكون الجولان إن تحرر جزءاً منها ، وتبقى دمشق وحلب لتتكون منهما دولة أو دولتان سنيتان.

هذا التفتيت سيجعل إسرائيل دولة عظمى بالنسبة لما يحيط بها من دويلات يراد لها أن تكون دويلات متناحرة تنشغل بالصراعات والحروب فيما بينها ، وقد تمارس إسرائيل يومها دور الحَكَم والمُصْلِح بعد أن كانت هي العدو الغاصب. لا تحسبوا أنني واهم ، فقد أنجزوا خطتهم في تقسيم العراق إلى ثلاث دويلات كردية وشيعية وسنية.. ولا يخدعنا بقاؤه متحداً ظاهرياً ، فالكراهية ترسخت بين طوائفه ولم يبق غير إعلان الدويلات الثلاث ، والعراق لن يكون بعد اليوم دولة قوية خطيرة على إسرائيل كما كان من قبل.

قد لا يبدو هنالك مؤشرات واضحة على سعي أمريكا وإسرائيل إلى تقسيم سورية ولبنان قريباً ، لكن يجب أن لا يخدعنا ذلك فهم ينضجون طعامهم على نار هادئة كما يظنون. العراق لم يبدأ تقسيمه مع الغزو الأمريكي عام 2003 ، إنما بدأ منذ فرضوا مناطق الحظر الجوي فوق شماله وجنوبه عام 1991 ، لتترسخ فكرة الدولة لدى كل من أجزائه الثلاثة.

تقطيع أوصال بلا تخدير

وقد يقول قائل وما الضرر من تشكيل أقاليم متعددة تتحد في دولة فيدرالية ، مثل الولايات المتحدة الأمريكية التي هي عبارة عن مجموعة دول متحدة فيدرالياً؟ نعم ، لو كان التقسيم سيتم بالتراضي والتفاهم ودون ضحايا وعذابات وستبقى المودة بين الطوائف قائمة لقلنا لا ضير من ذلك كبيراً ، وبخاصة أن الدولة المتحدة إندماجياً لم تحقق لنا شيئاً أمام إسرائيل. المشكلة هي في حرصهم على ملء نفوس طوائف السوريين بالحقد والعداء تجاه بعضهم بعضاً ليكون التقسيم حقيقياً ، لا مجرد تقسيم إداري قد يفيد أكثر مما يضر.

حتى يتم التقسيم في العراق أفسحوا المجال للموالين لإيران من الشيعة وللزرقاوي وغيره من التكفيريين كي يقتلوا كل المودة والإخاء الذين كانا سائدين ما بين السنة والشيعة في العراق. يقال إنه كان في العراق قبل الغزو مليونان من الأسر مكونة من تزاوج سني شيعي, وهل مع التزواج يكون هنالك طائفية ؟ لقد أعطى الأمريكان إيران الفرصة لتعبث بالعراق كما تشاء لا عن ضعف منهم أو غباء ، إنما هم جاؤوا لتقسيم العراق وتقسيم الشعب العراقي ، وهذا الهدف مشترك مع إيران التي عانت من العراق ما عانت في حرب طويلة أرهقتها وبددت طاقاتها ، ففي تقسيم العراق أمان لإيران ، وفي إنشاء دولة شيعية في العراق ضمان لاستمرار النفوذ الإيراني في العراق إلى آجال لا يعلمها إلا الله.

إذن التقت العدوتان اللدودتان على أهداف مشتركة في العراق، فكانت الفتنة الطائفية بين السنة والشيعة، وكان القتل على الهوية من الطرفين، ومارسوا في حق بعضهما بعضاً أشد مما مارسه الصرب مع المسلمين في البوسنة. ومن لا يصدق ما عليه إلا أن يسأل بعض اللاجئين العراقيين في سورية ليسمع منهم حكايات لا تخطر بالبال من الفظائع والعنف الطائفي الذي وقع ومازال يقع في العراق. لم يكن العراقيون طائفيين، ولم يكن حكم صدام حكماً سنياً يهمش الشيعة، بل كان حكماً قومياً همش الأكراد مع أنهم عراقيون من آلاف السنين لمجرد أنهم ليسوا عرباً، وكان حكماً اعتمد على عشائر معينة يضمن ولاءها وهمش الباقين سنة كانوا أو شيعة، وقد كان الشيعة في حكومات صدام وفي جيشه يشكلون أكثر من النصف. نعم لم يكن العراقيون طائفيين لكن قلة آثمة منهم استطاعت أن تضرب الأسافين العميقة بين السنة والشيعة هناك، وأن تخلق في النفوس عداوات وأحقاداً لا يعلم مداها إلا الله، ولا يعرف العراقيون كيف ومتى سيتجاوزونها ليعودوا شعباً واحداً متآلفاً.

من أجل تقسيم سورية ولبنان ستدعم أمريكا بعض الحاقدين والموتورين من أبناء السنة ومن العلويين وغيرهم من الطوائف السورية لِتُدْخِلَ السوريين في حرب أهلية تطول السنين العديدة وتقضي على الأرواح الكثيرة بحيث يصبح التقسيم أمنية الجميع ووسيلة الخلاص الممكنة.

هذه ليست أوهام.. نحن نواجه أعداءً لا يرحمون ، ومتى كان الصهاينة رحماء؟ إن الأمر بالنسبة لهم مسألة وجود ، وهم لا يتورعون عن أي شيء يضمن لهم البقاء في أرضنا والتمتع بخيرات بلادنا. أمريكا يتنافس رؤساؤها في إرضاء اللوبي الموالي لإسرائيل هناك ولا مانع عند الكثيرين من سياسييها أن يكسبوا تأييد اليهود وأموالهم وأصواتهم على حسابنا نحن.

خطر الطائفية حقيقي

كثيرون من السوريين من أبناء الطوائف المختلفة متفائلون ويؤكدون أن النظام لن ينجح في خلق فتنة طائفية يكون فيها نجاته من السقوط ، وأنا معهم أدعو الله أن يصدق ظنهم وتتحقق أمانيهم ، لكن ما الضمان؟.. لو نجح النظام في تحويل ثورتنا إلى فتنة طائفية سنية علوية فسيطول عمره وقد ينتصر على الثورة ويقضي عليها. إذ لو نشبت الفتنة الطائفية على أساس ديني هل سينضم أبناء باقي الطوائف السورية الأخرى إلى السنة أم إلى العلويين؟ لا أعتقد أن الجواب صعب علينا معرفته.

عندما تثار القضية دينية طائفية وتكفيرية وتخوينية ، هل سيطمئن المسيحيون على مستقبلهم مع السنة الذين قد يسعون إلى دولة دينية على النمط الإيراني أو الطالباني؟ أم سيكون أمانهم مع النظام والطائفة العلوية التي لن تنشيء دولة إسلامية ولن تكون قادرة على اضطهادهم أو تهميشهم ، لا عن طيب أخلاق بل لأنها بحاجة إليهم للوقوف في وجه السنة؟

هل سيختلف موقف الدروز والإسماعيليين وغيرهم من الأقليات الدينية والكثير من السوريين الغير مؤمنين بالأديان الذين يعتبرون أنفسهم علمانيين أو يساريين ، هل سيختلف عن موقف المسيحيين؟ لو كنت واحداً منهم لاخترت الوقوف مع نظام ضعيف مستعد أن يقدم لي الامتيازات والضمانات لأقف معه في معركة البقاء بينه وبين السنة.. هل سأكون مخطئاً حينها أم سأكون ذكياً ومدركاً لمصلحتي؟

لو تحولت الثورة إلى ثورة طائفية فسينقسم السوريون إلى جبهتين أولاهما السنة في مقابل جبهة متحدة من العلويين والدروز والمسيحيين والاسماعيليين واللادينيين وغيرهم. عندها سيكون عند النظام شبيحة من الطوائف كلها ولن يكون لديه أزمة رجال كما هو الحال الآن ، وفي أحسن الأحوال سيقف كل أولئك على الحياد ويبقى السنة يصارعون النظام وحدهم مما يقلل فرصهم في الإطاحة به ومما يجعل الثمن من أرواح

السوريين وأموالهم باهظاً جداً.. فالنظام لديه من الأسلحة الثقيلة والخفيفة ما يكفي وقتها لسحق الانتفاضة السنية ، ولن يأتي أحد لإنقاذنا بل سيأتون لتقسيمنا كما هو حلمهم الذي عندها سيصبح حلمنا نحن أيضاً.

إن أخطر غلطة وأثمن هدية يمكن للثوار أن يقدموها للنظام هي تحويل الثورة إلى نزاع طائفي ، فالنظام منذ الأيام الأولى للثورة حاول جاهداً أن يثيرها حرباً طائفية بين السنة والعلويين. لأن الحرب الطائفية ستجعل الطائفة العلوية لا بديل لديها عن الاستماتة في الدفاع عن النظام حيث وقتها يكون الدفاع عن النظام دفاعاً عن الطائفة ذاتها ، بينما الآن ما يزال من الممكن أن تنقلب الطائفة كلها أو بعضها على النظام وتتبرأ منه ، هذا إن لم تشارك في الثورة مشاركة فعلية. النظام يخشى أن تتخلى الطائفة العلوية عنه ويبذل كل وسعه لربط مصيرها بمصيره ، وإن أي توجيه للأمور في سورية باتجاه طائفي يخدم النظام لأبعد الحدود.

قد يقول قائل دعها تنفجر طائفية ، أليست النهاية ستكون لصالح السنة بحكم كثرتهم العددية والدعم المتوقع لهم من الخارج لأنهم سيقفون في وجه النفوذ الإيراني في المنطقة ؟

إن كنا نريد تفتيت البلاد كما تحلم إسرائيل فهذا هو الطريق إلى ذلك. أما النظام فقد تعوَّد على الرئاسة والتَّسَيُّد على الناس ، وهو إن عجز

عن الاستمرار في السيطرة على جميع السوريين فسيكون البديل المفضل عنده البقاء في الحكم ولو على دويلة علوية تكون أقل من ربع سورية الحالية. حب الرئاسة شهوة بشرية ومن لم يستطع أن يشبعها بالترؤس على عشرين مليون فسيرضى بإشباعها بالترؤس عى مليونين. عندها سيصبح النظام مجموعة من الأبطال الذين أنقذوا طائفتهم من الإبادة على أيدي السنة وأقاموا لها دولة مستقلة. إن كل من يتفوه بعبارة أو كلمة تثير الطائفية في سورية إنما هو يعين النظام ويعين إسرائيل وأمريكا على تفتيت سورية ولبنان دون أن يقصد ذلك ودون أن يشعر.

النظام يستغل الطائفة

المستفيدون من الطائفة العلوية قلة ، أما البقية فيستغل النظام فقرهم وجهلهم ليتخذهم جنوداً له يموت منهم من يموت في سبيل حمايته. الجميع الآن يعرف أن الشبيحة يقاتلون مع النظام مقابل أجر يومي ألف وخمسمئة ليرة باليوم وألفان يوم الجمعة. لو كانت الطائفة غنية مرفهة لما استجاب للنظام كل هذا العدد من الرجال الذين يعرضون أنفسهم للخطر من أجل المال. العلويون بشر مثلنا وليسوا طائفة مهووسة بعقيدة دينية تريد أن تفرضها على الآخرين وتستبسل في سبيل ذلك. إنها الدوافع

المعيشية هي التي تحرك الغالبية العظمى منهم، ولو اطمئنوا على مستقبلهم المعيشي من دون النظام لقل حماسهم للدفاع عنه كثيراً.

العلويون طائفة استمدت اسمها من عقيدة دينية خاصة لكنها في هذا العصر آخر ما تفكر فيه هو العقيدة الدينية ، وعلينا أن نميز بين العلويين من حيث هم أبناء منطقة واحدة وعشائر معينة ومن حيث هم طائفة دينية ذات معتقدات معينة. وإن أي تحول في الثورة إلى الطائفية لا بد أن يلجأ إلى التحريض على أساس ديني ليضمن إقدام الشباب من الطرفين على الموت ، ولا بد من أن يقوم على تكفير الطرف الآخر ثم استباحة دمه لمجرد أنه كافر.

النظام أقنع شبيحته أن الثوار عملاء لدول أجنبية وخونة ولذلك لا إثم في قتلهم أو تعذيبهم. الإنسان دائماً بحاجة إلى أن يجد المبرر الأخلاقي لأفعاله وبخاصة قتل الآخرين وتعذيبهم ، وليس شبيحة العلويين استثناءً لهذه القاعدة.

لا دماء مهدورة

وهذا يقودنا إلى الكلام على استباحة دم الكافر التي ستجعل أبناء السنة يقتلون العلويين وغيرهم من أبناء الطوائف السورية الأخرى التى هي كافرة من منظورهم ، يقتلونهم بضمير مرتاح وربما يتقربون إلى الله بقتلهم. كل الأديان والملل تسمي من لا يؤمن بها كافراً ، لذا يجب أن لا نتحسس من هذه الكلمة. أنا مسلم سني لكني بالنسبة إلى مسيحي أو درزي أو غير ذلك كافر. القضية نسبية وبالتالي كل من أنكر عقائدنا هو كافر بها مثلما نحن كافرون بعقائده. كلنا مؤمن بعقيدة وكافر بغيرها في الوقت ذاته ، لكن السؤال هو هل يبيح الكفر لنا قتل الناس لمجرد أنهم كفار ؟

سأجيب على هذا السؤال من منظور الإسلام السني لسببين ، الأول أنني سني وهذا المجال الذي أظن أنني أفهم فيه ، والثاني لأن السنة في سورية هم من يمكن أن يقود البلاد إلى الحرب الطائفية وليس بقية الطوائف. بالطبع النظام أيضاً يريدها طائفية.

الطوائف الأخرى ولأنها أقليات ليس من مصلحتها تفجير الحرب الطائفية في سورية ، لكنها ستكون مضطرة إلى ذلك إن هي حوربت من منطلق طائفي ، ولا لوم على أحد إن هو دافع عن نفسه. إذن السنة هم المرشحون في سورية لارتكاب أكبر غلطة وهي تحويل الثورة إلى حرب

طائفية ، لا لأنهم أشرار ، إنما لأنهم هم من عانوا من الاستبداد والتهميش والإساءات على مدى أربعين عاماً من حكم آل الأسد ، ولأنهم الأكثرية ، والكثرة تغري الإنسان باللجوء إلى القوة ، لأنه يتوقع أن تكون له الغلبة.

سؤالي هو لشباب السنة في سورية: هل إذا تحولت الثورة إلى حرب طائفية ستجدون مبرراً يبيح لكم قتل العلويين وغيرهم دون الشعور بالذنب والخطيئة ؟

ستقولون هم كفار فهم يؤلهون علياً بن أبي طالب ، وهذا شرك وردَّة ، وستخرجون فتوى ابن تيمية رحمه الله فيهم وتسمعونا إياها. ابن تيمية هو شيخ الإسلام وعبقري من عباقرته ، لكن ذلك لا يعني أنه لا يخطيء ، ولا يعني أن كل ما قاله علينا الأخذ به دون نقاش. الإمام مالك رضي الله عنه ذات مرة قال: كل رجل يؤخذ من كلامه ويُرَدّ إلا صاحب هذا القبر وكان يشير إلى قبر محمد صلى الله عليه وسلم. ستقولون دعنا من ابن تيمية وفتاواه ، ألم يقل النبي صلى الله عليه وسلم: (أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ ، وَيُقِيمُوا الصَّلاَةَ ، وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ ، فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلاَّ بِحَقِّ الإِسْلاَمِ ، وَحِسَابُهُمْ عَلَى اللهِ تَعَالَى)؟ وسأجيبكم بلى قال ذلك وهذا حديث صحيح رواه البخاري ومسلم لا أشك في ثبوته ، لكني أشك في فهم أغلب المسلمين بعد جيل الصحابة له.

الأصل في الإسلام أنه لا إكراه في الدين ، فقد قال تعالى: {لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىَ لاَ انفِصَامَ لَهَا وَاللّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ} البقرة256.. والإسلام أول دين عالمي قدس حرية الاعتقاد الديني وحرم الإكراه في الدين ، وإن كان ذلك لا يعفي الناس من تبعة اختياراتهم عندما يَقْدُمون على الله. قال تعالى مخاطباً محمداً صلى الله عليه وسلم ومخاطباً لنا من بعده: {وَلَوْ شَاء رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ} يونس99. لو شاء الله أن يُكْرِهَ كل البشر على الإيمان لآمنوا جميعهم ، لكنه يريد منا الإيمان الذي يكون بمحض اختيارنا ، حتى أنه جعل في الكون آيات تدل عليه ، وأخفى نفسه ، فلا نراه ولا نشعر بوجوده بشكل لا نستطيع معه إنكاره والكفر به ، لذا استنكر أن يخطر ببال النبي أو غيره أن يكره الناس على الإيمان. هذه آية واضحة الدلالة على حرية الاعتقاد مع تحمل المسؤولية عن هذا الاعتقاد ، لكِنْ في القرآن آيات أخرى قد يظن البعض أنها تناقض هذه الآية أو تنسخها ، مثل قوله تعالى: {فَإِذَا انسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُواْ الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُواْ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ وَآتَوُاْ الزَّكَاةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ } التوبة5. فهذه الآية تدعو لقتال المشركين وقتلهم إلا إن هم آمنوا وتحولوا إلى الإسلام ، وهذ الآية مع حديث أمرت أن أقاتل الناس ، فهم منهما كثيرون ، أن المشرك بالله لا حرمة في قتله طالما أنه مصر على

شركه ، وما علينا إلا أن نثبت أن العلويين أو غيرهم مشركون لنستبيح دماءهم.

النفس البشرية معصومة مؤمنة كانت أو كافرة ، وحرية الاعتقاد حق لجميع البشر لا يجوز الاعتداء عليه ولو من أجل إدخالهم في دين الله الذي فيه نجاتهم من النار. هذا هو الأصل ، لكن لضرورة ما كان هنالك استثناء لهذا الأصل. لم يكن بنوا إسرائيل أول أمة موحدة في التاريخ المعروف كما يظن كثيرون ، بل كان العرب الذين اتبعوا إبراهيم وإسماعيل أول أمة موحدة لله كأمة لا مجرد أفراد مؤمنين ، وبقي العرب ما شاء الله لهم أن يبقوا موحدين يعبدون الله على دين إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، لكن مع القرون أشركوا مع الله آلهة غيره لتكون لهم واسطة تقربهم من الله زلفاً وصاروا بذلك مشركين. ومحمد بعث فيهم بالدرجة الأولى ليعيدهم إلى التوحيد الإبراهيمي الذي انحرفوا عنه وليجعل منهم أساتذة البشرية في التوحيد ودعاتها إلى الله. لم يكن العرب أمة وثنية كما هو حال القبائل الوثنية في مجاهل أفريقيا أو أستراليا أو غيرهما. صحيح أنهم عبدوا الأصنام مثلهم لكنهم كانوا يعبدون الله الخالق الكبير ويعرفونه جيداً ، إنما أشركوا معه غيره ، بينما الوثنيون في الثقافات الأخرى يعبدون آلهتهم ولا يعرفون الله.

صحيح أن من يقول: إن لله ولد ، هو مشرك ، لكن كلمة المشركين في القرآن لا تعنيه أبداً ، بل اليهود والمسيحيون اسمهم في القرآن أهل الكتاب وليسوا مشمولين بكلمة المشركين. والمشركون المذكورون في القرآن هم "الذين أشركوا" أي أشركوا بعد توحيد وليسوا الوثنيين الذين لم يعرفوا الله من قبل ، لذلك علينا أن نفهم من كلمة المشركين أو الذين أشركوا كلما وردت في القرآن الكريم أنها تعني المشركين العرب الذين كانوا في زمان محمد صلى الله عليه وسلم وبعث فيهم ليصحح لهم عقيدتهم التي انحرفت ، ولا تعني مطلق المشركين في الأزمان والأصقاع الأخرى.

الإكراه في الدين استثناء

كان لا بد لحماية الإسلام ولحفظ الذكر من التحريف أن يكون للإسلام دولة قوية ، لذا كان النبي صلى الله عليه وسلم رسولاً ورئيس دولة ، وكانت الغزوات والفتوحات. سيدنا عيسى عليه السلام جاء بالتوحيد في أمة موحدة ، لكن بسبب ضعف أتباعه واضطهادهم ، تمكن أعداؤه من تحريف تعاليمه وإدخال ماليس منها فيها ، ولو لم تقم للإسلام دولة قوية لما نجا من التحريف ولما بقي القرآن دون أن تتبدل فيه كلمة واحدة إلى يومنا هذا.

من أجل أن تقوم للإسلام دولة تحميه من التحريف كان لا بد من إكراه المشركين العرب الذين كانوا في زمن النبي صلى الله عليه وسلم على دخول الإسلام ، وعلى العودة إلى التوحيد الخالص الذي كان عليه أجدادهم قبل أن يشركوا مع الله آلهة أخرى ما أنزل الله بها من سلطان. لقد تم استثناؤهم من مبدأ لا إكراه في الدين لضرورة لا سبيل لتجنبها إلا بتعريض الإسلام للتحريف والضياع ، وكان ذلك محاباة من الله لهم حيث أَكْرَهَهُم على الإسلام وقبله منهم رغم أنهم دخلوا فيه رغماً عنهم ، إذ الأصل ألا يقبل الله من العمل الصالح إلا ما كان نابعاً من القلب وبحرية كاملة. كان العرب بذلك أمة محظوظة تماماً كما يكون الطفل المريض الذي يجبره أبواه على تناول الدواء النافع رغماً عنه محظوظاً.

قد يجادل البعض ويقول إن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ ، وَيُقِيمُوا الصَّلاَةَ ، وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ ، فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلاَّ بِحَقِّ الإِسْلامِ ، وَحِسَابُهُمْ عَلَى اللهِ تَعَالَى) رواه البُخاريُّ ومسلِمٌ. ولم يقل أُمِرْتُ أن أقاتل العرب ، وبالتالي العبرة بعموم اللفظ ، ولفظة الناس تعني البشرية كلها.

صحيح أن لفظة الناس يمكن أن تعني البشرية كلها ، ولكنها لا تعني ذلك دائماً ، فلو قلتَ تكلم الناس على فلان لأنه فعل كذا وكذا فأنت

بالتأكيد لا تعني أن كل البشرية قد تكلمت عليه ، وبُعَيْدَ معركة أحد ، التي قتل فيها سبعون من المسلمين وجرح الكثيرون ، جاء من يقول لهم إن المشركين قد تجمعوا يريدون العودة والانقضاض عليكم ليبيدوكم ، فكان جوابهم أن قالوا: حسبنا الله ونعم الوكيل ، قال تعالى: {الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُواْ حَسْبُنَا اللّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ{173} فَانقَلَبُواْ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُواْ رِضْوَانَ اللّهِ وَاللّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ{174}} آل عمران 173-174. إن كلمة الناس في هذه الآية بالتأكيد لا تعني البشرية كلها ، إنما تعني بعض الذين هم بالنسبة للنبي والصحابة "الناس" أي بعض قومهم العرب ، فهم الذين جمعوا لهم يريدون القضاء عليهم.. لذا كان من أساليب الكلام العربي أن يقول الرسول صلى الله عليه وسلم: أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله...إلى آخر الحديث ، وهو يعني أن الله أمره أن يقاتل قومه العرب الذين أشركوا ، وأن يكرههم على الإسلام لضرورة ما ، دون أن يكون ذلك نسخاً أو إلغاء لمبدأ لا إكراه في الدين الذي قررته آية قرآنية. نعم لم تكن نفوس مشركي العرب بعد نزول سورة التوبة ، معصومة ، إلا بدخولهم الإسلام أو خروجهم من أرض العرب ، فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: (أخرجوا المشركين من جزيرة العرب) ، وهو حديث متفق عليه.

لقد فهم الصحابة أمر النبي صلى الله عليه وسلم وحاربوا مشركي العرب حتى أدخلوهم في الإسلام ، ثم حاربوا من ارتد منهم بعد وفاة النبي ومن امتنع عن الزكاة ، لكنهم أبداً لم يجبروا أحداً خارج المنطقة التي كانت

تسمى جزيرة العرب على الإسلام ، ولم يجبروا يهودياً ولا مسيحياً من العرب على الإسلام ، بل كان لهم أن يأخذوا ضريبة من القادرين منهم إن تغلبوا عليهم ودخلوا بلادهم عنوة وأصروا ه على دينهم ، اسمها الجزية. كانت معروفة قبل الإسلام ، ثم عندما فتح المسلمون بلاد المجوس والهندوس وغيرهم من الوثنيين وأشباه الوثنيين طبقوا عليهم حكم اليهود والنصارى ، حيث لا إكراه في الدين ، واكتفوا بفرض الجزية عليهم ، وتركوهم أحراراً في عقائدهم وعباداتهم. أي لم يُبِحْ الصحابة ومن جاء بعدهم لأنفسهم قتل رجل واحد لأنه غير مسلم ، إلا إن كان من المشركين العرب الذين كان لهم حكم خاص ، ولم يُشْكِل الأمر على الصحابة كما أشكل على بعض الشباب المسلم في زماننا.

إنه باستثناء المشركين العرب زمن النبي صلى الله عليه وسلم كل البشر نفوسهم معصومة لا يجوز الاعتداء عليها مهما كانت عقائدها ومذاهبها ، ولا يجوز إكراهها على الإسلام مع أن في اعتناقه خير لها.

حماية من التلاعب

وقد يجادل مجادل فيقول: لكن النبي صلى الله عليه وسلم قال من بدل دينه فاقتلوه ، ألا يعني ذلك استحقاق من يرتد عن الاسلام أو ينحرف بحيث يخرج من الملة القتل ؟

في البداية كان الاسلام ديناً ناشئاً وكان لا بد من حمايته من المشككين الذين تظاهروا بالإسلام ليرتدوا عنه ويوهموا الناس أنهم ارتدوا عنه لأنهم لم يجدوا فيه خيراً ، فيكون بذلك تنفير للناس عن الإسلام. قال تعالى عن بعض يهود المدينة زمن النبي: {وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُواْ بِالَّذِيَ أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُواْ وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُواْ آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ} آل عمران72 ، الناس يتأثرون ببعضهم بعضاً ، وقد بينت العلوم النفسية المعاصرة ذلك ، وسبقها النبي صلى الله عليه وسلم ، عندما قال إنه لو آمن به من يهود المدينة عشرة ، لآمن به كل يهود المدينة. وكلنا يذكر كيف أبطل أبو لهب تأثير الإنذار الذي وجهه النبي صلي الله عليه وسلم لقومه ، يوم أن أمره الله أن يصدع بما يؤمر وأن ينذر قومه وعشيرته الأقربين ، فقال له أبو لهب أمام الحضور: تباً لك ألِهذا جمعتنا ؟. لذا كان لابد لحماية الناس من هذا المكر ، الهادف إلى تشكيكهم وإبعادهم عن الإسلام ، من أن يَسُنَّ النبي صلى الله عليه وسلم قانوناً ، يعاقب فيه بالقتل ، من يرتد عن الإسلام في تلك الأيام الحرجة ، حتى لا يدخل في الإسلام إلا الجادون المخلصون ،

ثم كان قتل من يرتد من العرب الذين تم استثناؤهم من مبدأ لا إكراه في الدين. وعلينا أن نفهم التشريعات في إطار ظروفها التاريخية لنعرف هل هي تشريعات أبدية عامة ، أم هي تشريعات لضرورات معينة وفي أزمان معينة.

ويبقى موضوع مُهْدَر الدم الذي على أساسه يستبيح البعض قتل من يعتبره مرتداً أو مشركاً. صحيح أن النبي صلى الله عليه وسلم أهدر دماء ستة من المشركين عندما فتح مكة ، وأمر بقتلهم ولو تعلقوا بأستار الكعبة ، لكن الذي يجب الانتباه له أن ذلك لم يكن منه صلى الله عليه وسلم بمثابة فتوى دينية ، إنما كان حكماً قضائياً ، بوصفه صلى الله عليه وسلم الحاكم الأعلى ، وبوصف هؤلاء الستة رعايا تحت سلطته ، بعد أن فتحت مكة وصارت جزءاً من دولة المسلمين. الجرائم التي استحق أولئك أن تهدر دماؤهم بسببها جرائم قديمة وسابقة على فتح مكة ، ومع ذلك لم يصدر النبي صلى الله عليه وسلم حكمه عليهم إلا عندما صاروا من رعايا دولته وضمن سلطته كحاكم لا كمشرع ومفتي ، لذا يجب أن لا يُهْدَرَ دم أحد إلا بحكم قضائي يستوفي شروط القضاء العادل النزيه ، فمن المعروف لكل متفقه أن المسلم مأمور إن هو رأى مسلماً آخر يزني أن يستر عليه وأن ينصحه ، لا أن يقتله ، مع أن الحكم الذي عليه الفقهاء هو قتل الثيب الزاني. هؤلاء الفقهاء أنفسهم ، لا يرون استحقاق الثيب الزاني للقتل بمجرد الزنا ، بل لا بد له من المجاهرة والإقرار المتكرر ، أو أن يرتكب الفاحشة أمام أربعة رجال يرون الفعل الجنسي بأعينهم ، ثم يشهدون عليه أمام القاضي. الدم

البشري محرم ولا يهدر بفتوى عالم أو طالب علم ، إنما إهداره يعني حكماً بالإعدام لا يحق لأحد إصداره إلا القاضي المختص.

بعد هذه الملاحظات لا أجد عذراً لمن يقتل غيره بحجة الشرك أو الردة أو غير ذلك ، وعلينا الحذر من التورط في الهرج وهو فوضى القتل وإزهاق الأرواح دون حق. وعلى من أراد الجهاد من الشباب أن يتقي الله فلا يرتكب الجرائم التي سيحاسبه الله عليها وهو يظن أنه إنما يجاهد في سبيل الله ، وعلينا الحذر من أن تدفعنا مشاعر الكراهية والحقد والرغبة في الانتقام إلى أن نتبنى فتاوى تبيح لنا قتل الناس بسبب معتقدهم فإننا نستطيع أن نخدع أنفسنا لكننا لا نستطيع أبداً أن نخدع الله ، وأول شيء يقضى فيه يوم القيامة الدماء ، ولئن كان الأصل في شريعتنا في كل شيء الإباحة ، إلاّ ما ثبت تحريمه ، فإن الأصل في الدماء الحرمة إلاّ ما ثبت استحقاقه للقتل ، ولابد من ثبوت ذلك ثبوتاً قوياً ، وإلاّ فإنه حتى الحدود تُدْرأ بالشبهات ، فتعطل ، ولا تقام على شخص إن كان هنالك ذرة شك في أنه استحقها ، رغم ما للحدود من أهمية وتعظيم ، فكيف بقتل الناس عند الفتنة والفوضى ؟

سيادة فقدناها

يحلم كثير من الشباب المسلم أن يعيش في دولة إسلامية ، تكون أخلاق الناس فيها إسلامية ، وقوانينها إسلامية ، والسيادة فيها للمسلمين. ولا يمكننا أن نصادر أحلام الناس ، فهم لهم الحق في أن يتمنوا ما يحبون وما يعتقدون أن فيه سعادتهم ، لكن الذي على الشباب المسلم أن ينتبه له ، هو أن الظروف حالياً مختلفة عن الظروف التي عاشها المسلمون إبان عزة الإسلام والمسلمين وتغلبهم على غيرهم من الشعوب ، وفتحهم لبلدانهم ، حيث صار كل ما في تلك البلاد المفتوحة غنيمة للمسلمين الفاتحين ، وكان على أصحاب الأرض الأصليين الذين يزرعونها أن يدفعوا أجر تلك الأرض إلى خزينة الدولة الإسلامية ، وكان يسمى الخَراج, في تلك الظروف فرض المسلمون المنتصرون على غيرهم شروطاً يرويها لنا التاريخ ، كانت من منطلق الغلبة والانتصار على المغلوبين والمهزومين ، مع أن المؤرخين المنصفين يشهدون أن التاريخ ما عرف فاتحين أرحم من العرب.

عندما نقرأ التاريخ والشروط التي فرضها المسلمون على غيرهم ، نظن أن هذه الشروط أحكام لا يجوز مخالفتها ، وبالتالي نحلم ، وبكل نية طيبة ، أن نعيد هذا التاريخ ، ليعود دين الله هو الدين الظاهر على الدين كله ، ونفرض على غير المسلمين في أوطاننا ما فرضه الفاتحون المسلمون قديماً ، لكن هنالك في التاريخ موقف أقرب إلى موقفنا هذه الأيام ، وهو عندما هاجر النبي

صلى الله عليه وسلم وصحابته من مكة إلى المدينة. يومها لم يدخلوا المدينة غزاة فاتحين منتصرين، بل استقبلهم أهل المدينة كمهاجرين يشاركونهم العيش في المدينة، ويجدون فيها الأمان الذي افتقدوه في مكة. يومها كان في المدينة كثير من أهلها الذين أسلموا إما إسلاماً مخلصاً وإما نفاقاً من الخشية، وكان فيها الكثيرون من أهلها الذين لم يدخلوا في دين الله وكانوا ما يزالون مشركين مثل باقي العرب في ذلك الزمان، وكان في المدينة ثلاث قبائل يهودية تعيش فيها من زمن بعيد، وانضم المسلمون المهاجرون إلى كل هؤلاء وتكونت دولة يرأسها النبي صلى الله عليه وسلم. يومها كتب النبي صلى الله عليه وسلم وثيقة اتفق فيها أهل المدينة بكافة أطيافهم وأديانهم على ما يمكن اعتباره، أول دستور مكتوب في التاريخ، ينظم حياتهم المشتركة ويبين حقوقهم وواجباتهم. لم يكن في وثيقة المدينة المنورة أية شروط فيها تمييز للمسلمين على غيرهم سواء كانوا من المهاجرين أو الأنصار، وتجلت في تلك الوثيقة مفاهيم العدالة والمساواة للجميع، أي ما نعبر عنه هذه الأيام بالمواطنة، حيث للجميع حقوق متساوية في البلاد.

واليوم بعد قرون من التخلف والهزيمة وجدنا أنفسنا في دول أكثرها كان نتيجة تقسيم المستعمرين لبلادنا، حتى أن البلاد العربية تتميز بالحدود المستقيمة المرسومة بالمسطرة لا التي تتبع تضاريس طبيعية متعرجة. في هذه الدول التي خلقها الاستعمار الأوربي وجدت طوائف وأديان وقوميات، لكن كانوا جميعاً مغلوبين بالتساوي أمام المستعمرين الأوربيين، ثم

استقلت كثير من تلك البلاد استقلالاً منقوصاً وأحياناً كاملاً، ووجدت الطوائف والأعراق في سورية نفسها شريكة في دولة ليس لطائفة فيها السيادة على أخرى.

قد لا يعجبنا الوضع الذي وجدنا أنفسنا فيه بعد قرون من العزة والغلبة ، لكن ذلك لا يغير من الواقع شيئاً ولا يعطينا أي حق في التعدي على حق باقي السوريين في المواطنة الكاملة معنا كسوريين ، لهم ما لنا وعليهم ما علينا. صحيح أن المستعمر الأوربي هو الذي رجح كفة بعض الطوائف وأفقد المسلمين السنة الوضع الممتاز الذي كان لهم على مدى قرون عديدة ، وصحيح أن ذلك كان فيه نوع من الظلم للسنة ، وربما لم يكن مشروعاً ، لكن لا بد من احترام الوضع الجديد الذي نتج عنه. أُشَبِّه الأمر بزواج تم بالإكراه ومشكوك في صحته وشرعيته ، أو زواج بين رجل وامرأة يكتشفان بعد سنين طويلة وانجاب ذرية كثيرة أنهما أخ وأخته وزواجهما باطل ، ومع ذلك تحترم حقوق أولادهما بالنسب والميراث ، وتحترم كل الحقوق كما لو كان الزواج شرعياً تماماً. زواج بالإكراه ، آثم من فرضه على امرأة مسكينة ، لكن ما ينتج عنه من قرابات وحقوق وواجبات أمر واقع لا مجال لإنكاره. وهكذا علينا القبول بالوضع الجديد الذي يماثل وضع المسلمين بعد الهجرة إلى المدينة ، وأن نتقاسم الحياة بالعدل والمساواة مع باقي السوريين بغض النظر عن معتقداتهم وأعراقهم.

سورية لكل السوريين ، وستكون الدولة فيها دولة السوريين جميعهم ، الذين ، إن ارتضوا دون إكراه ، أن يُحَكِّموا بعض القوانين الشرعية أو كلها ، فهذا من حقهم ، وإن رفض أكثرهم ذلك ، وقع الإثم على الذين رفضوا ، وبرأت ذمة الذين دعوا وطالبوا ، ولن يلومهم الله. ولا يحق لبعض السوريين فرض وجهة نظرهم على الآخرين ، إلا إن كانت فكرته أو رغبته مقبولة من الغالبية ، بشرط أن لا تناقض الدستور ، الذي يضمن حقوق جميع السوريين ، ويعتبرهم مواطنين متساوين ، مثلما اعتبرت وثيقة المدينة أهلها مواطنين متساوين ، رغم اختلاف معتقداتهم الدينية وأصولهم العرقية. ويجب أن لا نحزن لهذا الوضع الجديد فالبشرية في عصر صارت فيه الأرض قرية واحدة ، وتداخلت الشعوب والثقافات ، ولم يبق هنالك دولة واحدة صافية عرقياً أو دينياً. وحتى إسرائيل التي تحلم بدولة يهودية عليها أن تقبل أن غير اليهود فيها لهم الحقوق ذاتها ، ومواطنون تماماً ، كما إن اليهود فيها مواطنون.

لن تنجح ثورتنا إلا إن كانت ثورة كل السوريين ومن أجل كل السوريين ، وسيكون مصيرها الإخفاق والفشل إن هي تحولت إلى ثورة طائفية.

المقال الرابع:

الثورة السورية بين العنف واللاعنف

(سبق نشره بالاسم المستعار: الدكتور محمد ناصح عبد الله)

تمت كتابته في 2012/03/15 وتم تنقيحه وإعادة نشره في 2013/06/01

عام على الثورة

اليوم أكملت الثورة السورية عاماً كاملاً ودخلت في عامها الثاني منذ انطلاقتها المترددة ، بينما هي اليوم ثابتة لا تتردد ومصرة على تحقيق أهدافها مهما عظمت التضحيات وكثر الشهداء. الثورة السورية قامت بشكل ارتجالي وكرد فعل على الإهانة ومحاولة الإذلال التي وصلت إلى حد إجبار الناس على تأليه الرجل الذي يطالبون برحيله بل محاكمته وإعدامه ، وإرغام الناس على السجود لصورته كما يسجد المصلي لخالقه. الثورة السورية ثورة كرامة لا ثورة جوع وخبز ، فالسوريون رغم صعوبات الحياة كانوا في حال أحسن من حال شعوب عربية أخرى ثارت على حكامها وأحرق بعضهم نفسه من أجل لقمة العيش. كانت الأمور الاقتصادية سيئة لكنها في تقديري

وأنا أتكلم عن معايشة مباشرة ، لم تكن من السوء بالقدر الذي يجعل الناس يتظاهرون ويتلقون الرصاص في صدورهم ، فالإنسان بفطرته يحب الحياة ويتمسك بها إلى أبعد الحدود ولا تهون عليه من أجل تحسين رفاهيته المعيشية ، لكن لدى الإنسان أشياء أغلى عليه من حياته وفي أمتنا العرض والكرامة ترخص الحياة فداء لهما.

عندما بدأت التظاهرات كانت محدودة وكان النظام يتمتع بشعبية كبيرة لدى الكثير من السوريين ولدى العرب خارج سورية ، فقد كان نظاماً ممانعاً وغير مطيع لإسرائيل وأمريكا ، في حين كان النظام المصري يعمل لصالح إسرائيل على المكشوف ودون حياء أو مبالاة بمشاعر المصريين. صحيح أن ممانعة النظام السوري لم تحرر الجولان لكن المثل الشعبي يقول: الرمد ولا العمى ، أي الرمد أهون من العمى. كانت ممانعة النظام مع أنها كلامية في أكثر الأحيان ، تبدو في عيون السوريين وباقي العرب الذين رأوا أنظمتهم تبالغ في التذلل لإسرائيل وأمريكا وتتنازل عن مصالحهم المعيشة إرضاء لإسرائيل ، كانت هذه الممانعة محل تقديرهم واستحسانهم رغم عيوبها التي لم تكن قليلة. يقولون الأعور بين العميان ملك ، والنظام السوري في ممانعته نصف الجادة وحديثه عن السلام العادل والحقوق العربية التي لا يحق لحاكم أن يتنازل عنها ، كان بالمقارنة مع أنظمة عربية أخرى بطلاً ومناضلاً. صحيح أنه لم يحقق شيئاً يذكر على أرض الواقع ، لكن مجرد ممانعته وعدم مطاوعته لإسرائيل وأمريكا كان شيئاً محبباً إلى نفوس

العرب الذين شعروا بالذل والمهانة التي عرضتهم لها أنظمة خائنة خيانة لا تخفى على أحد.

غباء واستكبار

إذاً بدأ بعض السوريين احتجاجات محدودة لم أكن أتصور أنها يمكن أن تتطور إلى ثورة قوية وعنيدة تستعصي على كل محاولات النظام لقمعها واستئصالها ، وكنت في نفسي حزيناً لأنني توقعت أن يقوم النظام الذي له تلك الشعبية وعلى رأسه رجل محبب للنفوس ، ببعض الخطوات التي ترضي الناس قليلاً وتؤجل بلوغهم حد الثورة ربما لسنين عديدة ، وهذا كان يعني أن يطول عمر النظام الذي كنت أدرك إلى أي مدى هو نظام سيء ولا أمل فيه في أن يحقق لنا شيئاً ، لا على مستوى معيشة السوريين ولا على مستوى تحرير الأرض المغتصبة. كنت أغبط المصريين والتونسيين رغم أنني أعلم جيداً أن التغيير في تونس ومصر لن يكون جذرياً ، وأشعر بالأسى على السوريين الذين بدا لي أن عليهم تحمل نظامهم الفاسد المتخلف الذي يخدعهم بالكلام المعسول ويدغدغ مشاعرهم الوطنية والقومية دون أن يحقق شيئاً ملموساً لهم ، بينما هو يستأثر بخيراتهم ويحتكر الحياة السياسة ويعاملهم معاملته لقطيع عليه السمع والطاعة ولا يحق له إبداء رأي أو اعتراض ، في الوقت الذي تحرر فيه الناس حتى في الدول التي كانت شيوعية. لكن حدث شيء لم أتوقعه أسعدني رغم مأساويته. لقد حاول النظام القضاء على الاحتجاجات بقسوة بالغة كانت كفيلة قبل ثلاثين سنة

أن تخمدها إلى غير رجعة. بالغ النظام في القتل والاعتقال والتعذيب حتى الموت ، وحتى يجعل الأسر في درعا تلم أولادها وتمنعهم من القيام بأية حماقات ، أعاد طفلاً ينطق وجهه بالبراءة إلى أهله جثة تحمل آثار وحشية لا مبرر لها على الإطلاق ، الكدمات على جسده الطري ورقبته مكسورة وذكره مقطوع وطلقة في صدره وطلقة ثانية في ذراعه اليمنى اخترقتها ودخلت في بطنه وطلقة ثالثة اتخذت المسار نفسه في الجهة اليسرى. تفنن وإبداع في الوحشية والقسوة على طفل قيل أنه كان يحاول إيصال بعض الطعام لأقربائه المحاصرين في درعا. كان بإمكان النظام التخلص من جثة حمزة الخطيب ودفن جريمته معها ، لكن الجريمة كانت مقصودة لبث الرعب في نفوس الآباء والأمهات ليتولوا بأنفسهم تقييد أولادهم وليمنعوهم من التورط في أي نشاط فيه خروج على الخضوع الذليل الذي كان يعيشه السوريون ، ومعروف أن المراهقين هم أسرع الناس لتقبل الجديد وللإندفاع وراء أي دعوة تدعو إلى المثاليات وللتضحية بأنفسهم في سبيل ذلك ، فهم ليس لديهم أولاد يخشون عليهم أن يعانوا اليتم والفقر من بعدهم. كان ما فعلوه بحمزة الخطيب مقصوداً ومتعمداً وله هدفه. كانوا يستبيحون كل محرم لتحقيق غاياتهم. لكن كما أشعلت النيران التي احترق بها البوعزيزي في تونس ثورة كاملة فإن صورة حمزة الخطيب أيقظت الكثيرين من السوريين من غفلتهم وفتحت أعينهم ليروا عيوب النظام الذي كانوا مخدوعين به ، وأعلنها السوريون ثورة الكرامة والحرية.

كان من السهل القضاء على الثورة في سورية وهي برعم صغير ليتأخر تحرر السوريين من طغاتهم ربما جيلاً آخر وذلك بالتعامل معها برفق وسياسة وكياسة ، لكن النظام قدم لنا خدمة عظيمة لم يقصدها ، لقد خلق بحمقه واستكباره ثورة في سورية ما كان لها أن توجد لولا أفعاله المخزية التي أسقطت عنه ورقة التوت التي كان يستر سوءته بها ، فإذا به كله سوءات لكن الغشاوة كانت تغطي أبصار الكثيرين ، وبفضل النظام السوري بدأت الغشاوة تنجلي. الثورة في سورية من صنع النظام السوري ، وهي بالدرجة الأولى رد فعل على ازدرائه للسوريين ومعاملته لهم معاملة السادة المتجبرين للعبيد المقهورين.

النظام يقوم على مجموعة من أناس لا أخلاق لهم ، بعكس بشار الذي هو استثناء بينهم ، لذا استخدموه قناعاً يخفي حقارتهم. كانوا مختبئين خلفه يعيثون فساداً ، والسوريون يظنون بشار واحداً من جماعة كبيرة من أمثاله ، ولم يكونوا يدركون أنه كان الوحيد الذي يتمتع بالطيبة والصدق في مواقفه وبخاصة تجاه إسرائيل ، لكنه كان عاجزاً وهو الحمل الوديع بين قطيع من الذئاب الذين لا يحللون ولا يحرمون والمستعدين لأن يقترفوا أية جريمة للمحافظة على تسلطهم على البلاد والعباد. قسوة القمع ووحشيته ، رغم سلمية الاحتجاجات وعفويتها ، كشفت للكثيرين مقدار الحقارة والنذالة التي يتمتع بها حكامهم ، إذ ليس بشار الحاكم الحقيقي في سورية. وإن كان يبدو لي أنه رضي أن ينضم إلى عصابة من الحثالة تسيطر على البلاد ربما ليأمن على نفسه وعائلته الصغيرة ، وربما استمراءً للذة السلطة المطلقة التي

أوهموه أنه يتمتع بها ، مع المال الكثير الذي قيل إن بشاراً يحب جمعه بعكس أبيه الذي لم يعرف عنه أنه ترك ثروة فاحشة تؤمن مستقبل أولاده ، اللهم إلا سورية كلها ، التي كانت بمثابة مزرعة كبيرة له ، هي ومن عليها من المواطنين المخدوعين المستعبدين.

ثورة أشعلها النظام

وحشية النظام وغباؤه في التعامل مع احتجاجات بعض من تجرأ من السوريين على المطالبة لا بإسقاط النظام أو تنحي الرئيس بل المطالبة بالحرية والإصلاح ولو في ظل النظام نفسه ، هذه الوحشية والاعتداء على كرامة الناس استفزتهم فثاروا لكرامتهم ، وثاروا غضباً لمقتل أقربائهم وأصدقائهم وأبناء عشائرهم الذين لم يكن ذنبهم إلا أنهم هتفوا للحرية وأيديهم خالية من أي سلاح وصدورهم عارية لرصاص الوحوش الذين يحكمونهم. وانتقل الثائرون من المطالبة بالحرية والإصلاح إلى المطالبة لا بتنحي الرئيس كما طالب المصريون من قبلهم بل المطالبة بإعدام الرئيس الذي كانوا يحبونه وانكشف أمامهم عن مجرم يستخدم براعته في الكلام لتبرير جرائم رجالات نظامه المخزية لمن لديه ذرة من حياء أو أخلاق أو مبادىء.

ومن فضل الله على السوريين أن النظام مجموعة من الأغبياء المغرورين الذين لا يتعلمون من أخطائهم أبداً ، والذين أعماهم غرورهم واستكبارهم فصاروا عاجزين عن أن يبصروا المستنقع الذي وقعوا فيه والهوة التي يسقطون فيها يوماً بعد يوم ، فلا يخطر ببالهم استدراك الموقف ليخرجوا منه بأقل الخسائر لهم ولعائلاتهم. لقد أضل الله أعمالهم وصاروا مثل أحمق يريد أن يطفىء ناراً بصب الزيت عليها ، وكلما زادها الزيت اشتعالاً زاد هو من الزيت الذي يصبه عليها ليطفئها ، وهكذا الثورة السورية تقوى وتتعاظم كلما أمعن النظام بالقتل والتعذيب والاعتداء على الأعراض ، الذي بلغ حد ارتكاب المذابح بحق النساء والأطفال. الأغبياء يتصورون الشعب الثائر مثلهم لو تهددت سلامة أحدهم وسلامة أولاده لاستكان وخضع وانقاد. كان السوريون هكذا قبل ثلاثين أو أربعين عاماً ، وكان قطع رأس القط من ليلة العرس كما يقال يبث الرعب في نفوس البقية ويضمن خضوعهم وانقيادهم ، كان السوريون يعانون من الوَهَن الذي ذكره النبي صلى الله عليه وسلم ، أي حب الحياة حتى لو مع الذل وكراهية الموت حتى لو من أجل الكرامة. لقد نشأ جيل من السوريين لا يهاب الموت ولا يرضى أن يبقى مستعبداً فزادت المظاهرات وتوسعت وخرجت في مناطق لم تخرج فيها من قبل كلما بلغ الناس أخبار القتل والتعذيب والاعتداء على الأعراض. إنهم بدل أن يخافوا ويلوذوا ببيوتهم حرصاً على سلامتهم خرجوا يتحدون القتلة ويرحبون بالاستشهاد في سبيل العيش بكرامة صاروا يستحقونها.

وهكذا تطورت الثورة من اجتماع روح العزة التي لا يريد النظام أن يدرك أن السوريين صاروا يتحلون بها على أوسع نطاق ، مع أسلوب أكثر من غبي حاول النظام به أن يقضي على الثورة التي قامت ثأراً لكرامة أهينت ولنفوس بريئة قتلت.. حاول أن يقضي عليها بمزيد من الإهانة والإذلال والقتل والتعذيب وهتك الأعراض ، أي بالمزيد من الأفعال التي أشعلت الثورة حين صادفت نفوساً كريمة تأبى الذل والهوان ، ورافق ذلك كله انكشاف النظام للكثيرين من الذين كانوا مخدوعين به. وهكذا كان للنظام فضل التعجيل بثورة السوريين من أجل حريتهم وكرامتهم ومن أجل دولة العدالة والمواطنة التي يتساوى فيها أبناؤها على اختلاف أديانهم وأعراقهم وأجناسهم ولغاتهم وتتكافىء فيها فرص الجميع فيكون الأصلح هو الذي يسود في المجتمع ، ونتخلص من الحال البائسة التي نحن عليها اليوم ، حيث يسود العشيرة أرذلهم ، كما أخبر النبي صلى الله عليه وسلم.

إن سلمية الاحتجاجات ، ومحاربة النظام لها بالرصاص الحي ، مع ادعائه أن العصابات المسلحة هي التي تقتل المتظاهرين ضده ، بينما لا يصاب المتظاهرون المؤيدون له بخدش ، هذه السلمية رغم الاستفزاز ومحاولة النظام جر الثائرين إلى السلاح فضحت النظام وعرَّته أمام الذين كانوا مخدوعين به ، وألهبت مشاعر الكثيرين الذين يكرهون الظلم والقهر ، فإذا بهم يرون الظلم والقهر مجسدين وواضحين وضوح الشمس في أفعال النظام. ومما ساهم في فضح النظام أنه استعان بالشبيحة ، وهم نوع من المافيا والعصابات التي كونها بعض آل الأسد في مناطقهم للسيطرة على

الناس حولهم ، علوية كانوا أو سنة أو مسيحيين ، فلا كرامة لأحد إلا لآل الأسد والباقون درجة ثانية حتى لو كانوا علويين ، إلا إن هم انضموا إلى عصاباتهم من الشبيحة الذين لا يخضعون للقانون ولا لأعراف الناس وتقاليدهم ولا يعرفون حلالاً أو حراماً ، فمن كان معهم شاركهم بعض المنافع دون أن يشاركهم العلو في الأرض ، إذ لا بد له أن يرضى أن يكون وراءهم وأدنى منهم. هؤلاء الشبيحة المرتزقة من المجرمين وأشباه المجرمين جندهم النظام ليكسر بهم إرادة الثائرين لكرامتهم ، فزادوا الطين بلة بأخلاقهم المنحطة وتعاملهم مع السوريين كعبيد آبقين يجب ردهم إلى ربقة العبودية ، أو فالقتل حق عليهم. النظام بحاجة إلى رجال يواجهون المتظاهرين بحقد وبلا ضمير ، وظن أن الشبيحة بميولهم الإجرامية خير من يقوم بالمهمة ، فقد كان الهدف هو الردع والإرهاب وقتل كل من يتجرأ على أسياده. هؤلاء الشبيحة لا يعرفون حقوق الإنسان لأنهم لا يرون ولا حتى لأنفسهم أية حقوق أمام أسيادهم ، اللهم إلا الفتات الذي يرمونه لهم كما يرمي الرجل الطعام إلى كلبه الذي يحرسه وهو سعيد بالفتات وبرضى مولاه عنه. هؤلاء الشبيحة يرون أنفسهم ويرون السوريين الباقين عبيداً لأسيادهم من آل الأسد ومن معهم ، وهم لن يتعاملوا برحمة أو احترام حتى مع أبناء طائفتهم وعشائرهم إن هم تمردوا على الأسياد أولياء النعمة. لذا هم يقتلون المتظاهرين قتل الحاقد المتشفي لمجرد أنهم هتفوا للحرية ، لأنهم هم أنفسهم لا يشعرون أن من حقهم أن يتمتعوا بالحرية والكرامة إلا ما يجود عليهم به أسيادهم. لذا هم عاجزون عن الشعور بما يشعر به السوريون المطالبون بالحرية والكرامة وعاجزون عن التعاطف معهم ، إنما هم في نظرهم خاطئون يستحقون العقوبة وفاسدون يجب استئصالهم قبل أن

تنتقل عدوى فسادهم إلى غيرهم. هؤلاء الشبيحة هم مستعبدون أكثر من غيرهم من السوريين ، لكنهم لم يتحرروا في داخل نفوسهم ، ولم يستشعروا الحاجة للتخلص من السادة المتسلطين الذين يستأثرون بخيرات البلاد ويستكبرون على العباد.

ترشيد الثورة

المهم حدث ما أسعدني ، وفشل النظام في التعامل مع الاحتجاجات بذكاء وسياسة ومكر ، ولجأ إلى الأسلوب الذي حول الاحتجاجات المتفرقة إلى ثورة شعبية عارمة يتعاظم زخمها يوماً بعد يوم. كم حمدت الله على هذه النعمة التي أرتني أن النظام زائل لا محالة ويحفر قبره بيده. إن الدماء التي أريقت بلا حق والأعراض التي انتهكت بقصد إذلال أهلها وترهيبهم هي التي استفزت النفوس الأبية الكريمة التي لا ترضى بالذل أو الظلم وصنعت في سورية ثورة ما كنا نحلم بها. اعذروني فأنا من جيل تربى على الخوف ، في زماننا كان تدمير حي من أحياء حماة فوق رؤوس سكانه كافياً لإخضاع الجميع لدكتاتور مستبد عشرين عاماً وعشرة ثالثة لوريثه وولي عهده. ربما كنتم أنتم يا شباب تشعرون أن الثورة آتية لا محالة بينما أنا لا أدرك إلى أي مستوى من العزة وصلت نفوس أبناء أمتي. لقد أذهلتمونا ببطولتكم واستهانتكم بالموت في سبيل كرامتكم وحريتكم وأخجلتمونا وصار أكثرنا يرى أن عليه اللحاق بكم والسير وراءكم ، ولكنني وأنا الذي لا أجرؤ على الخروج في مظاهرة ولا على مجرد الإفصاح عن اسمي الحقيقي وأنا

أخاطبكم ، ولست في لياقة تساعدني على الهرب من بطش الشبيحة ورجال الأمن المخيفين إن ركضوا خلفي يريدون اعتقالي ، أنا وأمثالي نملك لكم الكثير مما سيفيدكم كي تنتصر ثورتكم وتحقق أهدافها. إننا نحن المسنين الجبناء نمتلك من الحكمة ما أنتم في أمس الحاجة إليه ، إنها الحكمة التي اكتسبناها على مدى العمر الطويل والقراءات الكثيرة وخبرات الحياة وتجاربها وما مر علينا من أحداث هي تاريخ بالنسبة لكم يصلكم وصفه الصادق حيناً والكاذب أحياناً أخرى ، بينما نحن عشناه واقعاً حياً بكل آلامه وأحزانه. إن روح الاستشهاد التي لديكم وبذل النفس في سبيل الحرية شيء عظيم يستحق الإجلال والانحناء أمامه ، لكن ما هو أعظم منه هو أن نستشهد استشهاداً يحقق غاية ويكلف عدونا أكثر من مجرد الطلقات التي يقتلنا بها ، إن حب الدنيا وكراهية الموت تجعل البشر يرضون بالذل والهوان ، لكن ليس الموت ولا حتى استشهاداً غاية في حد ذاته ، وهنا قد يكون لدي ولدى أمثالي ما نقدمه لكم من الرأي والمشورة.. إنني لا أريد ولا أستطيع أن أتسلق على بطولاتكم لأصل إلى زعامة وقيادة لست أهلاً لها ، ولا أريدكم أن تمكنوا أحداً من المتسلقين أن يزايد على أرواحكم لتحقيق منصب أو مكانة ، لكن هذا لا يعني أن نسايركم في كل ما ترونه حتى لو كان خاطئاً لمجرد أنكم كسرتم حاجز الخوف وتمردتم على قيودكم ، فالمثل يقول: صديقك من صَدَقَك لا من صَدَّقَك ، والنصيحة هي عدم الغش وعدم كتمان رأي نافع يمكن أن يجعل النتائج أكبر والخسائر أقل ، وذلك بسبب استشعارنا النقص أمام بطولاتكم وشجاعتكم مقابل خوف جيلنا وجبنه.

أقول هذا لأني أرى الأمور مختلطة على الكثيرين من شبابنا الثائر مما يجعله يطالب بما فيه الشر له بحسن نية ، والإنسان قد يطلب من الله الشر وهو يظنه خيراً ، قال تعالى: {وَيَدْعُ الإِنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الإِنسَانُ عَجُولاً} الإسراء11. لذا سامحوني إن تجرأت على طرح أفكار قد تكون مستهجنة من كثير منكم هذه الأيام ، لكني أذكركم أن الحكمة ضالة المؤمن أنّى وجدها التقطها ، وعلينا أن نستمع إلى بعضنا بعضاً فإن المؤمنين أمرهم شورى بينهم ، ومع أن الأمر الأصل في معناه هو الحُكْم لذا يسمى الحاكم ولي الأمر لكن الشورى خُلُقُ المؤمنين في جميع مجالات الحياة ، لأن الاستماع إلى الآراء الأخرى لن يضرنا في شيء ، فهو إما أن ينبهنا إلى خطأٍ نحن واقعون فيه ، أو يطمئننا إلى أننا على حق وعلى صواب فنزداد عزيمة وإقداماً.

وأقول هذا لأن كثيراً منا صار ينادي بالتسلح ويدعو إلى التدخل الأجنبي لحماية المتظاهرين وحماية الذين يقتلون كل يوم بلا ذنب. لم يسمع كثيرون منا بمبدأ اللاعنف والمقاومة السلمية التي اشتهر بها غاندي في النصف الأول للقرن العشرين ، وقد يظنه بعض من سمع به نوعاً من المثالية ومن إدارة الخد الآخر لمن يلطمنا على خدنا الأول.

اللاعنف من الإسلام

اللاعنف ليس اختراعاً لغاندي ولا سبقاً له ، إنما عرفته البشرية منذ الأسرة الأولى من بني آدم الذين أعطاهم الله من العقل وكمال الخَلْق ما لم يعطه لمخلوق قبلهم. القرآن يروي لنا قصة اثنين من أبناء آدم قدما قرباناً إلى الله فتُقُبِّلَ من أحدهما ولم يتقبل من الآخر ، فقال هذا الآخر لأخيه: لأقتلنك. ومع أن حق الدفاع عن النفس لا يعترض عليه أحد ، فإن الأخ الصالح أعلن لأخيه أنه لن يدافع عن نفسه ، ولئن أصر الأخ الظالم على قتل أخيه الصالح فإنه لن يقاومه ، بل سيتركه يبوء بإثمه وإثم أخيه المقتول.

تأملوا هذه الحكاية التي يقصها علينا الحق سبحانه وتعالى في كتابه إذ يقول: {وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَاناً فَتُقُبِّلَ مِن أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ{27} لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَاْ بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لَأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ {28} إِنِّي أُرِيدُ أَن تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاء الظَّالِمِينَ{29} فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ{30} فَبَعَثَ اللّهُ غُرَاباً يَبْحَثُ فِي الأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ{31} مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً وَمَنْ أَحْيَاهَا

فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً وَلَقَدْ جَاءتْهُمْ رُسُلُنَا بِالبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيراً مِّنْهُم بَعْدَ ذَلِكَ فِي الأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ{32} {سورة المائدة}.

ربنا يحكي لنا قصة الأخ الذي لم يدافع عن نفسه وهو يعلم أن أخاه يريد قتله ليكون هذا الرجل قدوة لنا ومثالاً، لا ليذمه ويصفه بالضعيف أو المتخاذل. أليس سياق الآيات الكريمة واضحاً في امتداح امتناعه عن مقاومة أخيه بالعنف ولو دفاعاً عن نفسه؟

عندما كان النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمون في مكة قبل الهجرة إلى المدينة تعرضوا إلى الإيذاء الشديد والتعذيب والحصار، لكنهم أبداً لم يلجؤوا إلى العنف أو إلى أية أساليب كان يمكن أن توصف بأنها غير مشروعة، كسرقة الطعام من أجل البقاء على قيد الحياة أثناء الحصار في شِعْبِ أبي طالب، أو تخليص العبيد المؤمنين الذين كانوا يعذبون حتى يرتدوا إلى الشرك أو يموتوا تحت التعذيب وذلك بفك قيودهم ومساعدتهم على الهروب من سادتهم، إنما كان المسلمون يشترون إخوانهم العبيد المعذبين بالمال الكثير ويحررونهم بالوسائل المشروعة في ذلك المجتمع، وفي الشِّعْب صبروا على الجوع حتى أكلوا أوراق الشجر ولم يحاولوا الحصول على الطعام بوسائل غير مشروعة، وذات يوم دافع أبو بكر عن محمد صلى الله عليه وسلم عند الكعبة فانهال عليه المشركون ضرباً حتى لم يعد يُعْرَف وجهه من شدة ما أصابه لكنه لم يرد بيده أو يدافع عن نفسه

بسلاح أو دون سلاح ، رغم أن قيم المجتمع المكي يومها تعلي من شأن الإباء والعزة وعدم الخضوع ولو كلف ذلك العربي حياته.

في تلك المرحلة لم يكن مأذوناً للمؤمنين أن يلجؤوا إلى أي شكل من أشكال العنف ، وكانوا مأمورين أن يكفُّوا أيديهم ، ونجد هذا واضحاً في الآية الكريمة التالية: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّواْ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَآتُواْ الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُواْ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدَّنْيَا قَلِيلٌ وَالآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَى وَلاَ تُظْلَمُونَ فَتِيلاً} النساء77. لكن بعد أن هاجر المسلمون والنبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة وأسسوا دولة ، أذن الله لهم بالقتال في سبيله ، أما قبل ذلك فكان الحال هو ما تعبر عنه الآيات الكريمة التالية: {8} أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى{9} عَبْداً إِذَا صَلَّى{10} أَرَأَيْتَ إِن كَانَ عَلَى الْهُدَى{11} أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَى{12} أَرَأَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّى{13} أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى{14} كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعاً بِالنَّاصِيَةِ{15} نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ{16} فَلْيَدْعُ نَادِيَه{17} سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ{18} كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ{19}العلق19.

لا تطعه واسجد واقترب ويداك مكفوفتان غير مبسوطتين بأي عدوان ولا حتى بدفاع عن النفس ، إنما هو الثبات والإصرار على الحق والعصيان السلمي.

الدفاع عن النفس حق تضمنه الفطرة الإنسانية السوية وتقره شرائع البشر كلها ، لكن تركه أحياناً يكون أقوى أثراً من ممارسته وأعظم نفعاً وأدعى لتحقيق الأهداف المطلوبة. نعم قد يؤدي ذلك إلى استشهاد البعض وإلى الظهور بمظهر الضعيف الذليل ، لكن فيه تكمن قوة أخلاقية لا يستطيع الخصم أن يتغلب عليها بسلاحه وعضلاته. سيكون هنالك شهداء سواء تم الدفاع عن النفس باليد والسلاح أو تم الامتناع عنه ، ولكن أثر هذا الصراع في نفوس الذين يراقبونه سيختلف. ففي حالة الدفاع عن النفس ينتقل اهتمام من يراقب إلى معرفة من سينتصر ويتراجع اهتمامه بعدالة قضية أحد الطرفين ومقدار الحق فيها. أما إن كف أصحاب الحق أيديهم فإن اعتداء خصومهم عليهم باليد والسلاح وعجز هؤلاء الخصوم عن رد الحجة بحجة مثلها وعن إبطال الدعوة بما يثبت خطأها كل ذلك يجعل المراقبين للموقف أو ما يسمى الأكثرية الصامتة يتفكرون بعدالة القضية المطروحة وينكشف لهم زيف ادعاء الخصم الذي لا يعرف إلا لغة القوة لأنه صاحب جسد كبير وعضلات مفتولة لكن لا عقل له ولا قلب. إن الصبر على الأذى مع كف الأيدي عن الدفاع عن النفس يزلزل الأرض تحت أقدام الظالمين ، لذا تراهم يحاولون استفزاز أصحاب الحق كي يلجؤوا إلى العنف والسلاح فتكون الغلبة للظالم لأنه قوي ويخسر المظلوم حتى تعاطف الأغلبية الصامتة معه ، ويصبح الموقف يشبه حلبة مصارعة يشاهدها الجمهور وهو متشوق لمعرفة نتيجتها أكثر مما هو مهتم بمعرفة من معه الحق من الطرفين المتصارعين.

عندما يكون الخلاف والصراع ضمن المجتمع نفسه يصبح أفضل الجهاد كلمة حق يقولها المرء ويتحمل الأذى الذي يقع عليه جراء ذلك دون أن يستخدم يده ولا حتى للدفاع عن نفسه، كما يفعل المتظاهرون السلميون من أجل الحرية والكرامة، وكلنا يعرف حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم بهذا الخصوص (أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر أو أمير جائر)، ولهذا حكمة عظيمة أول جوانبها أن اقتتال أبناء المجتمع الواحد أو ما يسمى بلغة عصرنا الحرب الأهلية يهدد المجتمع بأسره، ويذهب فيه الأبرياء ضحايا الفوضى التي يسببها، كما قد يُقْتَل فيه من هم من أنصار الحق لأن المجتمع متداخل ومتشابك وغير متمايز، قال تعالى: {هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفاً أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاء مُّؤْمِنَاتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَؤُوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَاباً أَلِيماً} الفتح25. والذي يدعو إلى الإصلاح يجب أن لا يجر المجتمع إلى الاقتتال الداخلي والحرب الأهلية، إذ هدفه تحسين حياة الناس لا انتحار المجتمع أو الانتقام من الخصوم.

إذن لا جهاد باليد ضمن مجتمع واحد، إنما الجهاد فيه يكون بأن يقوم المجاهد إلى الحاكم الجائر ويعظه فيقتله هذا الظالم لأنه تجرأ على قول الحق مما قد يجعل باقي أفراد المجتمع يتمردون على سلطته وطغيانه، وعندما يقتل المجاهد بهذه الطريقة فإنه لا يكون شهيداً فحسب بل يكون

سيد الشهداء. قال صلى الله عليه وسلم: "سَيِّدُ الشُّهَدَاءِ حَمْزَةُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ ، وَرَجُلٌ قَامَ إِلَى إِمَامٍ جَائِرٍ فَأَمَرَهُ وَنَهَاهُ فَقَتَلَهُ". أما عندما يكون الصراع والخلاف بين دولتين أو بين فئتين متمايزتين غير مختلطتين يمكن للجهاد بقوة السلاح أن يكون هو المطلوب: {وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدْوَّ اللّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لاَ تَعْلَمُونَهُمُ اللّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لاَ تُظْلَمُونَ} الأنفال60. وذلك كأن يدخل محتل غريب بلداً من البلدان فيكون جنوده معروفين سهل تمييزهم وقتلهم وحدهم دون قتل أي بريء ، ولا يكون هؤلاء الجنود أبناء المجتمع نفسه ، بحيث يقتل الرجل ابن عشيرته.

والعنف لا ينفع عندما تكون الأمور مختلطة والحق غير واضح مع أي جانب هو ، وهذا ما يسمى الفتنة ، حيث يحتار الإنسان ولا يعرف أي الفريقين على الحق والصواب ، عندها يُقْتَل الأبرياء ويقاتل الإنسان تحت راية يكتشف بعد فترة أنها كانت خاطئة عمية ، فيندم بعد أن أزهق أرواحاً بغير حق ، وأتلف أموالاً ظلماً وعدواناً. لذا يجب أن يكون التغيير ضمن المجتمع الواحد وفي القضايا التي تختلف فيها الآراء تغييراً سلمياً مئة بالمئة نكف فيه أيدينا ولا نبسطها بعدوان على أحد ، وبذلك لن يكون هنالك ما نندم عليه يوماً ما.

إن محاولة التغيير دون عنف ولا حتى بقصد الدفاع عن النفس تساعد كثيراً على توضح الأمور وانجلائها وعلى تغيير قناعات الكثيرين من الذين لا مصالح شخصية لهم مع الباطل الذي نريد تغييره ومن الذين خدعهم هذا الباطل وأوهمهم أنه الحق وأنه الصواب. الصراع عادة له هدفان أولهما تغيير القناعات وثانيهما كسر الإرادات ، أما الصراع الذي يهدف إلى إبادة الخصم إبادة تامة فلا يمكن أن يكون له مكان في النضال من أجل التغيير الاجتماعي والانتقال من مجتمع القهر والكبت والقيود إلى مجتمع الحرية والعدل والمساواة.

والصراع في سورية اليوم يهدف إلى تغيير ديمقراطي يشارك فيه الجميع ويستفيد منه الجميع ، وحتى ينجح لا بد أن يقتنع أغلب السوريين بالثورة وعدالة قضيتها فيشاركوا فيها كُلٌّ حسب استطاعته ، ولا بد لنجاحها من سحب البساط من تحت النظام ليفقد أية شعبية يمتلكها ، فإذا فقد كل شعبيته فسيسقط لا محالة ، وقد يسقط وقتها على أيدي بعض دعائمه وبمباركة وتأييد حلفائه المخلصين الذين سيجدون مصالحهم مع نظام بديل فيدعمون التغيير.

الثورة أقوى بسلميتها

في سورية ما تزال الثورة سنية إلى حد بعيد ، ومشاركة أبناء الطوائف أخرى فيها فردية ومحدودة ومترددة ، وهذه السلبية من الطوائف الأخرى تصب في رصيد النظام الذي يعتبرها مؤيدة له طالما أنها لم تَثُر عليه حتى الآن. والطوائف السورية غير السنة ليست صامتة لأنها سعيدة في ظل النظام أو مستفيدة أكثر من غيرها ، بل لأنها خائفة من البديل القادم أن يكون أسوأ بالنسبة لها من النظام الحالي ، وبخاصة في قضايا الحريات الدينية والمواطنة ، وهم لن يشاركوا بقوة ويقدموا أرواحهم إلا إن ضمنوا أن المستقبل سيكون أحسن ومكانهم في المجتمع السوري سيكون محفوظاً لهم كسوريين لهم ما لباقي السوريين من الحقوق وعليهم ما على باقي السوريين من الواجبات ، ووصولهم إلى هذه القناعة يحتاج من الثورة أن تبقى سلمية مئة بالمئة وأن تتجنب الطائفية تجنباً كاملاً ، أما إن تسلحت وأخذت المنحى الطائفي سواء من إنطلاقها من طائفة السنة أو بتركيز عدائها على الطائفة العلوية فإن مخاوف الطوائف الأخرى من المستقبل ستتعاظم وستدفعهم إلى الاستجابة لدعوات التسلح وتكوين الميليشيات الطائفية لحماية أنفسهم في البداية ولتقسيم المنطقة (سورية ولبنان) إلى دويلات طائفية متناحرة في النهاية. لا يمكن للثورة أن تتسلح دون أن تنزلق في مستنقع الطائفية. وعندما تتسلح الثورة وتمارس القتل فإن أثرها في تغيير القناعات يصبح ضئيلاً جداً ويستمر أنصار النظام في الالتفاف حوله وتأييده إلى آخر مدى.

أما أعداد الشهداء فكلنا يعلم أنها منذ تكون الجيش الحر وصار يعلن تحرير بعض الأحياء من سلطة النظام تضاعفت مرات ومرات ، ولم تكن هنالك حماية حقيقية للمتظاهرين والمدنيين ، بل اضطر النظام إلى التعامل مع الأحياء التي تعلن تحررها تعامله مع بلاد معادية هو في حرب معها يستحل فيها كل شيء من أجل الانتصار. صحيح أن ذلك جعله يرتكب جرائم أكثر وينكشف أمام الجميع ، لكن كان يمكن تحقيق قدر أكبر من تعرية النظام بشهداء أقل بالطرق السلمية إن تأمنت تغطية إعلامية قوية.

إن بقاء الثورة تلعب دور الضحية له أثر بالغ في تغيير قناعات ومواقف واتجاهات الأغلبية التي مازالت صامتة ، وبالتالي تغيير ميزان القوى ضمن المجتمع ، لكنها القوى غير العسكرية ، تلك القوى التي لا يمتلك النظام منها الكثير ، وهو عاجز عن المحافظة على ما لديه منها. إنه بغبائه وغروره يخسر كل يوم قدراً من قوته غير العسكرية أي من شعبيته وشرعيته وتعاطف الكثير من السوريين معه ، وعلينا أن لا نساعده باستعجالنا وانفعالنا كي يحول الصراع إلى حرب أهلية طائفية سيكون هو المنتصر فيها وفي أسوأ الاحتمالات يقسم المنطقة وينشىء دولة علوية تستأثر بالثروة الغازية العظيمة المكتشفة تحت شرق البحر الأبيض المتوسط ، لأن أية دولة علوية ستقوم ستضم الساحل السوري كله وطرابلس لبنان ، وسيبقى للسنة دويلة داخلية مخنوقة لا سواحل لها.

ليس الحرص على سلمية الثورة المطلقة وعلى التزام مبدأ اللاعنف فيها نوعاً من الطوباوية والمثالية غير الواقعية التي لا يلجأ إليها إلا الضعفاء والمقهورون ، إنما هي قوة أخلاقية وتفوق في القيم على الخصم يحرجه ويفقده تعاطف الصامتين ، بل ويفقده بعض أنصاره الذين لديهم بقية من قيم وأخلاق ، بينما هو عاجز عن مواجهة الثورة في هذا المجال الذي لا يمتلك فيه أية مقومات تعينه على التغلب عليها.

السلمية والإعلام

تحتاج المحافظة على سلمية الثورة إلى أن يتمتع الثائرون بالثقة بأنفسهم والثبات والرسوخ على الأسلوب الذي يجيدونه ولا يحتاج إلى إمكانات كثيرة ، والنظام في الوقت ذاته لا يستطيع مواجهته إلا بالتنازلات أمام الثورة وهذا غير وارد لديه على الإطلاق بسبب غروره بقوته وتقليله من شأن الثورة وتوفر الدعم الخارجي له ، أو بمزيد من القتل والبطش مما يعني المزيد من الهزيمة له أمام الثورة من الناحية الأخلاقية والمزيد من زوال انخداع الكثيرين به وبأنه نظام ملتزم بقضايا الأمة وليس عصابة من المنتفعين على حساب الشعب المغلوب على أمره.

لكن السلمية وتقديم الشهداء دون دفاع عن النفس لن يفيد إن كان في السر ولم يعلم به أحد ، لذا لا بد من سلاح الإعلام لفضح النظام وفضح جرائمه ، والذين يُظْهِرون الكرم والاستعداد لتمويل تسليح الثورة سيساعدون الثورة أكثر لو أمَّنوا للثوار وسائل اتصال تمكنهم من نشر أخبار مصورة لما يحدث من احتجاجات سلمية وقمع وحشي لها.. إن هاتفاً محمولاً يتصل عن طريق الأقمار الصناعية أخطر على النظام من دبابة.

ولنرجع إلى الحديث النبوي الصحيح الذي قص علينا فيه قصة الغلام المؤمن الذي نشر عقيدة التوحيد في بلد يدعي ملكه الألوهية ، وقد روى الحديث الإمام مسلم في صحيحه ، وخلاصة القصة أنه كان ملك قديماً يدعي الألوهية وله ساحر يعينه في التأثير في عقول الناس ، وكبر الساحر في السن فطلب من الملك أن يبعث إليه غلاماً يعلمه السحر يحل محله في خدمة الملك بعد موت الساحر. بعث الملك غلاماً إلى الساحر ليتعلم منه السحر ، وكان الغلام عندما يذهب إلى الساحر كل يوم يمر في طريقه على راهب ، فصار يقعد إلى الراهب ويسمع كلامه فأعجبه كلام الراهب عن رب العالمين. ومرت الأيام وفي ذهن الغلام حيرة بين كلام الساحر الذي يؤله الملك وكلام الراهب الذي يقول لا إله إلا الله. وذات مرة اعترض حيوان مخيف طريق الناس وعجزوا عن قتله ، فلما رأى الغلام ذلك قال في نفسه اليوم أعرف من الذي على حق الراهب أم الساحر ، وأخذ حجراً وقال: اللهم إن كان أمر الراهب أحب إليك من أمر الساحر فاقتل هذه الدابة حتى يمضي الناس في طريقهم ، ورمى الدابة المخيفة بحجره الصغير فقتلها ،

وتيقن أن الراهب على الحق فذهب إليه وأخبره بقصة الدابة المخيفة وكيف قتلها ، فقال له الراهب: أي بني ، أنت اليوم أفضل مني وإنك ستُبْتَلى ، فإن ابتليت فلا تدل علي.. صار الغلام يبرىء الأكمه والأبرص ويداوي الناس من سائر الأدواء ، فسمع به جليس للملك كان أصيب بالعمى فجاءه بالأموال والعطايا طالباً منه أن يشفيه ، فقال له الغلام إني لا أشفي أحداً إنما الذي يشفي هو الله ، فإن أنت آمنت دعوت الله فشفاك ، فآمن جليس الملك بالله وحده ودعا له الغلام فشفاه الله. ذهب الرجل ليجالس الملك كما كان يفعل قبل أن يصيبه العمى فسأله الملك: من رد عليك بصرك ؟ فقال: ربي. فاستغرب الملك وسأله مستنكراً: ولك رب غيري ؟ فأجاب الرجل: ربي وربك الله. جن جنون الملك وأمر بتعذيب جليسه حتى دلهم على الغلام المؤمن وأنه هو من علمه الدين الجديد ، فجاؤوا بالغلام فحاول الملك بالرفق ثنيه عن دينه الجديد واستعادته إلى الولاء له فأخفق ، فأمر بتعذيبه حتى دلهم على الراهب ، ثم نشروا جليس الملك والراهب بالمنشار لما رفضا ترك دين الحق والعودة لعبادة الملك ، وأمر الملك جنوده أن يأخذوا الغلام إلى أعلى الجبل ويطلبوا منه الارتداد إلى دين الملك فإن أبى رموه من أعلى الجبل ليموت ، لكن الغلام دعا الله فاهتز الجبل وسقط الجنود وعاد الغلام إلى الملك سالماً ، فأمر الملك جنوداً آخرين أن يأخذوا الغلام إلى عرض البحر وأن يرموه في البحر إن هو رفض العودة إلى عبادة الملك ، فدعا الله فأغرق الله الجنود وعاد الغلام إلى الملك سالماً ، وقال للملك: إنك لست بقاتلي حتى تفعل ما آمرك به. فقال الملك المتلهف على قتل الغلام: وما هو؟ قال الغلام: تجمع الناس في صعيد واحد وتصلبني على جذع شجرة ثم تأخذ سهماً من كنانتي وتضع السهم في كبد القوس وتقول باسم الله رب الغلام ثم

ترميني بالسهم فإن فعلت ذلك قتلتني. ففعل الملك كل ذلك أمام حشود الناس فآمن الناس بالله وحده وتركوا عبادة الملك ، ثم أمر الملك بحفر أخدود واضرام نار فيه يلقى فيها كل من يصر على الدين الجديد ، والأخدود مذكور في سورة البروج: {{وَالسَّمَاء ذَاتِ الْبُرُوجِ{1} وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ{2} وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ{3} قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ {4} النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ{5} إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ{6} وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ{7} وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ{8} الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ{9} إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ{10}}.

انظروا إلى الغلام المؤمن كيف وظَّف استشهاده لنشر دعوة الحق ، فكان موته دون دفاع عن النفس ، لكن بذكاء ودهاء ، وأمام جموع الناس ،كان وبالاً على الملك المتأله وزلزالاً لملكه. الشهداء واقعون لا محالة سواء دافع الجيش الحر عن المتظاهرين أم لم يدافع ، لكن علينا التفكير والتساؤل: أي الأسلوبين يجعل دماء هؤلاء الشهداء وصمة عار وفضح لنظام لا أخلاق له بحيث يفقد الاحترام والتأييد من كل الشرفاء ولا يبقى معه إلا المنتفعين الذين ما أن يشعروا أن هناك بديل محتمل حتى يلتفوا حوله ويتخلوا عن النظام الذي خدموه واستفادوا منه لأن العلاقة بينهم هي المنفعة لا المحبة والوفاء؟. لا تستهينوا بالناحية الأخلاقية التي لا يقدر النظام على الانتصار فيها ، فمنها يستمد أي نظام شرعيته ، وإذا فقد النظام شرعيته فقد معها شعبيته وصار سقوطه حتمياً.

عسكرة الثورة

النظام حريص على عسكرة الثورة وعلى تحويلها إلى صراع طائفي وقد فصلت هذه النقطة في مقالاتي الثلاثة السابقة عن الثورة السورية ، لكنني في هذا المقال أريد أن أبين أنه ليس النظام وحده من يحرص على عسكرة الثورة وجعلها طائفية ، هنالك إسرائيل وأمريكا اللتان ليس في منظورهما خير من النظام إلا تحقيق حلمهم في الشرق الأوسط الجديد ، أي تقسيم المنطقة إلى دويلات طائفية. لذا فإنهم لا نية لهم بأي تدخل عسكري مثل الذي قاموا به في ليبيا حتى لو تكفلت الدول العربية النفطية بكلفته ، لأنهم لا يريدون بديلاً عن النظام إلا التقسيم والدويلات الطائفية.

إنهم مازالوا على استعداد للرضى ببقاء النظام في حال انتصاره على الثورة لأنه وقتها سيكون أضعف كثيراً ومستعداً أكثر للسير في ركابهم وخدمة مصالحهم ، أما مجيء نظام ديموقراطي حقيقي كما هو الحال في ليبيا فليس مما ترحب به إسرائيل بل هو ما تخشاه وتحرص على تأخيره ، لأن أي حكم ديمقراطي في سورية لن يكون مريحاً لإسرائيل بعد الصحوة الإسلامية التي تعم المنطقة وبعد الشحن القومي الذي مارسه النظام منذ حوالي خمسين سنة.

إسرائيل ، وأمريكا التي لا تجرؤ على مخالفتها ، تحرصان على بقاء النظام ، وإلا فالحل البديل المقبول منهما هو تقسيم البلاد ، لذا هم لا يزعجهم الفيتو الروسي والفيتو الصيني في مجلس الأمن ، بل يعطيهم عذراً لتقاعسهم في تقديم أية حماية حقيقية للسوريين من نظامهم. هم لا يريدون تقديم هذه الحماية ، بل هم يعطون النظام الضوء الأخضر تلو الضوء الأخضر والتطمين تلو التطمين ليتورط أكثر في جرائمه ، الأمر الذي إما أن يؤدي إلى القضاء على الثورة ، وهو شيء ترغب فيه إسرائيل وأمريكا ، أو يؤدي بالسوريين إلى المزيد من الاستنجاد بالتدخل الخارجي الذي يُعْرَض عليهم بدلاً منه تسليح الثورة ممثلة بالجيش الحر ووضعها على طريق الحرب الأهلية الطائفية التي لن تقف إلا بعد تقسيم المنطقة. هم ليسوا في عجلة من أمرهم ومرور الوقت وارتكاب النظام للمزيد من الجرائم يخدمهم سواء انتصر النظام على الثورة أو تحولت الثورة إلى حرب أهلية طائفية. أمران أحلاهما مُرٌّ بالنسبة للسوريين وأكثرهما مرارة حلو بالنسبة لإسرائيل ، فعلى كلا الحالين تكون هي المستفيدة ونكون نحن الخاسرين.

وهنالك فرنسا ومعها أوربا لا تريد التدخل الخارجي أو عسكرة الثورة وتحولها إلى حرب طائفية تقسم البلاد ، لا حباً فينا ولا حرصاً علينا ، ففرنسا هي التي قسمت سوريا ولبنان إلى دويلات طائفية بمجرد أن احتلتهما ، ولم تتوحد سورية الحالية ويبقى لبنان مفصولاً عنها إلا بعد نضال طويل شارك فيه السوريون بكافة طوائفهم ، وهذا تاريخ معروف وسهل الاطلاع عليه لكل من يستخدم الانترنت. فرنسا لا تريد تدخل أمريكا ولا تريد العسكرة

والتقسيم لأنهما سيؤديان إلى خسارتها لسورية ولبنان كمنطقتي نفوذ وكمستعمرتين سابقتين ، والذي يراقب الجهود الفرنسية والتي يقوم بها حلفاء فرنسا في الوطن العربي من حكومات أو شخصيات عامة بعضها ممثلة لفصائل من الثورة السورية يلاحظ هذا الحرص الفرنسي على إقناع السوريين وغيرهم أن التدخل الأجنبي العسكري وعسكرة الثورة خطأ كبير وأضراره أكثر من فوائده.

مع ذلك علينا أن لا نتوقع من فرنسا أكثر مما هي مستعدة لتقديمه ، فهي إن نجح التوجه إلى عسكرة الثورة والصراع الطائفي والتقسيم فسيكون المسيحيون والعلويون حلفاءها ، وستحرص على ولائهم ليبقى لها موطىء قدم في المنطقة وورقة تستعملها كلما احتاجت إليها. الفرنسيون لن يدخلوا معركة لا قِبَلَ لهم بها مع إسرائيل وأمريكا رغم أنهم لا يفضلون ما ترغبان به من تقسيم ، لكنهم واقعيون كما أثبتت تجربة التحالف الدولي ضد العراق حيث انضموا إليه ليفوزوا ببعض الغنائم ولا يخرجوا من المولد بلا حِمَّص كما يقال ، وهم سيفعلون الأمر ذاته إن لزم بالنسبة لسورية ولبنان.

السوريون يلحون على التدخل الخارجي والحماية الدولية كلما أمعن النظام في جرائمه ، وهم لطيبتهم لا يعرفون حقيقة الغربيين الذين لا يحرك مقتل الآلاف بل ولا حتى مئات الآلاف منا فيهم ساكناً. ارجعو إلى تاريخ المذابح العرقية في رواندا عام 1994 حيث ذبح خلال ثلاثة أشهر حوالي

مليون من النساء والأطفال والرجال العزل من قبائل التوتسي على يد المتطرفين من أبناء قبائل الهوتو، وكان أكثر القتل يتم بالسكاكين والمناجل لأن كلفة الرصاص كانت فوق طاقة القاتلين، ويومها أرسل الفرنسيون والأمريكان ألف جندي ليضمنوا سلامة رعاياهم وليقوموا بإخراجهم خارج رواندا، بينما كان كل يوم يقتل حوالي العشرة آلاف من المستضعفين، وكان بمقدور الدول الغربية إيقاف هذه المذابح وإنقاذ مئات الآلاف من الأرواح البريئة بسهولة ويسر لا يقارنان بما يحتاجونه الآن لإنقاذ السوريين من بطش نظامهم. اكتبوا في أي محرك بحث على الانترنت رواندا بالعربي أو الأجنبي واقرؤوا عن تلك الأيام التي ستبقى وصمة عار إلى الأبد في جبين الدول الغربية.

لن يأتوا لإنقاذنا من نظامنا رحمة بنا أو نخوة وشهامة، فهم فاقدون لكل ذلك، إنما قد يأتون ليحققوا أطماعهم وأحلامهم وأطماع إسرائيل وأحلامها. علينا أن لا ننخدع بتصريحات وزراء عرب يَدَّعون الحرص على الشعب السوري ويطالبون بتسليحه، فهؤلاء ليسوا أحراراً في مواقفهم، بل من يتبع أمريكا منهم ينادي بعسكرة الانتفاضة ويبدي استعداده لتمويل هذه العسكرة، ومن يتبع فرنسا منهم ينادي ضد ذلك ويدعو إلى بقاء الثورة سلمية ويدعي أنه يريد ذلك من أجلنا وحرصاً علينا.

لا يمكننا الحكم على صدق نوايا هؤلاء وهؤلاء إلا لو كانوا أحراراً وقادرين على اتخاذ مواقف مستقلة ينطلقون فيها من مشاعرهم نحونا ومصالحهم عندنا. هم واقعون تحت الضغط والتوجيه من القوى الاستعمارية التي ما زالت تملي على بلادنا ما تشاء من سياسات ولا تجرؤ دولنا على مخالفة هذه الإملاءات إلا تحت طائلة التعرض للعقوبة والتأديب. حتى تركيا وحكومتها المتعاطفة معنا - لأنها في الأصل ذات توجه إسلامي - لم تستطع الخروج عن السياسة الأمريكية بما يخص الثورة السورية إلا عندما ضغطت عليها فرنسا بتشريع قانون يجرّم إنكار المذابح التي يتهم الأرمنُ الأتراكَ بارتكابها في حقهم في بدايات القرن العشرين ، وتأملوا كيف طويت القضية وصارت تركيا مستعدة لتنظيم مؤتمر أصدقاء سوريا الثاني الذي يروج لوجهة النظر الفرنسية.

لا للتخوين

ولفرنسا تأثير على كثير من شخصيات المعارضة السورية التي تشارك فرنسا موقفها السلبي من عسكرة الثورة السورية ، وحتى المعارضون اليساريون الذي لديهم موقف واضح من أي نفوذ أو احتلال أمريكي متوقع لسورية يتلقون التشجيع ولو إعلامياً من فرنسا وحلفائها لأن مواقفهم تلتقي مع مواقفها النابعة من مصالحها.

هذا لا يعني أن شخصيات المعارضة التي تنادي بعسكرة الثورة هم عملاء لأمريكا وإسرائيل ، ولا يعني أن الذين يعارضون التدخل الخارجي وعسكرة الثورة هم عملاء لفرنسا أو عملاء للنظام السوري. في خضم هذه الفتنة كثرت الاتهامات بالخيانة والعمالة ولعله لم ينج منها أحد من شخصيات المعارضة سواء من ينادي بالتدخل الخارجي أو من يعارضه. والمستفيد الوحيد من هذا التخوين هو النظام السوري ، وليس من المستبعد أن يكون رجاله هم الذين يطلقون اتهامات التخوين ، وبخاصة أن الأسماء على الانترنت مستعارة ولا يعرف من هم أصحابها وما هي ولاءاتهم الحقيقية. نعم هنالك خونة وعملاء بين شخصيات الانتفاضة كما كان هنالك منافقون زمن النبي صلى الله عليه وسلم ، ومع أن النبي كان يعلمهم بأشخاصهم لكنه أبداً لم يشكك في إسلام أي منهم ، وكان دائماً يأخذ الناس على ظواهرهم ويترك قلوبهم إلى خالقهم ، وإن كان القرآن الكريم قد حذر كثيراً من المنافقين لكنه لم يذكر أيا منهم باسمه ، بل نبه إلى أن المؤمنين يمكنهم معرفة هؤلاء من لحن القول ، ويمكنهم الحذر منهم دون إعلان تخوينهم وتكفيرهم ، قال تعالى: {أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ {29} وَلَوْ نَشَاء لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ} محمد 29-30. والمرض في القلوب الذي يتحدث عنه القرآن هو النفاق.

علينا أن نتعلم الدرس من ديننا ونبينا الذي لم يشكك في صحة إيمان أي شخص قال لا إله إلا الله ، بل كان يأخذ الجميع على ظواهرهم

ويعاملهم كمسلمين حتى لو كان على يقين أنهم منافقون. التخوين سلاح ذو حدين لا يمكنك استخدامه دون أن يستخدمه خصمك ضدك ، إنه اتهام رخيص لا يكلف شيئاً يبث الشك والريبة بين الثائرين في أنفسهم أو شخصيات المعارضة التي انخرطت في الثورة وتسلمت أدوراً قيادية لأن الثورة كانت ارتجالية ولم تكن ثورة قامت بها قوى منظمة من قبل ولها زعاماتها التي تثق بها. إن التخوين خطير جداً على الثورة السورية ويجب الامتناع عنه والحذر منه مع يقيننا أن هنالك لإسرائيل وللدول الاستعمارية عملاء بيننا ، نعم نأخذ الحذر من طروحاتهم دون أن نهاجم أشخاصهم أو نشكك في ولاءاتهم ، لأن ذلك التخوين يمكن أن يستخدم ضد المخلصين كما يستخدم ضد الخائنين.

علينا أن نحبط خطة النظام وسعيه لبث الشك بيننا ولإيهامنا أن بعضنا عملاء له ويطمعون بمناصب ينالونها في ظله ، ومع أن كل شيء ممكن لكننا يجب أن نكون أشد دهاء من النظام فلا نقع في اللعبة التي يلعبها بأن نخوِّن بعضنا بعضاً أو نصغي لمن يخون بعضنا من الناشطين المتحمسين الذين يغلب على ظني أنهم يقومون بذلك عن حسن نية وبسبب حرقتهم على الذين يقتلون أو يصابون على يد شبيحة النظام وجيشه ومخابراته ، لا بد أن نحسن الظن بأنفسنا ونتناقش حول وجهات أنظارنا التي من الطبيعي أن تختلف ونعزو خلافاتنا دائماً إلى اختلاف الرأي والمصالح لا إلى العمالة والخيانة ، فإن فعلنا ذلك فإننا نستطيع التوحد

والاتفاق على ما فيه خيرنا حتى لو كان بيننا عملاء للنظام أو عملاء لقوى دولية تعمل من أجل مصالحها.

كما علينا أن لا نشكك في ولاء السوريين من غير المسلمين أو حتى من اليساريين الذي قد يكونون ملحدين ، وأن لا نبقى أسرى القصة الذي رفض فيها الخليفة عمر بن الخطاب أن يتولى نصراني شأناً حساساً من شؤون الدولة لأنه لم يكن يثق بولاء غير المسلمين ، وألح على عامله أن يعزل النصراني ، ولما تمسك عامله بالنصراني بحجة أنه ليس هنالك أحد يحسن عمله ، أرسل إليه عمر رسالة مقتضبة يقول له فيها: مات النصراني. أي افترض أن هذا النصراني قد مات وتدبر الأمر من دونه. كان النصراني يومها من أمة مقهورة مغلوبة ، ودولة المسلمين كانت دولة قائمة على الشريعة والمسيحيون فيها أهل ذمة يدفعون الجزية ، وكل ذلك قد يضعف ولاءهم لهذه الدولة التي غلبتهم وحولتهم في بلادهم إلى ذميين ، أما في هذا الزمان فالسوريون من كل الطوائف والأديان مواطنون متساوون ليس فيهم منتصر ومغلوب أو ذمي عليه أداء الجزية ، بل هم شركاء في الوطن يخلصون له كما يخلص أبناء أي بلد لبلدهم ، وإن كان من الممكن للبعض أن يخون فهذا ينطبق على كل الأديان ، واسألوا أهل غزة عن الخونة الكثيرين بينهم الذين يتجسسون لحساب إسرائيل على المقاومة أليسوا كلهم أو أغلبهم مسلمين؟ نفترض الإخلاص والولاء للوطن لدى كل سوري بغض النظر عن عرقه أو لغته أو دينه أو طائفته ، ونتعامل مع بعضنا البعض بالثقة ، لكن لا ننقاد إلى أحد انقياداً أعمى ، وهذا سيحمينا من أن يجرنا أي

خائن بيننا إلى ما يريده أعداؤنا ، لكن دون تخوين ولا تشكيك بالولاء والنوايا.

اختلاف ونية حسنة

إن حماسة الناشطين للعسكرة ومطالباتهم المتكررة بتسليح الجيش الحر أو بالتدخل الأجنبي على شكل حظر جوي أو مناطق آمنة أو قصف جوي ، واتهامهم لمن لا يتجاوب مع هذه الرغبات من شخصيات المعارضة بالخيانة والعمالة والمتاجرة بدماء السوريين جعل الكثيرين من هؤلاء يقبلون بأنصاف حلول ليسوا مقتنعين بها إرضاء للشباب الثائر ، والقليل منهم من أصر علناً على رأي يخالف حماسة الشباب الذين يتلقون الرصاص بصدورهم, وهذا جعل القادة ينقادون للشباب حتى لو كانوا غير موفقين فيما يطالبون به ، وأعود وأذكر أن الإنسان قد يدعو الله يطلب ما فيه الشر له وهو يظن أن الخير فيه ، وقد يكره شيئاً وهو خير له ويحب شيئاً وهو شر له.

قال تعالى: {وَيَدْعُ الإِنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الإِنسَانُ عَجُولاً }الإسراء11.

وقال أيضاً: {كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تَكْرَهُواْ شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تُحِبُّواْ شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ} البقرة216.

علينا أن لا نستعجل فنندم ، وبخاصة أن المسألة السورية كثرت الأيدي المتدخلة فيها ولم تبق جهة دولية لم تتدخل ، لا الغرب ولا الشرق ولا الشيوعيون ولا الإسلاميون ، وكلٌّ له أغراضه ولا تهمه مصلحتنا الحقيقية في شيء. وعلينا أن نلجأ إلى رب العالمين ليهدينا سبلنا ويدلنا على ما فيه خيرنا ، وأن نفكر بواقعية ودون انفعالات أو رغبة في الثأر والانتقام ، فالذي يصاب أو يموت يقع أجره على الله ، فإن لم يكن قد اعتدى على غيره فهو شهيد ، بل سيد الشهداء.

الاختلاف بالرأي أمر طبيعي ولا يشترط أن يكون وراءه سوء نية أو خيانة ، إنما هي العواطف ورغبات النفوس أو ما يسمى الهوى يجعل الإنسان يؤمن بوجهة نظر ويعتبرها الحق والصواب بينما الأمر يحتمل وجهات النظر الأخرى ، ومثال كأس الماء المملوءة إلى نصفها كيف يقول المتفائل إنها كأس مملوء نصفها بينما يقول المتشائم بل هي كأس فارغ نصفها ، وكلاهما على حق لكن اختلفت النظرة ، فالأول رأى ما فيها من ماء والثاني لم ير إلا ما فيها من نقص وفراغ. لذا علينا الانتباه إلى عواطفنا التي قد تجعلنا نتبنى آراء ومواقف ربما لم تكن محقة ، ونحن نركز على جزء من الصورة ونخدع

بذلك أنفسنا بحسن نية ودون أن نشعر ، والنتائج الخطيرة لا تغيرها نوايانا الحسنة وإن كانت النوايا الحسنة يمكن أن تعفينا من الإثم إن كنا اجتهدنا فأخطأنا ، لكننا رغم حسن نوايانا سنعاني وبال أمرنا وعاقبة أخطائنا. الأمر خطير ويحتاج منا إلى التروي وإلى الاستعانة برب العالمين ليدلنا على الصواب الذي يؤدي إلى الخير ويرضى هو عنه.

التوكل على الله

بُعَيْدَ غزوة أحد وبينما المسلمون يضمدون جراحهم ويدفنون قتلاهم جاءهم من يخبرهم أن المشركين قد تجمعوا ويستعدون للعودة للقضاء على جيش المسلمين ، فقال المسلمون حسبنا الله ونعم الوكيل ، فهداهم الله إلى الرأي الصائب ورزقهم من فضله ونجاهم فلم يمسسهم سوء وأعانهم على اتباع رضوان الله في كل أمرهم. تعالوا نتأمل هذه الآيات الكريمة: {وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاء عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ{169} فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُواْ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلاَّ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ{170} يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ{171} الَّذِينَ اسْتَجَابُواْ لِلّهِ وَالرَّسُولِ مِن بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ مِنْهُمْ وَاتَّقَواْ أَجْرٌ عَظِيمٌ{172} الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُواْ حَسْبُنَا اللّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ{173} فَانقَلَبُواْ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُواْ رِضْوَانَ اللّهِ وَاللّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ{174} إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ

يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءهُ فَلاَ تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ{175} } آل عمران 169-175.

أولاً علينا الانتباه إلى أن النعمة في القرآن إذا ذكرت كان المقصود منها في الغالب نعمة الهداية لا نعمة المال ، ففي سورة الضحى يخاطب ربنا نبيه صلى الله عليه وسلم الذي وعد المشركين أن يجيب أسئلتهم ولم يقل إن شاء الله فتأخر الوحي كثيراً وأحرج محمد صلى الله عليه وسلم وقال المشركون ودَّع محمداً ربه وقلاه ، أي كرهه وأبغضه ، فنزلت سورة الضحى تطمئنه وتذكره بما يبرهن له أن ربه لم يهجره ولم يبغضه ، فقال تعالى: {وَالضُّحَى{1} وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى{2} مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى{3} وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى{4} وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى{5} أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَى{6} وَوَجَدَكَ ضَالّاً فَهَدَى{7} وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَى{8} فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ{9} وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ{10} وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ{11}} الضحى 1-11. ولنتأمل ما ذكره الله به من نعمه عليه التي كان أولها أنه وجده يتيماً فآواه وطلب منه بالمقابل أن يرحم اليتيم ولا يقهره ، وثانيها أنه وجده عائلاً أي فقيراً كثير العيال فأغناه وأمره بالمقابل أن لا ينهر المسكين ، وثالثها أنه وجده ضالّاً فهداه وأمره مقابل ذلك أن يتحدث بنعمة الله عليه أي بهدايته التي أوحاها إليه ، وليس كما يظن بعضنا أن يتحدث عما أعطاه الله من مال ومتاع ، فحتى آخر آية نزلت من القرآن قال المولى فيها: {..... الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً ..... } المائدة3

لم تكن نعمة المال هي التي أتمها الله على المؤمنين في ذلك اليوم إنما نعمة الهداية.

وقد فصلت في هذا لأني لا أجد ملجأً لنا إلا في التوكل على الله ليكون لنا مثل الذي كان للنبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه: {فَانقَلَبُواْ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُواْ رِضْوَانَ اللّهِ وَاللّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ} آل عمران {174}. انقلبوا أي رجعوا بنعمة من الله أي هداية إلى التصرف الصحيح حيث لم ينتظروا في مكانهم عودة المشركين لقتالهم إنما رغم جراحهم شدوا رحالهم يلاحقون المشركين الذين بلغهم أن المسلمين متوجهون إليهم يريدون قتالهم فخافوا وآثروا الفرار بالنصر الذي حققوه من قبل على المسلمين ، فَسَلِم المسلمون مما خوفهم منه الناس ، ورزقهم الله من فضله ، وطمأنهم أنهم قد اتبعوا رضوان الله وفعلوا الصواب وما يرضي الله.

يبقى أن نتوقف عند قوله تعالى : {الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُواْ حَسْبُنَا اللّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ} آل عمران 173 . حيث لم يقل أنهم توكلوا على الله فحسب ، بل هم قالوا بلسانهم عبارة التوكل على الله ، أي نطقوا بها ولاذوا بها يقولونها المرة تلو الأخرى ، حتى فرج الله همهم ونجاهم فلم يمسسهم سوء.

وأنا لي تجربة شخصية حيث تعرضت لموقف محرج جداً مالياً كان بسبب إصراري على شيء استخرت الله فيه المرات الكثيرة فألهمني أن أفعل ما فعلت ، وإذا بي في موقف صعب ، فتذكرت هذه الآيات وصرت أردد: حسبي الله ونعم الوكيل ، ليلي ونهاري كلما كنت لا أقوم بعملي الذي لا بد لي من القيام به ، واستمر الحال عدة شهور قلت فيها حسبي الله ونعم الوكيل ملايين المرات ، ومن يومها يسر الله لي أموري فخرجت من الموقف المحرج وأنا مرتاح ، وبدأ فضل الله يأتيني ، وفي كل شيء يُقَدِّر الله لي أحسن الاحتمالات ، ويهديني إلى أصح القرارات وهذا كله بفضل حسبي الله ونعم الوكيل.

لذا أدعو جميع السوريين الذين يشعرون بالقلق مثلي على مستقبل سورية أن يقولوا "حسبنا الله ونعم الوكيل" ويجتهدوا في قولها المرات التي لا تحصى ، ولا بد أن يهديهم الله إلى الصواب ويعطيهم من فضله ويكتب لهم العافية مما يخشونه.

إننا في ارتباك وتشوش ، وكثير منا يطلب عن حسن نية ما فيه الشر لنا ، ولا أمل لنا إلا في الله والتوكل عليه ، فلنجتهد في ذلك ولن نخسر شيئاً ، فقولة حسبنا الله ونعم الوكيل ذِكْر يكتب لنا أجره ، وحصن نلجأ إليه واثقين من حفظ الله لنا. قال النبي صلى الله عليه وسلم : {كان آخر قول إبراهيم حين ألقي في النار: حسبي الله ونعم الوكيل} رواه البخاري. وكانت

مكافأة ربنا لإبراهيم الذي توكل عليه في ذلك الموقف الرهيب: {قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْداً وَسَلَاماً عَلَى إِبْرَاهِيمَ} الأنبياء69.

استخيروا ربكم

ثم هنالك الاستخارة التي يصلي فيها المؤمن ركعتين لله تعالى وبعدهما يدعو الله أن يختار له الخير في أمر يريده لكنه يخشى أن لا يكون خيراً له ، فلنستخر الله كلنا كل يوم حتى تنفرج كربتنا ، نسأله إن كانت مقاومة النظام بالسلاح بأيدي المنشقين والمتطوعين معهم خيراً لنا ، أن يكتبها لنا وييسرها لنا ، وإن كانت شراً لنا ، أن يصرفها عنا ويصرفنا عنها ، وأن يكتب لنا الخير حيث كان ، وإليكم الدعاء مطبقاً على حالتنا لمن لا يحفظه اكتبوه على ورقة وادعوا به في استخاراتكم المتكررة:

(اللهم إننا نستخيرك بعلمك ونستقدرك بقدرتك ونسألك من فضلك العظيم فإنك تقدر ولا نقدر وتعلم ولا نعلم وأنت علام الغيوب ، اللهم إن كنت تعلم أن هذا الأمر (وهو إسقاط النظام السوري بقوة السلاح) خير لنا في ديننا ومعاشنا وعاقبة أمرنا وفي عاجل أمرنا وآجله فاقدره لنا ويسره لنا وبارك لنا فيه ، وإن كنت تعلم أن هذا الأمر شر لنا في ديننا ومعاشنا وعاقبة

أمرنا وفي عاجل أمرنا وآجله فاصرفه عنا واصرفنا عنه واقدر لنا الخير حيث كان ثم رَضِّنا به ولا حول ولا قوة إلا بالله).

أو الاستخارة على المحافظة على الثورة سلمية مئة بالمئة ، فنقول: (اللهم إننا نستخيرك بعلمك ونستقدرك بقدرتك ونسألك من فضلك العظيم فإنك تقدر ولا نقدر وتعلم ولا نعلم وأنت علام الغيوب ، اللهم إن كنت تعلم أن هذا الأمر (وهو إبقاء ثورتنا سلمية مهما صار حتى يسقط النظام) خير لنا في ديننا ومعاشنا وعاقبة أمرنا وفي عاجل أمرنا وآجله فاقدره لنا ويسره لنا وبارك لنا فيه ، وإن كنت تعلم أن هذا الأمر شر لنا في ديننا ومعاشنا وعاقبة أمرنا وفي عاجل أمرنا وآجله فاصرفه عنا واصرفنا عنه واقدر لنا الخير حيث كان ثم رضنا به ولا حول ولا قوة إلا بالله).

وتكرار الاستخارة مرات ومرات خير وأدعى للاستجابة ، فقد روى ابن السني في أعمال اليوم والليلة حديثاً عن أنس بن مالك رضي الله عنه يقول فيه النبي صلى الله عليه وسلم: {يا أنس إذا هممت بأمر فاستخر ربك فيه سبع مرات ، ثم انظر إلى الذي يسبق إلى قلبك فإن الخير فيه}. لذا من شاء فليكرر الاستخارة سبع مرات متتاليات في نصف ساعة ثم ينظر ما يحس به من ارتياح إلى عسكرة الثورة ودعم الجيش الحر أو إلى المحافظة على سلميتها التامة حتى النهاية.

لا يحل إلا الدفاع

ويبقى التساؤل بخصوص العسكريين الذين ينشقون عن الجيش السوري كل يوم ويتحولون إلى جيش حر يهاجم الجيش النظامي ويتحارب معه حرباً غير متكافئة ، فتتم في الغالب إبادة المنشقين دون رحمة ، ما الأسلوب الأمثل لهؤلاء ؟

ليس كل الجيش السوري تعرض إلى موقف أُمِرَ فيه بإطلاق النار على المتظاهرين والمدنيين ، وليس كل من انشق مر بهذه التجربة وإن كان ذلك هو المبرر المعلن للإنشقاق ، فهل هناك داع للتعجل بالانشقاق ؟ وهل قتال المنشقين لإخوانهم الذين لم ينشقوا صواب ؟ وهل هو من قبيل الدفاع عن النفس ؟

تأملوا هذا الحديث الشريف عن أبي بكرة نفيع بن الحارث رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار ، فقلت يا رسول الله: هذا القاتل فما بال المقتول ، قال: إنه كان حريصًا على قتل صاحبه" متفق عليه. وهنالك زيادة "فقتل أحدهما صاحبه" أخرجها أحمد في مسنده والنسائي في السنن ، وابن حبان في صحيحه ، والبيهقي في الكبرى ، وهي زيادة صحيحة ، والله أعلم.

لكن هنالك حديث يقول فيه النبي صلى الله عليه وسلم: (من قُتِلَ دون ماله فهو شهيد ، ومن قتل دون أهله فهو شهيد ، ومن قتل دون دينه فهو شهيد ، ومن قتل دون دمه فهو شهيد). رواه الإمام أحمد وصححه الألباني.

إني أرى والله أعلم أن لا ينشق العسكريون إلا إن تعرضوا شخصياً لأوامر بإطلاق النار على المواطنين ، ووقتها يمكنهم إطلاق النار في الهواء ، أو الانشقاق والهروب والمشاركة في المقاومة السلمية ، ولهم أن يقاوموا إذا هاجمهم الجيش أو الأمن ليعتقلهم أو يقتلهم ظلماً دون ذنب اقترفوه ، وعندها يكون موتهم دفاعاً عن النفس ، ويكونون شهداء ، ولا يشملهم قوله صلى الله عليه وسلم: {إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار}، أما إن هم تحولوا إلى المبادرة بمهاجمة الجيش النظامي أو الأمن واشتبكوا مع إخوانهم السوريين فقد يقعون تحت هذا الوعيد ويكون القاتل والمقتول في النار.

ولا مجال لمجادل يريد أن يكفر الذين يقاتلون تحت لواء الجيش النظامي ، فحتى لو كان فيهم كفار فإن شرع الله فيه الخير لكل مجتمع يطبقه حتى لو كان كافراً ، وقد هددت الدول الغربية أزمة اقتصادية مدمرة لم يخرجوا منها إلا باللجوء إلى تخفيض الفوائد المصرفية بحيث اقتربت من

الصفر وضخ الأموال في المجتمع تماماً مثلما يفعل الإسلام في تحريمه للربا وفرضه للزكاة.

من كان يريد مساعدة العسكريين المنشقين فليساعدهم على الهروب والاختباء في البراري والجبال لا بين الأهالي ، وليمدهم بالمال ليتمكنوا من البقاء ، أو ليساعدهم على الخروج من سورية لينجوا بأنفسهم ويفضحوا النظام ويفندوا أكاذيبه. الثورة بحاجة إلى البقاء سلمية وبحاجة إلى إعلام قوي وبحاجة إلى المال لكفاية الأسر المنكوبة. ولسنا في حاجة إلى الأسلحة نقتل بها بعضنا بعضاً.

الخيار الثالث

وعلينا الانتباه إلى أن الخيارات أمام الثورة ليست محصورة في إما التسلح والتدخل الخارجي أو محاورة النظام المتوحش الذي لا يحترم عهداً ولا ذمة ، فالذين يرفضون التحاور مع القتلة محقون لكن هنالك طريق ثالثة يمكن للثورة أن تمضي فيها وتنتصر بإذن الله.

إنها المقاومة السلمية والبعد عن الطائفية والمحافظة على استقلالية الثورة عن أية قوى دولية استعمارية يمكن أن تستخدم الثورة لتحقيق مآربها ومخططاتها. وعلينا الانتباه إلى أن هنالك صراع بين القوى العظمى على سورية كل منها لها أجندة ومخطط خاص تحاول تنفيذه مستغلة الأوضاع التي خلقتها الثورة وتعامل النظام الأحمق معها. فلنحذر أن يدفعونا إلى ما يحقق مآربهم ولا يحقق مصالحنا وأهدافنا في دولة ديمقراطية موحدة لكل السوريين ، كما علينا الصبر وعدم الانجرار إلى حيث يريد النظام من تحول الثورة إلى صراع طائفي ، فالنظام يستفزنا بأعماله البشعة لتثور فينا حمية جاهلية تجعلنا نتصرف بمنطق رد الفعل وبالتالي يتحكمون في أفعالنا من خلال أفعالهم التي تهدف إلى أشياء لا مصلحة لنا فيها.

كما علينا الحذر من فئة من العلويين تحلم بالانفصال وإنشاء دولة علوية ، ولا أستبعد أن يكون الشبيحة الذين يرتكبون المجازر بحق النساء والأطفال يعملون لحساب هؤلاء ويتلقون منهم أجورهم لا من النظام نفسه. في مثل هذه الفوضى يكثر اللاعبون ويسعى كل لتحقيق مخططاته ، ومن هؤلاء بعض العلويين المتطرفين الانفصاليين بينما أغلب العلويين نزعتهم قومية ووحدوية ولا يفكرون في الانفصال بدولة خاصة بهم.

القضية تحتاج إلى الصبر مع التوكل على الله ولا بد أن يكون النصر لنا بأقل الخسائر ودون أن يحقق الطغاة ما يريدون من تقسيم وإقامة

دويلات طائفية تكون بالنسبة لهم خيراً من أن يفقدوا كل السلطة التي أدمنوا عليها. ولو كانت الثورة عمل منظمة ثورية خططت للثورة ولها قيادات موثوقة ومتبعة ومسيطرة على الموقف وتستطيع عسكرة الثورة دون الانزلاق إلى الطائفية لربما اختلف الرأي والاجتهاد ، لكن تكوينة الشعب السوري وتدخل كل القوى الاستعمارية ، وارتجالية الثورة ، كل ذلك يجعل تحول الثورة إلى حرب طائفية لا مفر منه في حال عسكرتها. وهنالك بين السوريين أناس بلا ضمير يرتكبون أية جريمة من أجل إشعال الفتنة الطائفية التي يكون فيها لهم المجال ليصولوا ويجولوا ، فلنحذر ولنصبر مهما كانت جرائمهم فظيعة وبشعة ، فقتلانا شهداء في جنة الخلد والنصر سيكون لنا ولن نقع في الحفرة التي يعدونها لنا إن شاء الله.

النظام يخشى من التدخل الدولي كما حدث في ليبيا وترعبه الانشقاقات في الجيش لكنه يريد للثورة أن تحمل السلاح وتتحول إلى صراع طائفي ، لذا تلتقي رغباته مع الرغبة الإسرائيلية والأمريكية التي تحلم بتقسيم بلادنا ، وعلينا أن لا نساعدهم في ذلك ، بل بالصبر والتزام السلمية نفوت عليهم الفرصة ونحبط مخططاتهم ومؤامراتهم ونحقق أحلامنا نحن في دولة يسعد فيها أولادنا وينعمون بالحرية والكرامة والمساواة.

إسقاط النظام لا إسقاط الدولة

علينا أن نسعى إلى إسقاط النظام لا إلى إسقاط الدولة في سورية وتحول البلاد إلى فوضى مثل الصومال والعراق ، وعلينا أن نكون واقعيين ونرضى بحلول وسط إن كانت تجنب بلدنا الحرب الأهلية والتقسيم حتى لو لم تحقق لنا كل أحلامنا ، فالزمن قادم ونستطيع الاستمرار في الجهاد السلمي طالما كسرنا حاجز الخوف إلى أن تتحقق كل أحلامنا إن شاء الله. الأتراك من منطلق الحب لنا ومن منطلق التجاوب مع الرغبة الفرنسية التي اضطروا للخضوع لها ينصحون السوريين بقبول حل مماثل للحل اليمني ، لكن حالنا مختلف عن حال اليمن ، دون أن يعني ذلك استحالة وجود سيناريو ملائم لسورية لا يكون استنساخاً للسيناريو اليمني أو الليبي أو العراقي ، سيناريو يحقق لنا حداً أدنى مما نطمح إليه ويجنبنا السيناريو اللبناني الذي ذاق اللبنانيون مرارته في حربهم الأهلية بين عامي 1975 و1990. ولنحذر من وهم أن الجهاد المسلح ضد النظام سيحررنا منه وكذلك من الفتاوى الدينية التي تدعي أن دعم الجيش الحر بالمال والسلاح أو التطوع والقتال معه ضد النظام فريضة على السوريين هذه الأيام. تأملوا تاريخ الثورات المسلحة وكم طالت وكثرت ضحاياها قبل أن ينتصر بعضها وينهزم أكثرها ، كما إن الثورات المسلحة قلما تأتي بالديمقراطية لمجتمعاتها ، وأكثر التحولات إلى الديمقراطية كانت ثمرة ثورات سلمية {كلا ، لا تطعه واسجد واقترب}.

ويبقى إخواننا الأكراد وغالبيتهم من المسلمين السنة لكنهم تعرضوا للظلم على أساس قومي ولهم مطالبهم ، ولا بد لنا أن نكون مرنين معهم كي ينضموا بكل ثقلهم إلى الثورة ، ولا مانع من فيدرالية تقوم بالتفاهم والمحبة والتراضي ولا تكون ثمرة حرب أهلية تقتل الناس وتقتل الحب بينهم. كثير من دول العالم مكونة من اتحادات فيدرالية وأمورها طيبة ، لذا علينا بالحكمة والعدل وإن كنا نرفض رفضاً قاطعاً أية محاولة لتقسيم سورية ، لكن للوحدة أشكال والفيدرالية إحداها. الأكراد سوريون ولهم لغتهم وقوميتهم ومن حقهم أن يتمتعوا بحقوقهم الثقافية في إطار سورية موحدة تكون لكل السوريين.

المقال الخامس

دولتنا المنشودة

جمهورية سورية ديمقراطية تعددية

(سبق نشره بالاسم المستعار: الدكتور محمد ناصح عبد الله)

تمت كتابته في 2012/06/14 وتم تنقيحه وإعادة نشره في 2013/06/01

ونجعلهم أئمة

قال ربنا في كتابه الكريم: {وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ} القصص5، والإسلاميون مع غيرهم من الفئات التي استضعفت في بلدان العالم العربي على مدى عشرات السنين وكان مكانها المعتقلات والسجون ونصيبها القتل والتعذيب ، هم اليوم المرشحون قبل غيرهم ليكونوا أئمة الناس في بلدانهم ، وكلمة أئمة في القرآن والحديث تعني رؤساء الناس وحكامهم أكثر مما تعني أئمتهم في صلاة الجماعة.. الإسلاميون العرب اليوم أمام تحدٍ كبير لم تتح لهم ظروف القهر ومحاولة الاستئصال التي كانوا واقعين تحتها أن يستعدوا له ، وهو

كيف سيحكمون هذه الشعوب التي ثارت وقدمت الشهداء من أجل تحررها من الاستعمار الداخلي المتمثل بالطغاة والمستبدين الذين حكموها لصالح الاستعمار الخارجي الذي خرج منها ليترك بدلاً عنه وكلاءه وعملاءه يحققون له ما يريد. الإسلاميون الآن أمام استحقاقات تبدو متعارضة ومتناقضة ما لم نجد لها المخرج المناسب. قواعدهم التي تربت على أن الإسلام دين ودولة وقدمت التضحيات وهي تناضل لتحقيق حلم الدولة الإسلامية ينتظرون من قياداتهم التي بدأت تتسلم شيئاً من مقاليد السلطة أن تحقق لهم هذا الحلم الذي طال انتظاره. وبالمقابل جماهير الشعوب العربية المختلفة بتكويناتها المتنوعة عرقياً ودينياً وثقافياً تنظر لهم بقلق وتوجس ، فهي تخشى أن تتحرر من طغيان لا ديني لتقع تحت طغيان يقهر الناس باسم الإله.

نماذج الدولة الإسلامية

ثلاثة نماذج عرفها العالم المعاصر للدولة الإسلامية أولها الجمهورية الإسلامية في إيران حيث ولاية الفقيه وهيمنته على كل عناصر السلطة والقرار مما يفقد الديمقراطية لديهم الكثير من فعاليتها وحقيقيتها ، والنموذج الطالباني في أفغانستان الذي أعطى صورة بشعة للدولة الإسلامية بسبب تخلف الذين أقاموه في مجال فهمهم للإسلام وفي مجال العلوم المعاصرة ، فكانوا مثالاً منفراً من الدولة الإسلامية رغم طيبتهم وإخلاصهم وحسن نواياهم. ويبقى النموذج الثالث القائم للدولة الإسلامية وهو نموذج المملكة العربية السعودية ، وهو نموذج لا ترغب فيه الشعوب العربية ولا

تتطلع إلى تقليده ، لأنه نموذج ينتمي إلى زمن قديم ويتطور ليستوعب قيم المعاصرة والتحديث في المجالات الاجتماعية والسياسية ببطء لا يغري الشعوب بتقليده. ثم ظهر مؤخراً نموذج دولة العدالة والتنمية في تركيا الذي أثبت نجاحه وأثبت للناس أن الإسلام هو الحل حتى لو كان من دون شريعة.

أردوغان وحزبه كانوا واقعيين وعقلاء وأدركوا أنه لا أمل على المدى القريب والمتوسط في إعادة تركيا إلى حكم الشريعة الإسلامية ، وأنه لا بد من عمل شيء عاجل لتحسين معيشة الناس والنهوض بالبلاد اقتصاديا وعلمياً وسياسيا ، من خلال إعطاء الفرصة لترسُّخ قيم الديمقراطية والحرية في المجتمع التركي ، وحرمان الجيش التركي - الحاكم الحقيقي لتركيا - من أية مبررات أمام الأتراك وأمام الدول الغربية التي يعمل لإرضائها ، لإجهاض العملية الديمقراطية كما سبق له أن فعل كلما قوي نفوذ الإسلاميين هناك وصار يهدد العلمانية عندهم ، العلمانية التي اشترى بها أتاتورك استقلال تركيا عندما تهدد بشدة أثناء الحرب العالمية الأولى ، فضحى بالشريعة والإسلام ورضي العلمانية وتحجيم دور الدين في المجتمع ، مقابل أن يضمن الحلفاء استقلال تركيا وتخرج القوات البريطانية واليونانية من الأجزاء الكبيرة من تركيا التي وقعت تحت احتلالهما. ما يزال استقلال تركيا منقوصاً لأنه مشروط بعلمانية مفروضة عليها من خارجها وتحرسها قوى عسكرية ارتبطت مصالح أشخاصها باستمرار العلمانية رغم أنها مرفوضة من أغلبية الشعب التركي ، لكن تبقى القوة هي التي تفرض ما تشاء إلى أن يُعِدَّ الحق ما

استطاع من قوة ليزيل الظلم والطغيان. أردوغان الإسلامي الملتزم كان ذكياً جداً وأراد أن يتقي الله ما استطاع في مجال السياسة فأعلن قبوله للعلمانية ، وتقدم مع حزبه ليحكم تركيا بلا خيانة أو سرقة لخيرات البلاد ، فازدهرت تركيا ازدهاراً رائعاً في بضع سنين ، وتعاظمت شعبية حزب العدالة والتنمية في تركيا مما حماه حتى الآن من أن ينقض الجيش التركي عليه كما انقض على أحزاب إسلامية من قبله.

شعار الاسلام هو الحل يعبر عن حقيقة يؤمن بها أكثرنا ، لكننا لا ننتبه إلى أن الحل الإسلامي لمشكلاتنا لا يكمن في تطبيق الشريعة فقط ، بل في تربية الناس على الأمانة والخوف من الله ، بحيث يعملون لصالح البلاد والعباد لا لصالحهم الشخصي عندما يكونون في موقع المسؤولية ، وبحيث يتورعون عن أكل المال العام والرشوة تماماً كما يتورعون عن أكل مال الناس بالباطل ، عندها يبارك الله للأمة في خيراتها التي تتراكم بعد توقف الهدر والنهب لتنهض البلاد وتتطور على كافة الأصعدة ، وهذا ما حصل في تركيا رغم الغياب الكامل للشريعة الإسلامية عندهم ، ورغم أن قوانينهم علمانية لا دينية كالقوانين الأوربية تماماً.

قد يتمنى بعض الإسلاميين عندنا أن لو يستطيعون أن يفعلوا مثل ما فعل أردوغان وحزبه ، لكن لا أحد من القواعد الإسلامية عندنا سيقبل منهم ذلك ، وبخاصة ونحن نؤسس لحكم شعبي ديمقراطي يشارك فيه الجميع

ويكون لجميع مكونات الأمة. إن العلمانية التي رضي بها أردوغان وتكيف معها في تركيا هي عودة إلى الوراء بالنسبة لشعوبنا التي يغلب عليها التدين والحب للإسلام ، وستصبح هدفاً لأعداد لا تحصى من الشباب المجاهد الذي سيستحل قتل القائمين عليها والمنادين بها ، ولن تنجح في بلادنا أكثر مما نجحت الديكتاتوريات التي عانينا منها عشرات السنين وما زلنا نعاني منها في بعض بلداننا. فعندما زار أردوغان مصر والتقى باسلامييها ونصحهم بقبول الديمقراطية مع العلمانية كرزمة واحدة كان واضحاً رفض القواعد الإسلامية لنصيحته.

إذن ما العمل ؟

الشعوب العربية المنتفضة لا تريد أياً من النماذج الإسلامية المطروحة أمامها لا الإيراني ولا الطالباني ولا السعودي ولا حتى التركي ، والإسلاميون اليوم أمام فرصة لقيادة شعوبهم نحو حياة أفضل سيكون من الغباء أن يضيعوها وإن كانوا مدركين أن الوقت لم يزل غير مناسب لا على مستوى الشعوب العربية ولا على مستوى المؤثرات الدولية التي ما زالت لها كلمتها في تحديد مصير بلادنا لتطبيق الشريعة الإسلامية. لا بد لنا من مخرج لا نضحي فيه بديننا كما لا نضحي من أجله بشعبيتنا وتطلع الجماهير العربية إلى الخلاص من واقعها الأليم على أيدينا.

مقالي هذا هو لوصف هذا المخرج وإن كنت سأؤجل التفصيل في تأصيل ما سأقترحه إلى القسم الثاني من هذا الكتاب الذي أخصصه للتأصيل المفصل لمن يرغب في معرفة الأسس التي تقوم عليها الأفكار والتصورات التي سأقدمها في هذا المقال. (صدر التأصيل بعون الله بكتاب مستقل اسمه "الميزان: تجديد نظرية الإسلام السياسية")

أولاً سأقدم تصوري للدولة الإسلامية التي يجب أن نسعى إليها لو كنا نعيش في مجتمع جميع أهله مسلمون ومتدينون ومن مذهب واحد.

مفتاح الحل يكمن في إعادة الاهتمام بكلمة وردت مرات عديدة في القرآن الكريم نتلوها ونمر عليها دون تدقيق في معناها وكأنها واضحة لنا وضوح الشمس ولسنا في حاجة إلى التمعن فيها. إنها (الحكمة) التي يقول تعالى إن الرسول صلى الله عليه وسلم والرسل الذين جاؤوا قبله إنما جاؤوا ليعلموها للناس مع الكتاب ، ولنتأمل هذه الآيات الكريمة:

{رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ العَزِيزُ الحَكِيمُ} البقرة129

{كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ} البقرة151

{.... وَاذْكُرُواْ نِعْمَتَ اللّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنزَلَ عَلَيْكُمْ مِّنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِ وَاتَّقُواْ اللّهَ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} البقرة231

{وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ} آل عمران48

{لَقَدْ مَنَّ اللّهُ عَلَى الْمُؤمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ} آل عمران164

{أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللّهُ مِن فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكاً عَظِيماً} النساء54

{وَلَوْلاَ فَضْلُ اللّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مُّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيْءٍ وَأَنزَلَ اللّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللّهِ عَلَيْكَ عَظِيماً} النساء113

{إِذْ قَالَ اللّهُ يَا عِيسى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ...} المائدة110

{وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفاً خَبِيراً} الأحزاب34

{هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ} الجمعة2

الكتاب والحكمة

إذن الرسل جاؤوا ليعلموا الناس شيئين اثنين (الكتاب) و(الحكمة)، الأول: الكتاب وهو ما يكتب عليهم من فرائض ومحرمات وعقائد، والحكمة هي ما يمكنهم الوصول إليه بأنفسهم من خلال العلم والتفكير السليم والخبرة الحياتية الطويلة لكن الرسل يقدمون للبشرية دفعة وجرعة من هذه الحكمة تسرع تقدمها وتطورها نحو حياة أفضل لجميع أبنائها. وهكذا نجد أن ما جاء به الرسل بما فيهم محمد صلى الله عليه وسلم نوعان من الأمور: نوع ما كان للبشر أن يكتشفوه بأنفسهم مهما طال بهم الزمن والتجارب وهو معرفة الغيبيات ومعرفة ربنا وصفاته وأسمائه ومعرفة الأوامر التي يريدنا الله أن نعبده بطاعتنا لها ومعرفة أخبار من قبلنا الذين اندثرت آثارهم وصار يستحيل علينا بعلومنا المحدودة أن نعرفها معرفة يقينية وغير ذلك مما جاء في القرآن والسنة، أما النوع الثاني فهو الكثير من الارشادات والنصائح والتعليمات المفيدة لنا في حياتنا من أجل دنيانا ومن أجل آخرتنا، لكن كان من الممكن لنا أن نكتشفها بأنفسنا.

من علمائنا القدامى من فسر الحكمة الواردة في الآيات السابقة بالسنة النبوية على اعتبار أن الكتاب هو القرآن الكريم ، لكن هذا تأويل وصرف للفظ الحكمة عن ظاهره ومعناه المباشر دون داعٍ وبخاصة أن القرآن الكريم جاء بلغة العرب التى هي أقدر اللغات على التعبير الدقيق الذي لا يلتبس على الأفهام {إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ} يوسف2. الحكمة هي الحكمة والأمانة هي الأمانة.. إن استقام لنا فهم كلام ربنا دون صرفه عن ظاهره فإنه لا يصح أن نتأوله ونفسره بغير المعنى القريب المباشر لألفاظه.

وهذا يعني أنه ليس كل ما أمر به الرسول صلى الله عليه وسلم هو دين مفروض علينا نأثم بمخالفته ويتوجب علينا تنفيذه والتقيد التام به ، فالرسول صلى الله عليه وسلم عندما يأمر أصحابه أن يطفئوا السراج إذا ناموا ويحذرهم أن الفأرة قد تصدمه وتقلبه فيشتعل حريق خطير وهم نائمون ما كان يشرع لهم دينا بالمعنى الحرفي للدين ، إنما كان يقدم لهم شيئاً من الحكمة المفيدة لهم ويعلمهم كيف يفكرون التفكير السليم بأمور معاشهم ، لذا أخطأ صلى الله عليه وسلم عندما أبدى رأيه في تأبير النخل (أي تلقيحه) حتى يثمر فعمل الصحابة برأيه وتركوا تأبير النخل فلم يثمر ، فأخبرهم بعدها أن ما يحدثهم به عن الله حق هو معصوم فيه من الخطأ ، حيث قال فيما رواه مسلم في صحيحه: "إن كان ينفعهم ذلك فليصنعوه ، فإني إنما ظننت ظناً ، فلا تؤاخذوني بالظن ، ولكن إذا حدثتكم عن الله شيئاً فخذوا به ، فإني لن أكذب على الله عز وجل". وفي رواية أخرى أنه قال: "إنما أنا بشر ، إذا أمرتكم بشيء من دينكم فخذوا به ، وإذا أمرتكم بشيء من رأي فإنما أنا بشر". أما أمور دنياهم فهم أعلم بها منه كما قال في رواية ثالثة.

مع ذلك جاء الإسلام بفرائض وتحريمات تحقق للناس منافع ومصالح كان يمكن لهم عندما تتقدم علومهم ومعارفهم أن يكتشفوها بأنفسهم، ومثال ذلك تحريم الربا وفرض الزكاة.. إنني أدعوكم للتأمل في الأزمة الاقتصادية العالمية الحالية وكيف تحاول البشرية حلها والتغلب عليها من خلال تشريعات وإجراءات ليست إلا صورة من صور الزكاة وتحريم الربا. الفوائد المصرفية في أوربا ما تزال بحدود نصف بالمئة، أي تقترب من الإلغاء، والحكومات تضخ الأموال لتنعش قدرة الناس الشرائية لتحمي الكثير من الشركات والمصانع من الإفلاس الحتمي لو زاد الركود عن حد معين وقل تصريف البضائع، وهو الشيء ذاته الذي تفعله الزكاة في الإسلام حيث ترفع قدرة الناس الشرائية ليعود المال الذي ينفقه الأغنياء بالنفع عليهم وعلى مشاريعهم التجارية والصناعية.

تحريم الربا وفرض الزكاة شيئان نافعان كان يمكن للبشرية أن تصل إليهما بنفسها، لكن الخالق الرحيم أراد أن يحمينا معشر المؤمنين به والطائعين له من أن نتعلم من كيسنا -كما يقول المثل - ومن أن ندفع الأثمان الباهظة قبل أن نكتشف تلك الحقائق، فشَرَّعها في دينه وفرضها علينا وجعل التزامها عبادة يختبر بها طاعتنا له فيثيبنا عليها، فأهواءنا قد تعمي أبصارنا ونتجاهل أضرار بعض الممارسات وننغمس فيها بقصد المنفعة الشخصية العاجلة لنقود المجتمع كله إلى الأزمات والمعاناة. الفرائض والتحريمات في دين الله لها غايتان لا تتعارضان، الأولى: أنها تعبدية لاختبار

طاعة المؤمنين لربهم وعدم استكبارهم عن تنفيذ أوامره ، والثانية: إصلاح أحوالهم المعيشية ، ولنأخذ مثالاً الخمر والميسر.

قال تعالى: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللّهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ} البقرة219.. ونحن نعلم من السيرة أن هذه الآية لم تحرِّم الخمر والقمار مع أنها بينت أن أضرارهما أكثر من منافعهما ، ونعلم أن كثيرين من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم استمروا في تعاطي الخمر ولعب القمار رغم الآية الكريمة لأنهم كانوا مدمنين ، والمدمن يجد صعوبة في الإقلاع عما أدمن عليه ، وقد مضى زمن ليس بالقصير قبل أن تنزل آية أخرى تحرم الخمر والميسر بشكل نهائي وقاطع.

كان الناس في حاجة إلى التحريم الذي يفرضه ربهم الرحمن عليهم دون انتظار أن يصلوا إليه يوماً ما بأنفسهم ، وذلك من أجلهم ومن أجل مصلحتهم الدنيوية قبل مصحلتهم الأخروية. والله لم يحرم علينا إلا الخبائث التي أضرارها أكبر من منافعها ، واعتبر التزامنا بهذا التحريم الذي هو من أجلنا ولحمايتنا ، عبادة له يعطينا عليها الجنة ، مع أننا إن كنا عقلاء سنمتنع عن هذه المحرمات من أنفسنا لأننا مفطورون على الحرص على ما ينفعنا. قال تعالى: {الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَآئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ

عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُواْ بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُواْ النُّورَ الَّذِيَ أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} الأعراف157.

لكن من رحمة ربنا ولثقته بنا وبحكمتنا لم يكثر علينا من الفرائض والتحريمات ، بل سكت عن الكثير من الأمور وتركها لنا ولحكمتنا ، أي الكثير من الأمور بقيت معلقة في مرحلة {وإثمهما أكبر من نفعهما} حيث تفرض علينا عقولنا بما جبلت عليه من حكمة أن نبتعد عنها دون أن يكون وقوعنا فيها مدعاة للعقاب في الآخرة ، إذ تكفينا العقوبة الحتمية التي تقع علينا عندما نرتكب تلك الأمور التي ضُرُّها أكبر من نفعها ، فالذي يدخن التبغ من أجل المتعة عقوبته حتمية من خلال الضرر الصحي الذي يصيبه نتيجة التدخين دون أن يكون للتدخين حكم شرعي من تحليل وتحريم.

وإثمهما أكبر من نفعهما

نعود إلى قوله تعالى: {وإثمهما أكبر من نفعهما} لنتبين أصلاً عظيماً من أصول ديننا لم ينتبه له القدماء وهو مجيء لفظ إثمهما كضد لنفعهما ، أي جاء لفظ الإثم مكان لفظ الضر حيث الضر هو الذي ضد النفع ، وهذا يعني أن الإثم والضّر يحل كل منهما محل الآخر في الإسلام ، وبالتالي لم يحرم علينا ربنا إلا ما هو ضار لنا ولا يمكن أن يحرم علينا شيئاً نفعه أكبر من ضره. وهكذا نجد الإسلام دين الفطرة والعقل والمنفعة بخلاف باقي الأديان

التي قد تمتحن الناس بتحريمها عليهم بعض ما ينفعهم أو بفرضها عليهم بعض ما يضرهم.

ولا عجب إن لم نجد في القرآن والحديث الشريف مفهومي الخير والشر كمفهومين مطلقين كما هو الحال في الأديان والمعتقدات الأخرى. لا شيء هو خير أو شر بشكل مطلق ، بل هنالك ما هو خير لنا من حيث غلبة المنفعة لنا فيه على المضرة وهنالك ما هو شر لنا من حيث غلبة الضرر فيه لنا على النفع. هنالك خير وشر بالنسبة لنا نحن البشر حيث الخير هو النفع وحيث الشر هو الضرر ، أما بالنسبة إلى الله فالأمور كلها متساوية لأنه لا شيء قادر على نفعه ولا شيء قادر على ضره فهو الصمد الغني القدير.

يقول ابن حجر في فتح الباري: واخرج الدارقطني من حديث أبي ثعلبة رفعه «إن الله فرض فرائض فلا تضيعوها ، وحد حدوداً فلا تعتدوها ، وسكت عن أشياء رحمة لكم غير نسيان فلا تبحثوا عنها» وله شاهد من حديث سلمان اخرجه الترمذي ، وآخر من حديث ابن عباس أخرجه أبو داود. وقد روي معنى هذا الحديث مرفوعا من وجوه أخر ، أخرجه البزار في مسنده والحاكم من حديث أبي الدرداء عن النبي صلى الله عليه وسلم ، قال: (ما أحل الله في كتابه فهو حلال ، وما حرم فهو حرام ، وما سكت عنه فهو عفو ، فاقبلوا من الله عافيته ، فإن الله لم يكن لينسى شيئا ثم تلا هذه الآية : وما كان ربك نسياً (مريم : 64)) ، قال الحاكم: صحيح الإسناد ، وقال البزار: إسناده صالح.

وقال صلى الله عليه وسلم فيما رواه البخاري: «الحَلالُ بَيِّنٌ ، وَالحَرامُ بَيِّنٌ ، وَبَيْنَهما مُشَبَّهاتٌ لا يَعْلَمُها كثيرٌ منَ الناسِ. فمنِ اتَّقى المُشَبَّهاتِ اسْتَبْرَأَ لِدِينهِ وعِرْضِه ، ومَنْ وَقَعَ في الشُّبُهاتِ: كراعٍ يَرْعَى حَوْلَ الحِمى يُوشِكُ أنْ يُواقِعَه. ألا وإنَّ لِكلِّ مَلكٍ حِمى ، ألا إنَّ حِمَى اللهِ فِي أرضِهِ مَحارِمُه. ألا وإنَّ في الجَسَدِ مُضْغَةً: إذا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسدُ كلُّه ، وإذا فَسَدَتْ فَسَدَ الجسَدُ كله ، أَلا وهِيَ الْقَلْبُ». وقال أيضاً: {الحلالُ بيِّنٌ ، والحرامَ بينٌ وبينهما أمورٌ مُشتبهة. فمَن ترَكَ ما شُبِّهَ عليهِ منَ الإثمِ كان لِما استبانَ أتْرَكَ ومنِ اجْتراَ على ما يَشُكُّ فيه منَ الإثمِ أوْشَكَ أن يُواقِعَ ما اسْتبانَ. والمعاصِي حمى الله ، مَن يَرْتعْ حَولَ الحِمى يُوشِكْ أن يُواقِعَه}.

وقال تعالى: {... الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً...} المائدة3

أي الدين كامل بما هو بَيِّنٌ من حرام وحلال بموجب النصوص القرآنية والحديثية قطعية الثبوت وقطعية الدلالة ، وما سوى ذلك لا داعيَ للبحث عن حكم شرعي له إنما هو مما سكت الله عنه رحمة بنا ، وتركه لحكمتنا وعقولنا التي ركب فيها حبنا لما هو نافع وكرهنا لما هو ضار ، وهذا ما يجب أن نتقيد به إن أمكننا أن نقيم دولة إسلامية صافية دينياً. أي ندعو الناس إلى الحلال البَيِّن وننهاهم عن الحرام البَيِّن ولا نقحم الدين فيما سوى

ذلك من أمور مستجدة أو قديمة سكت عنها الشرع وتركها لنا نختار فيها الخير ونتجنب الشر.

روى الترمذي في سننه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: {مَنْ سَلَكَ طَرِيقاً يَبْتَغِي فِيه عِلْماً سَلَكَ الله له طَرِيقاً إِلَى الْجَنَّةِ ، وَإِنَّ المَلاَئِكَةَ لتَضَعُ أَجْنَحِتَهَا رِضًى لِطَالِبِ العِلْمِ ، وَإِنَّ العَالِم لَيَسْتَغْفِرُ لَهُ مَنْ في السَّمَوَاتِ وَمَنْ في الأَرْضِ حَتَّى الْحِيتَانُ في المَاءِ ، وَفَضْلُ العَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ ، كَفَضْلِ الْقَمَرِ عَلَى سَائِرِ الْكَوَاكِبِ ، إِنَّ العُلَمَاءَ وَرَثَةُ الأَنْبِيَاءِ ، إِنَّ الأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَاراً وَلاَ دِرْهَماً ، إِنَّمَا وَرَّثُوا الْعِلْمَ ، فَمَنْ أَخَذَ بِهِ فَقَدْ أَخَذَ بِحَظٍ وَافِرٍ}. وهكذا يكون علماء الدين ورثة لمحمد صلى الله عليه وسلم في أمور الكتاب ويكون علماء الدنيا من طب ونفس واجتماع واقتصاد وسياسة وغيرها من العلوم ورثة النبي صلى الله عليه وسلم في أمور الحكمة. رسالته تألفت من الكتاب والحكمة وورثته صنفان الأول يرث دوره في تبليغ الكتاب والثاني يرث دوره في النهوض بحياة الأمة وقدراتها في مجال الحكمة.

الدين والدولة

صحيح أن هنالك الكثير من أمور الحكمة صارت من الكتاب عندما فرضها أو حرمها الله ورسوله بشكل بيّن كالخمر والميسر والربا ، لكن باقي الأمور الحياتية التي لم يرد فيها نص (آية أو حديث شريف) قطعي الثبوت

قطعي الدلالة تبقى في دائرة العفو المتروك لعقولنا وحكمتنا وعلمنا واكتشافنا ، دون تحليل أو تحريم. أي ما ثبت بالدليل القطعي أنه فرض أو أنه محرم هو الذي نأثم إن خالفناه أما ما سوى ذلك فعقوبتنا عليه تكمن في العاقبة غير السارة لأفعالنا غير المناسبة ، ولا دور لعلماء الشريعة في الإفتاء فيها. وسيكون على علماء الدين القيام بما يسمى تحقيق المناط مثل التأكد من أن عملية مالية مستجدة ليست صورة من صور الربا المحرم كالتَّوَرُّق الذي تمارسه المصارف الإسلامية ، ومثل التأكد هل المسابقات التي تجريها بعض الجهات عن طريق قيام الناس بالاتصال الهاتفي بها اتصالاً يكلفهم أضعاف الكلفة الحقيقية وتستوفي هذه الجهة الجزء الأكبر من هذه الرسوم بعد أن تقتطع شركة الهاتف رسوم الاتصال وعمولتها على تحصيل الأموال التي تذهب إلى الجهة المنظمة لهذه المسابقة والتي في النهاية تجري سحباً أو قرعة ليفوز أحد الذين اتصلوا بجائزة كبيرة واضح أنها تكون من المال الذي جمعته هذه الجهة من المتصلين ليبقى لها ربح كبير ، فيبحث العلماء هل هذه المسابقة صورة من صور الميسر والقمار المحرم أم لا. سيسهر العلماء على تطبيق الشريعة كما جاء بها محمد صلى الله عليه وسلم قبل أن يقوم الفقهاء بتوسيعها لتغطي كل شأن من شؤون الحياة وتعطيه حكماً شرعيا يكون بالضرورة حكماً اجتهادياً يغلب أن يختلف فيه الفقهاء وتتعدد أحكامهم تعدداً يحير الناس هل الأمر حلال أم حرام.

وهذا يعني أن دور علماء الدين في الدولة الإسلامية يجب أن يبقى محصوراً في تعليم الناس دينهم وحثهم على الالتزام بما ثبت أنه حلال بَيّن

أو حرام بين ، دون أن يبحثوا عن حكم شرعي لكل أمر ، فالخمر والميسر بين الله أن أضرارهما أكبر من منافعهما لكن تركهما دون حكم شرعي يحرمهما مرحلة من الزمن ريثما تم إعداد الناس لتحريمهما بحكم أنهما مما تدمن النفوس عليه من عادات يصعب عليها تركه بمجرد أمر ينزل حتى لو كان من رب العالمين. وأعطي مثالاً التدخين مرة أخرى حيث يكون دور علماء الدين بخصوصه هو نصح الناس وتوعيتهم لا البحث عن حكم شرعي بتصنيف التدخين على أنه حرام يأثم من يقع فيه إثماً دينياً. هذه ليست دعوة إلى التدخين لكنها دعوة لحصر دور علماء الدين ودور الشريعة الإسلامية في ما ثبت تحريمه أو فرضيته ثبوتاً قاطعاً دون أن نقيس ما يستجد على ما ذكر في القرآن والحديث ، بل نتركه خارج دائرة الحلال والحرام ، أي خارج دائرة الدين لنكون نحن أعلم بأمور دنيانا. وهذا يعني تحرر الدولة الإسلامية من هيمنة رجال الدين عليها وتدخلهم في كل صغيرة وكبيرة فيها بحجة أنهم هم من يعلم حكم الشرع فيها.

خليفة لا جندي

وهذا التصور للدولة الإسلامية هو التصور الذي يتفق مع خلق الله للإنسان وجعله خليفة له في الأرض ، قال تعالى: {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُواْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ} البقرة30 ، ونلاحظ هنا أن الملائكة اعتقدوا أنهم أجدر من البشر بدور الخلافة عن

الله ، وفاتهم أن هذا الدور مختلف عن دور الجندية الذي خلقوا له حيث لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ، أما الإنسان المُسْتَخْلَف عن الله فدوره يشمل تحقيق صفات الله في نفسه وأولها الإبداع والاستقلالية ومنها العلم والكرم والاقتدار والرحمة والانتقام والعدل والصبر وغير ذلك مما هو مبين في أسماء الله الحسنى التي من أحصاها دخل الجنة.

الله ليس كمثله شيء في حقيقته لكنه من رحمته بنا اختار لنفسه صورة تشبهنا قدم لنا نفسه من خلالها ، لأننا لا يمكننا أن نشعر بالحب المتبادل مع كائن لا نضفي عليه في خيالنا صفاتنا البشرية ، لنشعر بالحب والود له ، ولنكون خلفاءه في الأرض نتخلق بأخلاقه ونحقق في أنفسنا صفاته بالقدر الذي نتمكن منه ككائنات صغيرة جداً ومحدودة الإمكانات لكنها مُكَرَّمة عند الله. والمشكلة هي في عدم انتباه المسلمين الأوائل لأن الله خلقنا خلفاء نعبده ونحن نتشبه به بكل صفاته وأخلاقه وإن كان قد حرم علينا منها العظمة والكبرياء ، وظنوا أن الإنسان خلق لعبادة الله على الطريقة الملائكية حيث الالتزام الحرفي بأوامر الله في كل شيء ، وبالتالي ظنوا أن لا بد أن يكون لكل شيء حكم شرعي من حلال أو حرام أو مكروه أو مستحب ، وبفهمهم هذا للإسلام حولوا الإنسان الذي خلقه الله على صورته وجبله على طبائع تدفعه إلى أن يكون خليفة لله في أرضه إلى جندي ينفذ ولا يعترض ، فالخليفة هو النائب والوكيل عمن استخلفه ، يتصرف مثلما كان من وكله سيتصرف لو كان حاضراً ، والله استخلفنا في الأرض استخلاف اختبار وامتحان لا استخلاف استعانة فهو الغني عنا ونحن الفقراء إليه.

هذه أمور وغيرها سأفصل تأصيلها إن شاء الله في القسم الثاني من هذا الكتاب لكن لا بد من بعض البيان لها لأنها جديدة وغير مألوفة لأكثرنا.

شريعة وحكمة

في الدولة الإسلامية المعاصرة ينحصر دور الشريعة في الأحكام الثابتة ثبوتاً قطعياً لا خلاف فيه بين المسلمين، وتترك باقي الأمور للمسلمين يبحثون من خلال العلوم المختلفة عن ما هو خير ليفعلوه وما هو شر ليجتنبوه دون أن يعطى له حكم شرعي من تحليل وتحريم. ومن الأمور القطعية في ديننا من حيث الثبوت والدلالة قوله تعالى: {لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لاَ انفِصَامَ لَهَا وَاللّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ} البقرة256، وهذا يعني أن الأمة المسلمة لا يتم إكراهها على تطبيق الثابت من الشريعة إنما للأمة الحق أن تقرر من خلال الديمقراطية إن كانت ستقطع يد السارق أم ستسجنه، ويبقى الإثم من تعطيل الحكم الشرعي على من صوَّت ضد هذا الحكم، ولا إثم على من صوَّت لصالحه حتى لو كانت الأغلبية ضد تطبيقه وتعطل في هذه الدولة، فواجب المؤمن هو في إعطاء صوته لصالح تطبيق أحكام الشريعة لا إكراه الناس عليها بالقوة: {قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّيَ وَآتَانِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا

كَارِهُونَ} هود28. لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي ومن يريد الجنة عليه التزام طريق الرشد ومن يسير في طريق الغي يعرض نفسه في الآخرة لنار وقودها الناس والحجارة.

لكن كما هي الديمقراطية يكون فيها تَحَكُّم الأغلبية بالأقلية ، ويُفْرَض فيها على الجميع ما اختارته الأغلبية ، فإن دولة الإسلام القائمة على اللا إكراه في الدين يتوجب فيها على الأقلية الرافضة لتشريع ما أن تخضع له إن نال أغلبية عند التصويت عليه ، ولا مخرج للأقلية من اللالتزام بما تعارضه إلا بالخروج من الأمة والانتماء إلى أمة أخرى لا تلتزم بهذا التشريع. فمن حرص على الانتماء إلى أمة لا بد عليه من اللالتزام بما تفرضه الأغلبية فيها سواء قررت الأغلبية تطبيق حكم شرعي معين أو تعطيله ، وكل فرد يتحمل من الإثم ويكون له من الأجر بحسب موقفه عندما طرح التشريع لتصوت الأمة على تطبيقه أو عدم تطبيقه.

في الدولة التي جميع أفرادها ينتمون إلى أمة واحدة هي الأمة الإسلامية وإلى مذهب واحد هو المذهب السني مثلاً ولا يعيش معهم على نفس الأرض أمة أخرى كأتباع دين آخر أو مذهب آخر أو أناس لا دينيون ، في هذه الدولة إن كانت ديمقراطية لا بد من خضوع الأقلية لرأي الأغلبية أحبوا ذلك الرأي أم كرهوه ، لأنه لا تكون الديمقراطية إلا هكذا ، ولأنه لا يتحقق مبدأ اللا إكراه إلا من خلال الديمقراطية ومن خلال جعل السيادة أو

ما يسمى الحاكمية للأمة تمارسها من خلال الآليات الديمقراطية. كما لا تتحقق خلافة البشر لله في أرضه إلا من خلال مبدأ اللا إكراه في الدين واللا إكراه في غير الدين ، حتى يقوم الإنسان بعبادة الله طوعاً وبرغبته وإرادته دون ضغط أو إجبار من أحد.

في الدولة الإسلامية المعاصرة لا إكراه في الدين ولا يعاقب أحد على الكفر أو على رأيه المخالف في العقيدة أو الفقه وله أن يعبر عنه كما يشاء ، طالما أنه لم يحاول فرضه على الناس ولم يعتد بالسب أو التحقير أو الاستهزاء والسخرية على ما يقدسونه ، فحد الردة ليس حداً ثابتاً وحكماً قائماً إلى يوم القيامة ، بل هو استثناء لمبدأ لا إكراه في الدين مخصوص بقوم معينين وزمان ومكان محددين كما بينت في مقالي الثالث (الطائفية والثورة في سورية) وكما سأفصل إن شاء الله في قسم (التأصيل) من هذا الكتاب. سيكون الناس أحراراً في الدولة الإسلامية المعاصرة حرية كاملة لا تقل عن الحرية التي يتمتع بها الناس في الدول الغربية ، ولن تتدخل الدولة في لباس النساء أو حجابهن كما بينت في مقالي الأول ، كما لن يُرْجَم من يزني ، بل سنعود إلى الحد الذي شرعه ربنا في سورة النور وهو جلد الزاني والزانية مئة جلدة ، حيث نسخ به الحكم القديم الذي كان رجم الزاني والزانية إن سبق له أو لها الزواج رجماً حتى الموت. سيصحح المسلمون أخطاءً فقهية وقع فيها أسلافهم ، لا إرضاء للغربيين ودعاة حقوق الإنسان ، بل لأن هذا هو الدين الحق ودين الرحمة والإنسانية. الإسلام عندما يجلد الزاني ، هو لا يجلده لمجرد أنه زنى ، بل يجلده لأنه جاهر بالزنا إما بالإقرار بالزنا أمام الناس

والقاضي أو بممارسة الفعل الجنسي في العلن بحيث يرى أربعة رجال العملية الجنسية ذاتها دون شك بحدوثها وهذا ما لا يتحقق إلا في المسارح التي يمارس عليها الممثلون الجنس أمام الجمهور أو الأفلام الجنسية أو ما شابه من المجاهرة والاستهتار ، فالإسلام لا يريد القضاء على الزنا بواسطة الحد الشرعي بل عن طريق التربية على التقوى والفضيلة وتيسير الزواج ، ويبقى الحد لحماية المجتمع من أن يتحول الزناة إلى قدوة ونموذج للآخرين فتشيع الفاحشة في المؤمنين.

وكذلك حد شرب الخمر سيعاد النظر فيه لنعود به لما كان على عهد الرسول صلى الله عليه وسلم عقوبة تعزيرية على السُّكْر والخروج بين الناس سكراناً يؤذيهم بصخبه وعدوانيته وقلة حيائه وشعوره بالعظمة الوهمية التي يعطيها له الخمر ، حيث كان الرسول صلى الله عليه وسلم يأمر أصحابه أن يضربوا السكران بما تيسر لهم ضرباً يوقظه من سكره ويكسر كبرياءه الزائفة فيشعر بالذل بدل العظمة ويكون ذلك له درساً يؤدبه حتى إذا شرب الخمر مرة أخرى استتر عن عيون الناس وكفاهم أذاه ولم يكن قدوة ونموذجاً لغيره يتعلمون منه هذا السلوك المحرم.

هنالك حدود وأحكام ثابتة لن نتنازل عنها إرضاء لأحد أو حرصاً على إعجاب أحد بنا مثل قطع يد السارق ، فنحن متعبدون بتطبيقها ولن نخشى في الله لومة لائم ، لكن لن نُكْرِهَ أمة عليها بل تُسْتَفْتى الأمة ، فإن رغبت

الأغلبية فيها بتطبيق هذا الحكم طبقناه على الجميع ، وإن رفضت الأغلبية تطبيقه سقط عنا الإثم وبقي علينا واجب محاولة إقناعهم بالتطبيق عن طريق الحوار ودون عنف أو إكراه. لا بد داخل الأمة الواحدة من أن تخضع الأقلية للأكثرية ، والبشرية لم تتوصل إلى نظام أفضل من الديمقراطية لتحقق للناس أكبر قدر من الحرية واللا إكراه دون التحول إلى الفوضى وقانون الغاب.

الديمقراطية وطغيان الأكثرية

هذا إن كان سكان الدولة جميعهم أمة واحدة ، أي طائفة واحدة ، لكن ، عندما تتعدد الأمم في دولة واحدة يختلف الأمر ، وهو حال دول مثل سورية يتكون أهلها من أمم مختلفة نسميها طوائف حيث فيها السنة والعلويون والدروز والإسماعيليون والمسيحيون والشيعة الجعفرية وفيها الملحدون والعلمانيون واليساريون وغير ذلك من طوائف وأديان ومذاهب. أقول أمماً مختلفة وأنا أعود إلى الكلمة التي وصف بها النبي صلى الله عليه وسلم الطوائف المختلفة في الدولة التي أسسها في المدينة المنورة وكتب وثيقة مفصلة تحفظ حقوق الجميع هي بحق أول دستور في التاريخ. نعم السوريون كلهم يشكلون أمة واحدة هي أمة السوريين ، والمُواطَنة في سورية ستكون على أساس كون الشخص سورياً بغض النظر عن جنسه أو قوميته أو عقيدته. السوريون أمة كبيرة تتكون من أمم أصغر متنوعة ومختلفة.. هنالك طريقتان ليتمتع فيها جميع السوريين بالمساواة فلا تفرض

فئة منهم قناعاتها ومتقداتها على البقية حتى لو كانت هذه الفئة هي الأغلبية عددياً وهما: العلمانية وحصر الأديان في العلاقة الشخصية بين المؤمنين وربهم ، أو التعددية التي تتحقق على كافة المستويات سواء منها الثقافية أو السياسية أو التشريعية على أساس مبدأ اللا إكراه.

فالأولى أن تكون الدولة علمانية لا تسمح بتدخل الأديان في تنظيم شؤون البلاد وفي تشريع القوانين ويتم حصر الدين في الحياة الفردية كما هو الحال في أوربا وحتى في تركيا التي أغلب سكانها مسلمون ، وهذه هي الطريقة التي حلت بها أوربا مشكلتين فيها: مشكلة تسلط رجال الدين على المجتمع إلى حد تدخلهم في الآراء العلمية وإعدام العلماء الذين لا يتراجعون عن آرائهم العلمية التي لا توافق عليها الكنيسة ، ومشكلة اضطهاد اليهود الذين كانوا يعيشون في المجتمعات الأوربية ويتعرضون للتمييز والظلم بسبب اختلاف دينهم عن دين البقية ، وبذلك تم إبداع مفهوم المُواطَنة الذي يعني أن جميع أبناء الوطن لهم الحقوق نفسها وعليهم الواجبات ذاتها بغض النظر عن أديانهم ومعتقداتهم ، وأدى ذلك إلى ربط المواطنة بالعلمانية حيث لم يكن ممكناً المساواة بين الجميع بما فيهم الذين تركوا الأديان ما لم يتم استبعاد الأديان من دائرة التأثير في الحياة العامة والتشريعات والسياسات المتبعة في البلاد.

المواطنة من أجل المساواة

السوريون الآن ينادون بالمواطَنة كي يكون لكل سوري من الحقوق ما لغيره وعليه من الواجبات ما على غيره لمجرد أنه سوري بغض النظر عن جنسه أو عرقه أو لغته أو دينه. والإسلاميون السوريون طرحوا برنامجهم السياسي على أساس المواطَنة السورية التي يتساوى فيها كل السوريين من كل ناحية ، لكن باقي السوريين لا يرون المواطَنة قادرة على ضمان المساواة لهم ما لم تكن الدولة علمانية ، إذ من خلال الديمقراطية يمكن للأكثرية السنية أن تفرض على الجميع قوانين وأنظمة نابعة من معتقدها الديني ويكون على باقي السوريين الخضوع لها لأن أغلبية السوريين أقرتها وهكذا هي الديمقراطية.

لم ينجح الإسلاميون في سورية ولا في غيرها في إقناع باقي فئات الشعب أنهم مخلصون في مناداتهم بالديمقراطية والمواطَنة طالما أنهم لا ينادون بالعلمانية ، وهم إن نادوا بالعلمانية فقدوا صفة الإسلامية. فالجميع يظن أن الإسلاميين ينادون بالمواطَنة والديمقراطية كتكتيك مرحلي ريثما يتمكنون ويصلون إلى الحكم ويحكمون قبضتهم على البلاد والعباد ، وعندها سيعودون إلى معاملة الناس على أساس معتقداتهم ، وسينسون المواطَنة وسيتمسكون بالديمقراطية من دون علمانية لأنها تعطيهم الحق في الانفراد بالسلطة لأن أغلبية السوريين مسلمون سنة ، وعندها تعاني باقي

الأقليات من تحكم الطائفة السنية لأنها أكثرية ويكون هنالك استبداد ودكتاتورية الأغلبية على الأقليات.

وثيقة المدينة المنورة

ويبقى السؤال: كيف نحقق ديمقراطية لا تطغى فيها الأكثرية على الأقلية ولا تكون علمانية في الوقت نفسه ، والديمقراطية هي في جوهرها حكم الأغلبية ؟

إنني وجدت الجواب واضحاً في وثيقة المدينة المنورة التي نظمت حياة سكانها عندما تحولت المدينة إلى دولة يرأسها محمد صلى الله عليه وسلم. إنه الاعتراف بالطوائف والأديان لا إنكارها وتهميشها ، بل بإعطاء المجال لكل طائفة لتطبق الشريعة التي ترتضيها مهما قل عددها أو كثر ، فهي أمة مع المؤمنين - أي أتباع محمد صلى الله عليه وسلم كما جاء في الوثيقة - لها الأُسْوَة — أي المساواة - وكامل الحقوق كأمة من حيث حرية معتقداتها وممارساتها الدينية ومن حيث تطبيقها لشريعتها الخاصة بها والنابعة من معتقداتها الدينية.

في الغرب العلماني تضمن العلمانية أن لا يطبق المسيحي قوانيناً نابعة من دينه على اليهودي أو على الملحد، لكن هذه العلمانية تحرم الأقلية المسيحية المؤمنة مثلاً من أن تطبق على نفسها ما تختاره من شرائع ، وهكذا ليست المواطَنة في إطار العلمانية أكثر عدلاً من المواطَنة في أمةٍ دين الدولة فيها الإسلام ويعيش فيها غير مسلمين ، وإن اختلفت الفئة المظلومة في الحالة الأولى عن الفئة المظلومة في الحالة الثانية. ونحن إن طبقنا المواطَنة مع العلمانية كما يفعل الغرب تعرضت الأغلبية المؤمنة بالإسلام السني للظلم حين لا يسمح لها أن تطبق على نفسها الشريعة التي تؤمن بها ، وهذا يعني أنه من أجل الأقليات ستحرم الأكثرية من حقها في تطبيق الشرع الذي تؤمن به على نفسها.

التعددية هي الحل

إذن الحل في التعددية بأوسع معانيها بما في ذلك التعددية التشريعية ، والتعددية هي أحدث ما وصلت إليه البشرية من تقدم سياسي وثقافي يضمن الحرية والمساواة لجميع المواطنين في مجتمع ما. ويبقى السؤال: إن طبقت الأقلية السنية ما شاءت من شريعة على نفسها فهذا سيعني أن كل السنة بما فيهم الملحدون سيخضعون للشريعة الإسلامية وسيكون ذلك نوعاً من التمييز والاضطهاد لهم. هذا صحيح لذلك لا بد من الاعتراف بأمة أو طائفة جديدة هي طائفة السوريين العلمانيين ينتمي إليها من شاء من أبناء الطوائف السورية الذين لا يرغبون في الخضوع لأية

تشريعات دينية ، وعندها يكون هنالك قانون مدني سوري علماني بالموازاة مع أية قوانين خاصة بالطوائف المختلفة سواء في الأحوال الشخصية أو العقوبات أو المعاملات المالية ، ويتم العمل بهذا القانون المدني العلماني - الذي يختاره السوريون بطريقة ديمقراطية - في كل الحالات التي يكون فيها المتعاملان أو المتخاصمان من الطائفة العلمانية ، أو من طائفتين مختلفتين ، ما لم ينص الاتفاق بينهما على الاحتكام لشريعة أحدهما عند الخلاف. أي سيكون الأصل في الدولة السورية المنشودة أنها علمانية ، لكن لكل طائفة من طوائف السوريين الحق في الاحتكام إلى شريعتها التي ترتضيها وتتوافق عليها بطريقة ديمقراطية ، وهذا يعني أنه سيكون هنالك برلمان لكل طائفة ، لتمارس من خلاله الطائفة كل حقوقها بشكل ديمقراطي حقيقي دون المساس بحقوق الطوائف الأخرى ، وحتى لا تحصل فوضى وتَهَرُّب من الأحكام التي لا تعجب أحدنا سيكون على كل منا أن يحدد انتماءه الطائفي ويثبت ذلك في سجلات الدولة ، فالسوري يكون إما علمانياً مهما كان أصله الديني ، أو سنياً أو مسيحياً أو درزياً أو علوياً أو إسماعيلياً أو آثورياً أو جعفرياً أو أي معتقد يكون من السوريين من يؤمن به ويريد أن تتحدد هويته على أساسه. ويبقى لكل سوري الحرية المطلقة والحق في الانتقال من طائفة إلى أخرى متى شاء على أن يتم ذلك بطريقة رسمية موثقة لدى الدولة ، دون أن يخشى من حد ردة ولا غيره.

في الدولة الديمقراطية التعددية تكون هنالك مواطنة حقيقية تضمن المساواة لجميع المواطنين وتعطيهم الحقوق نفسها بغض النظر عن

معتقداتهم دون أن تمنع المؤمنين من أي دين من العيش كما يؤمنون ووفق الشرع الذي يرتضون. هو نوع من الحكم الذاتي أو الاتحادي الفدرالي لكنه لا يقوم على أساس المناطق الجغرافية المختلفة التي توحدت اتحاداً فيدرالياً لتشكل دولة واحدة ، بل يقوم على أساس الجغرافية الثقافية ولو كان أعضاء الطوائف المختلفة متداخلين أو حتى متزاوجين ويشتركون في المدن والقرى والأحياء ، أي ستتمتع كل طائفة بقدر من الاستقلالية ضمن إطار الدولة السورية الواحدة وتحت عنوان المواطَنة السورية التي لا تعطي الاعتبار إلا لكون الشخص سورياً. لقد أثبتت الفيدراليات أنها أفضل من الاتحادات الإندماجية وأقدر على البقاء منها لأنه فيها تتمتع كل منطقة بقدر من الاستقلالية ويكون إمكانية الظلم وطغيان منطقة على أخرى أقل ما يمكن ، وهكذا عندما تكون الأمة السورية مكونة من عدة أمم بحسب المعتقد الديني أو الثقافي ، وتتمتع كل أمة باستقلالية مريحة لها في إطار دولة علمانية ليس لها صبغة دينية لأنها دولة جميع السوريين ، وفي الوقت نفسه تطبق كل أمة من هذه الأمم الفرعية أي كل طائفة ما تراه مناسباً من تشريعات على أساس دينها ومعتقدها ، يكون الجميع مرتاحاً ومُكَرَّماً ولا تطغى الأكثرية على الأقلية كما لا تطغى الأقلية على الأكثرية ، ويكون الناس حقيقة مصدر السلطات في المجتمع كل ضمن طائفته ، ثم يكون الجميع مصدر السلطات على مستوى الدستور والقوانين المدنية التي لا تصطبغ بأية صبغة دينية لكنها تفسح المجال لتطبيق كل طائفة لشريعتها الخاصة ، وينظم الدستور هذا التنوع والتعدد بما يضمن حفظ الحقوق والحريات والعدل والمساواة بين جميع السوريين. وأريد أن أنبه إلى أن التعددية التشريعية على أساس الأديان والمعتقدات لا تتعارض مع الفيدرالية إن وجد

السوريون مصلحة لهم فيها ، لكن الفيدرالية تكون على أساس جغرافي تستقل فيها كل منطقة بإدارة شؤونها وتبقى القوانين التي تنظم حياة كل طائفة من طوائف السوريين مطبقة في جميع المناطق ، وحيث وُجِد المواطن السوري المنتمي لطائفة معينة تطبق عليه تشريعاتها.

يمكن أن يتشكل البرلمان السوري من مجموع البرلمانات الطائفية بما فيها طائفة العلمانيين ، وهنا أذكر أن طائفة العلمانيين ستضم كل من يرغب بأن ينتمي إليها حتى لو كان متديناً ، طالما أنه يريد التحاكم إلى القوانين المدنية في كل شؤونه بما فيها أمور الزواج والأسرة والميراث ، ولن يكون الانتماء للطائفة العلمانية مساوياً للانتماء لطائفة الكفار ، كما يمكننا إن شئنا أن نسميها طائفة السوريين المدنيين.

تطبيق الشريعة بلا إكراه

سيبقى المجال مفتوحاً للسعي إلى تطبيق الشريعة لكن بالإقناع لا بالإكراه ، وعلى أبناء الدين نفسه لا على أتباع الأديان الأخرى ، ولن يكون هنالك ذميون في دولتنا الجديدة وإن كانت دولة فيها الحرية الدينية الكاملة ويمكن للناس أن يمارسوا فيها السياسة على أساس الدين ، طالما أن فرض الشريعة سيبقى محصوراً ضمن من ينتمي للطائفة السنية ويستثنى

منهم من يضع نفسه في الطائفة المدنية أو العلمانية ولا خلاف على التسمية.

وسيكون لكل سوري الحق في محاولة إقناع باقي السوريين لتبني قانون ما على مستوى الأمة السورية حتى لو كان هذا القانون مأخوذاً من الشريعة الإسلامية أو من أي عقيدة أخرى ، هو له نيته وذلك بينه وبين ربه ، ونحن لنا أن نناقش القانون المقترح وإذا وافقت عليه أغلبية السوريين فإنه سيبقى قانوناً مدنياً ولو كان في الأصل مأخوذا من دين من الأديان ، لا يهم مصدره حين نريد تطبيقه على مستوى سورية كلها التي لن يكون لها دين من الأديان بل ستكون دولة لكل السوريين وعلى مسافة واحدة من كل طوائف السوريين. ولا يؤثر على الثواب الذي نريده من الله على تطبيق تشريع إسلامي ما ، فيما لو كان هذا التشريع قانوناً مدنياً من الناحية الرسمية ، فربنا يعلم ما في قلوبنا. المهم أن يكون كل شيء بلا إكراه ويكون بحرية وديمقراطية حقيقية.

عندها سيكون من حق أي سوري رجلاً كان أو امرأة أن يترشح ليرأس الجمهورية ، وسيكون من حق كل سوري أن يختار منطلقاً في اختياره من معتقده الديني أو مستبعداً الدين وحاصراً له في الحياة الشخصية. المهم أن يتم انتخاب الرئيس من خلال ديمقراطية حقيقية ، وإن كنت كمسلم أؤمن أنه لا يجوز أن يكون رئيس دولتي غير مسلم فلي الحق في أن أعبر عن ذلك من خلال صندوق الانتخاب ، وإن جاءت الأمور على غير ما أؤمن به كأن ينتخب السوريون امرأة أو غير مسلم لرئاسة الجمهورية فإنها لن تكون نهاية

العالم ، لأن رئيس الجمهورية لن يكون الحاكم بأمره ، بل سيكون موظفاً رفيع المستوى في دولة ديمقراطية لا تعطيه الفرصة كي يستبد ويحكم بهواه ، ولن يكون عليَّ وزر أو إثم إن كنت بذلت ما أستطيع من جهد سلمي وقانوني من إجل إيصال المرشح الذي أرغب في أن يكون رئيساً للجمهورية سواء كان تفضيلي له على أساس الدين أو على أساس الجنس.

يجب أن يدرك كل منا أنه فرد واحد لا يحق له أن يُكْرِهَ الآخرين على ما يراه مناسباً ، بل له أن يدعوهم إلى ذلك بالكلمة الطيبة ، ولن يكون ملاماً عند الله إن لم يستجيبوا لدعوته ، فكم من رسول لم يستجب لدعوته أحد أو استجاب له قلة قليلة فقط. يجب أن لا نُحَمِّل أنفسنا فوق طاقتنا ، ولا أن نفرض وصاية على غيرنا ، اللهم إلا أن نجبر أولادنا على الصلاة ضمن عملية تربيتنا لهم حتى إذا بلغوا مبلغ الرجال والنساء توقفنا عن إجبارهم وعاملناهم ككبار لهم كامل الحرية ، إنما ندعوهم برفق وموعظة حسنة لما نعتقد أنه خير لهم.

حرية التفكير والتعبير

في الدولة السورية المنشودة سيكون للناس حرية التعبير عن أي شيء وبالطريقة التي يختارونها لكن لن يكون لهم حرية السخرية أو شتم أو إهانة الرموز الدينية لأي طائفة من السوريين حتى لو كان هذا الرمز هو بوذا

أو غيفارا ، فالله حرم على المؤمنين أن يسبوا الآلهة والأصنام التي كان مشركوا العرب يعبدونها كي لا يسب هؤلاء اللهَ رداً على سب المؤمنين لآلهتهم المزعومة ، قال تعالى: {وَلاَ تَسُبُّواْ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللّهِ فَيَسُبُّواْ اللّهَ عَدْواً بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ } الأنعام108 ، أي سيكون لمن شاء أن يجادل بما شاء من أفكار لكن لن يكون له الحق أن يشتم الله أو الرسول أو القرآن أو الصحابة أو غير ذلك من رموز لأية طائفة دينية ، سيكون هنالك حرية تفكير وتعبير لا يحدها شيء إلا وجوب احترام باقي السوريين والاعتراف لهم بأنهم {لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ} الكافرون6، أي سيعترف المؤمن للكافر بحقه في أن يعتقد ما شاء ويعبد ما شاء دون أن يكون لأحد حق إكراه غيره على اتباعه ، فالإنسان كائن مستخلف له الحرية أن يفعل ما يشاء طالما أنه لم يعتدِ على حقوق الآخرين وطالما أن الله سيحاسبه يوم القيامة فيعطي الجنة لمن آمن وعمل صالحاً ويدخل النار من استكبر وأصر على الكفر وعصيان الخالق. ولنا أن ندعوه بالحكمة والموعظة الحسنة وبالرفق وبالتي هي أحسن ، وعلينا عندما ندعوه أن نكون مخلصين في حبنا للخير له وفي حرصنا على هدايته من أجله لا من أجلنا ، ولفائدته لا لفائدتنا ، وعندها ستحقق الدعوة أعظم النتائج بعكس الإكراه الذي لن ينتج إلا المنافقين الكارهين الذين يتربصون بنا الدوائر. الإنسان مفطور على الاستقلالية ومحاولة إجباره على شيء تجعله يكره هذا الشيء ويرفضه حتى لو كان فيه الخير له لأنه يريد أن يشعر بحريته واستقلاليته ، قال تعالى: {وَلَوْ شَاء رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ} يونس99. وسيكون الوالدان هما صاحبا الكلمة فيما يوجه لأطفالهما من تعليم ديني أو لا ديني ،

حتى إذا بلغ الأطفال السن القانونية صاروا هم المسؤولين عن أنفسهم ولهم الحرية التامة في أن يختاروا لأنفسهم كباقي السوريين.

في الدولة السورية المنشودة كما في أي دولة إسلامية صافية دينياً لا مجال للعنف في سبيل التغيير الاجتماعي والسياسي أبداً، بل الجهاد سيكون كلمة حق عند سلطان جائر، أي جهاد بالوسائل السياسية اللاعنفية كالعصيان المدني والتظاهر والاعتصام ووسائل الإعلام وغير ذلك مما لا يمارس فيه القتل أو الإكراه من أي نوع، وهذا لا يتناقض مع أن من قُتِلَ دون نفسه فهو شهيد ومن قتل دون عرضه فهو شهيد ومن قتل دون ماله فهو شهيد.

==========

المقال السادس:

ثورة سلمية محمية

(سبق نشره بالاسم المستعار: الدكتور محمد ناصح عبد الله)

كتب في 2012/11/22 وأضيفت له فقرة طويلة في 2012/12/22

وتم تنقيحه وإعادة نشره في 2013/06/01

السلمية عزيمة والدفاع رخصة

بعض السوريين متفائلون بحسم قريب وسقوط كامل للنظام، لكن القلقين المشفقين المتحيرين كثيرون.. رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه يقدمون على الموت بكل إخلاص، وملايين من المدنيين بين مشرد ومحاصر ومصاب.

الدعوات متناقضة بين من ينادي بالجهاد المسلح مهما بلغت الخسائر والتضحيات في سبيل الحرية والتخلص من النظام، وبين من

ينادي بسلمية الثورة لأنه يرى السلمية أقوى أثراً وأقل ضرراً. لكن من ينادي بالسلمية وأنا منهم يقف متحيراً ماذا يرد على الذين يجادلونه ويضربون الأمثلة من جرائم النظام التي فاقت كل التوقعات ، ويسألونه مستنكرين: هل من المعقول أن تطلب من الناس أن يكفوا أيديهم ولا يدافعوا عن أنفسهم وأعراضهم وأموالهم ومساكنهم ؟.

لو التزم السوريون السلمية الكاملة وامتنعوا عن أن يبسطوا أيديهم بأي عنف حتى لو دفاعاً عن النفس والعرض والمال والديار لأمكن إسقاط النظام بسرعة أكبر ولكانت النتائج مضمونة أكثر.

أنا مؤمن أن اللاعنف أو كفُّ الأيدي كما سماه القرآن الكريم سلاح فعال في الصراعات ضمن المجتمع الواحد أكثر من القتال والجهاد المسلح بكثير. لي أكثر من عشرين عاماً وأنا أتفكر باللاعنف كوسيلة للتغيير الاجتماعي والسياسي وذلك منذ أن تعرفت على الشيخ جودت سعيد والدكتور خالص جلبي وقرأت كتبهما أكثر من مرة. المهم اقتنعت باللاعنف قناعة تامة ومازلت على قناعتي به ، لكن كلمة قالها لي صديق لي يؤمن مثلي باللاعنف هو الدكتور مأمون مبيض عندما التقينا في استنبول في مؤتمر عن الآثار النفسية والاجتماعية للأزمة السورية ، وكانت كلمته رداً على تأكيدي أنه على الثورة السورية أن تعود سلمية مئة بالمئة وعلى مبدأ ابن آدم الأول: (لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ

رَبَّ الْعَالَمِينَ (28) إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ (29)) {سورة المائدة} أجابني إجابة ذكية ساعدتني كثيراً على العودة إلى الواقعية الحكيمة ، قال لي: "ما تقوله يحتاج إلى قديسين ليقوموا به". وعبارته تتضمن أن السوريين فيهم ضعف البشر وليسوا قديسين ولا أنبياء ولم يستطيعوا الصبر على العدوان الهمجي الذي تعرضوا له دون أن يتصرفوا التصرف الطبيعي المتوقع من البشر وهو رد العدوان بعدوان مثله ، لعل ذلك يردع المعتدين ويعجل بانزياح الكابوس عن صدورهم. كنت ومازلت معجباً كثيراً بصمود اليمنيين أمام استفزاز نظامهم ومحاولته دفعهم إلى الثورة المسلحة بدل السلمية ، فثبتوا على السلمية رغم أنهم أكثر شعب عربي مسلح حتى في الأحوال العادية ، ويقال إن الشعب اليمني يمتلك أكثر من خمسة ملايين قطعة سلاح.. وأنا أعتقد من الناحية النفسية أن امتلاكهم السلاح من قبل الثورة بكثير حماهم من الإذلال الذي تعرض له السوريون على مدى أكثر من أربعين عاماً ، وبالتالي أكسبهم وجود السلاح بأيديهم دائماً ، ثقة بالنفس ، جعلتهم لا يتصرفون بأسلوب رد الفعل ، ولا ينفع معهم استفزاز نظامهم لهم من خلال قنص مئات المتظاهرين السلميين في يوم واحد ، لكنني حتى لا أظلم السوريين وأنا أقارنهم بإخوتهم اليمنيين أقول الله وحده يعلم كيف كان اليمنيون سيتصرفون لو اتبع نظامهم سياسة الاغتصاب الممنهج المتعمد بهدف الإذلال والتخويف والدفع إلى السلاح.. نحن أمة لا تتحمل الاعتداء على العرض ويصعب على أبنائها أن يملكوا أنفسهم وأن يحافظوا على السلمية المطلقة وهم يرون شرار الناس يعتدون على بناتهم وأخواتهم ، واليمنيون من أشد الشعوب العربية تمسكاً بهذه القيم الأصيلة.

في مقالاتي السابقة عن الثورة السورية وبخاصة في مقالي الرابع "الثورة السورية بين العنف واللاعنف" دعوت إلى السلمية وكفِّ الأيدي، لكنني قلت إن ذلك لا يتناقض مع كون من مات دون نفسه فهو شهيد، ومن مات دون ماله فهو شهيد، ومن مات دون أهله أي عرضه فهو شهيد، كما قال نبينا صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح.

لم أكن أناقض نفسي يومها.. لكننا بحاجة إلى بعض التفكر لنكتشف الموقف السليم الذي يريده الإسلام منا في مثل هذه الأزمات. كلنا يعلم أن في الإسلام رخص، وفيه عزائم، فيه تعاليم تدعو للأمثل في كل شيء، وفيه الإذن بفعل ما يتماشى أكثر مع الضعف البشري، لكن ضمن إطار من العدل والطاعة لله ورسوله. القرآن الكريم صور المؤمنين أنهم أناس يكظمون الغيظ ويعفون عن الناس ويدفعون السيئة بالحسنة، قال تعالى في سورة آل عمران: (وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ (133) الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (134)) وقال في سورة فصلت: {وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ (34) وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (35)}. وقال في سورة الشورى: {وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ (37)}، وقال في سورة الجاثية:

{قُلْ لِلَّذِينَ آَمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (14)}.

إذاً هي دعوة إلى أن تدير خدك الأيسر لمن لطمك على خدك الأيمن ، فلا ترد اللطمة باللطمة ولا الإساءة بالإساءة ، بل تصبر وتغفر ، فيكون قلبك نقياً من الغل والحقد ، مما يُمَكِّنُك من أن تحسن لمن أساء إليك ، إحساناً صادقاً من كل قلبك ، وعندها تستطيع تغييره بدل تدميره ، فيتحول كأنه ولي حميم ، وإن لم يتحول إلى ولي حميم بكل معنى الكلمة. القرآن يدعو المؤمنين ليغفروا حتى للذين لا يرجون أيام الله من الكفار والملحدين والمشركين ، ولا يقصر دعواه على الصبر والمغفرة على الحالة التي يكون فيها المعتدي أو المسيء مؤمناً مثلهم ، وهذا يعني أننا مدعوون لأن نغفر للمسيء إلينا لا من أجله هو ، فالله سيجزيه بما عمل ، إنما دعانا إلى أن نغفر لترتاح صدورنا من مشاعر الغيظ والغل والحقد ، وليزول الجدار الذي تشكله هذه المشاعر بيننا وبين إخوة لنا في الإنسانية أساؤوا إلينا ، فنحسن إليهم ونرد الإساءة بالحسنة ، وعندها يتحقق لنا ما نسعى إليه عندما نرد على العدوان بالعدوان ، يتحقق لنا دفع العدوان وتجنب المزيد منه ، وحماية أنفسنا من المزيد من الأذى والإساءة ، وهذا واضح في قوله تعالى: ادفع بالتي هي أحسن السيئة ، أي ليس الأمر عجزاً واستسلاماً وسلبية تغري المعتدي بمزيد من العدوان ، بل هو دفع للإساءة ، لكن بوسيلة مثالية راقية تجعلنا ننتصر على الخصم بتحويله إلى ما يشبه الولي الحميم بدل العدو اللدود الذي كانه.

هذه هي العزيمة أما الرخصة التي تتجاوب مع الفطرة التي فطر الله الناس عليها أكثر ، وإن كانت دونها في الرقي والسمو الخلقي والتأثير في الغير ، فهي رد الإساءة بإساءة مثلها ، لا بإساءة تفوقها ، فقد توعد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يُمَثِّل بسبعين من المشركين ، لما رأى تمثيلهم الحاقد بجثة عمه الحبيب إلى قلبه حمزة رضي الله عنه في غزوة أحد ، فنزل القرآن الكريم بقوله تعالى في سورة النحل: { وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ (126) وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ (127) إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ (128)}.

إن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ، هذا إن عاقبتم ، وإن هنا تشكك بوقوع المعاقبة ، لكن تأذن بها في الوقت نفسه ، دون تشجيع عليها ، بل الحض هو على الصبر والإحسان ، ومعه تذكير أن الصبر خير للصابرين من الانتقام ، وأن الله مع المتقين ، ومع المحسنين ، الذين لا يظلمون ، والذين يصبرون أكثر مما يعاقبون.

قال تعالى في سورة الشورى: {وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ{37} وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ{38} وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ

يَنتَصِرُونَ{39} وَجَزَاء سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ{40} وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُوْلَئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ{41} إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُوْلَئِكَ لَهُم عَذَابٌ أَلِيمٌ{42} وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ{43}}.

هذه الآيات الكريمة تلخص الموقف الإسلامي بكامله عند التعرض للعدوان ، فهي تدعو إلى المغفرة ، لكن تأذن برد العدوان بعدوان مكافىء ، وتنهانا عن أن نظلم حتى الذين بادرونا بالعدوان والأذى.. اقرؤوها مرة أخرى وتأملوها لتعلموا روعة هذا الدين الذي يجمع بين المثالية والواقعية جمعاً رائعاً مريحاً للنفس البشرية.

القاتل والمقتول في النار

ونعود إلى موضوعنا الأصلي ، روى البخاري ومسلم في صحيحيهما عنِ الأَحْنَفِ بنِ قَيْسٍ قال: ذَهبتُ لأنْصُرَ هذا الرَّجُلَ ، فلَقِيَني أبو بَكرةَ فقال: أينَ تُريدُ؟ قلتُ: أنصُرُ هذا الرَّجُلَ: قال: ارْجِعْ ، فإنّي سَمِعْتُ رسولَ اللّهِ صلى الله عليه وسلّم يقول: «إذا الْتقَى المُسْلِمان بسَيْفَيْهما فالْقاتِلُ والمقتولُ في النار. فقلتُ: يا رسولَ اللّهِ هذا القاتِلُ ، فما بالُ المقتول؟ قال: إنه كان حَريصاً على قتلِ صاحبِه».

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما رواه البخاري ومسلم: «مَن قُتِلَ دُونَ مالِه فهو شَهيد». وقال فيما رواه أحمد في مسنده: «من قتل دون ماله فهو شهيد ، ومن قتل دون أهله فهو شهيد ، ومن قتل دون دينه فهو شهيد ، ومن قتل دون دمه فهو شهيد». وروى النسائي في سننه الصغرى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «مَنْ قُتِلَ دُونَ مَظْلَمَتِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ»....

هو شهيد إذن إن قتل وهو يدافع عن نفسه أو ماله أو عرضه ، هذا بغض النظر عن دين المهاجم وعلاقته بالمؤمن الذي يقاتل دفاعاً ، أي إن القتال دفاعاً مشروع والموت فيه استشهاد حتى لو كان المعتدي شيخ الإسلام ، ومؤمناً لا يفوقه أحد في العبادة كما كان الخوارج. وكما هو حال الكثيرين من الجهاديين التكفيريين الذي يستحلون دماء الناس في زماننا هذا ، مع أنهم غالباً متدينون وربما كانوا شديدي الالتزام الديني والتعبد فيما سوى استباحتهم لدماء الآخرين.. الدفاع مشروع سواء كان من يهاجمك مسلماً أو كان كافراً ، لكن أن يلتقي المسلمان بسيفيهما فهو محرم ، وكلاهما في النار.

ما الحل عندما يكون من يعتدي علي مسلماً ، وأريد أن أقاتله لأحمي نفسي ومالي وعرضي ؟ الحديث الذي يحرم التقاء المسلمين بسيفيهما يقول: إذا التقى المسلمان بسيفيهما ، أي خرج كل منهما من دياره ليلقى الآخر بسيفه ، وكلاهما مؤمن بالعنف والقتال وسيلة لحل الخلاف ، فيقاتله على أمل الغلبة وفرض الإرادة ، أي يكون التقاؤهما بالسلاح هجوماً مقصوداً من

كل منهما لا هجوماً من أحدهما ودفاعاً من الآخر، إنما مبادرة لمهاجمة الخصم وعدواناً استباقياً قبل أن يبدأ الخصم هجومه.

هم في النار إلا المدافعين

خروج المسلم للقاء المسلم بالسيف حرام، والقاتل والمقتول فيه في النار، لكن الدفاع حلال، والمقتول فيه من المدافعين شهيد.. أي عندما نقاتل جنود النظام وشبيحته ومخابراته إن هاجموا بيوتنا أو أحياءنا أو بلداتنا لنذود عن أنفسنا بما في ذلك أولادنا وأهلينا ولنحمي أموالنا وأعراضنا، فإن قتالنا يكون في سبيل الله، ومن يموت منا فهو شهيد، له أن يتوقع جنة عرضها السماوات والأرض، أما قطع المسافات كي نهاجمهم في ثكناتهم، أو مراكزهم، أو قراهم، التي هي خارج مناطقنا الآمنة وبعيدة عنا، فهذا ليس دفاعاً، حتى لو برررناه لأنفسنا، على أنه دفاع استباقي، على مبدأ الهجوم خير وسيلة للدفاع، لكن يبقى الهجوم على مراكزهم وقواعدهم التي هي ضمن مناطقنا الآمنة ومنها ينطلقون للعدوان علينا فلنا أن نخرجهم منها بالقتال إن رفضوا الخروج منها طواعية، ويكون قتالنا في هذه الحالة دفاعاً مشروعاً والله أعلم.

يمكن لكل حي أو بلدة تحديد هامش أو حمىً، لا تسمح لجيش النظام وعصاباته ومخابراته أن يجتازوه، وتقاتلهم إن اقتربوا منه، لكن لا ترسل

المقاتلين لمهاجمة النظام ورجاله ، طالما هم بعيدون عن هذا الحمى. أي يكون دخول الجيش وقوى الأمن والشبيحة ممنوعاً إلى مناطق الثوار ، ولا يتم إلا على جثثهم ، لكن للنظام ورجالاته أن يأمنوا على أنفسهم من أي عدوان من الثوار ، طالما بقوا بعيدين ، ولم يبادروا بالهجوم والاعتداء.

في الوقت ذاته تبقى مناطق الثوار تحت الإدارة المدنية للدولة ، ويدخلها كل الموظفين الحكوميين ، بما فيهم الشرطة والمباحث الجنائية وشرطة السير ، وكل ما يلزم لاستمرار الحياة المدنية في تلك المناطق تحت حكم الدولة ، أي لا نعلن تحرير مناطقنا ونرفع عليها أعلامنا ، ونمنع كل من له صلة بالدولة والنظام من دخولها ، فنحن صراعنا مع النظام ، وليس مع الدولة ، ونريد أن نطيح بالنظام ، لا أن نطيح بالدولة في سورية.

نعلنها مناطق آمنة لكل السوريين ، من الشعب بكافة أطيافه ، أو من موظفي الدولة بكافة تخصصاتهم ، إلا من جاء معتدياً على الأنفس والأموال والأعراض. نعلنها آمنة نخضع فيها لقوانين الدولة في كل شيء ، إلا منها ما يمنعنا من المطالبة بالحرية والكرامة والديمقراطية والعدالة الاجتماعية ، ونبذل كل جهدنا لنوصل صوتنا وصورتنا إلى العالم أجمع ، ولنفضح جرائم النظام على رؤوس الأشهاد ، كي لا يبقى أحد من الناس مخدوعاً به. فنتمرد تمرداً سلمياً على النظام ، المتمثل بقوى القمع والبطش ، من مخابرات وشبيحة وفرق عسكرية ، سواء منها من يوالي النظام بإرادته ،

ومن هو مغلوب على أمره ومُكْرَهٌ ، لا يجرؤ على المخالفة والانشقاق ، من مجندين إجباريين وغيرهم من العسكريين ، الذين لا يرضيهم ما يؤمرون به من قتل المطالبين بالحرية والديمقراطية.

ندافع عن أعراضنا وأموالنا وأنفسنا حتى الموت ، لكننا لا نهاجم أحداً ، ولا نغزوا أحداً في أماكن تواجده أو في قريته ، حتى لو اعتدى علينا منهم من يرتكب المذابح ويغتصب النساء ، فإننا ندافع ونقاتل بكل سلاح متاح ، فإما أن نقتلهم وإما أن نقتل لنكون شهداء عند الله ، لكننا لا ننتقم بأن نهاجم قراهم أو ثكناتهم ، ولا نرتكب المذابح ، ولا نعتدي عليهم وعلى أسرهم كما اعتدوا علينا. لقد أذن الله لنا بالدفاع عن أنفسنا وأعراضنا وأموالنا ، ولم يأذن لنا أن نعامل أبناء وطننا بالمثل ، أي بأن ننتقم ونثأر ، فنهاجم ونقتل ونغتصب ، حتى لو كان ذلك يشكل رادعاً لهم عن المزيد من العدوان علينا. المعاملة بالمثل والمبادرة مشروعة عندما يكون عدونا دولة أخرى ونواجهه كدولة ، أما عندما يتصارع فئات شعب واحد وأبناء أمة واحدة فليس مشروعاً لنا إلا الدفاع ، بل إن وعد نبينا لنا أن من قتل دون عرضه أو ماله أو نفسه أو أهله فهو شهيد حض وحث وتحريض على الدفاع عن ذلك كله وبذل النفس في سبيله.

عندما وصل إلى النبي صلى الله عليه وسلم أن الروم يعتزمون غزو المسلمين جهز جيش العسرة وسار بهم إلى تبوك يريد أن يلقى الروم في عقر

دارهم ، وهو يومها لم يجد ما يجهز به رجاله من عتاد وغذاء إلا القليل ، لأنه علم أن الهجوم خير وسيلة للدفاع فبادر إليه ، لكن ربنا حرم الاقتتال الداخلي ضمن المجتمع الواحد ولم يسمح به إلا للمدافع عن نفسه أو ماله أو عرضه أو أهله ، ونحن نؤمن أن ربنا لم يشرع لنا من الدين إلا ما هو خير ومنفعة لنا ودفع للضر والشر ، وحل الخلافات بالسلاح ضمن الأمة الواحدة يعني الحرب الأهلية التي يخسر فيها الجميع ، حتى لو في نهايتها تغلبت فئة على فئة ، فإن تغلبها يسبقه ضحايا عديدة جداً من الطرفين وتخسر الأمة ما كان يربط أبناءها بعضهم ببعض ، فيتحولون إلى أعداء ، ربما لأجيال إن لم يكن لقرون ، ويكون الوضع الجديد فيه غالب ومغلوب ، وقاهر ومقهور ، وجبار ومكره ، وظالم ومظلوم ، فلا يكون هنالك سلام حقيقي ، ولا يمكن أن تعود الأمة متماسكة كما كانت من قبل.

الشرع ينفع من يطبقه

كل تحريم أو تحليل في دين الله هدفه المصلحة والمنفعة ودرء المفسدة ، وليس تطبيقاً للمبادىء والقيم على حساب الناس وأرواحهم وأموالهم وأعراضهم. وتحريم الاقتتال بين مكونات الأمة الواحدة ليس من منطلق أنه لا يحل للمسلم أن يقاتل المسلم لأنهما مسلمان ، فقد أحل الله للمسلم أن يقاتل المسلم عندما تبغي طائفة من المسلمين على طائفة أخرى ، فأمر الله المسلمين كدولة وليس كأفراد ، بمقاتلة البغاة حتى يفيئوا ويعودوا لأمر الله ، لذا أتى الأمر بقتالهم مخاطباً المؤمنين كجماعة ، وهذا

يعني أن تكون لهم دولة ، ويقومون بردع البغاة كدولة ، أما كأفراد وجماعات ضمن الأمة الواحدة تريد أن تقاتل من يبغي ، لتتحول القضية إلى حرب أهلية لا قواعد فيها للاشتباك ، بل يقتل فيها المذنب والبريء ، والكبير والصغير ، والمرأة والرجل ، ويكون فيها القتل على الهوية والانتماء العشائري والطائفي ، فلا يحل ذلك حتى لو كانت فئة من المؤمنين قد بغت على غيرها من المؤمنين ، نعم ندفع الصائل ، ونرد المهاجم المعتدي ، وندفع عن أنفسنا وأهلنا وأموالنا وأعراضنا ، وفي الوقت نفسه نبقى متمسكين بالوسائل السلمية لحل الخلاف مع أبناء أمتنا وشركائنا في الوطن.

قد يقول قائل كلامك صحيح إن كان البغاة مؤمنين مثلنا ، لكن إن كانوا كفاراً يؤلهون بشراً فالأمر يختلف.! والحق أن الأمر لا يختلف ، طالما كنا أبناء أمة واحدة ، فحماية الأمة من الاقتتال الداخلي بين مكوناتها فيه المصلحة لهذه الأمة ، سواء كانت كلها من المؤمنين ، أو كانت أمة مختلطة فيها المؤمن والكافر ، أو كانت أمة من الكفار ، لأن تحريم لجوئهم إلى الاقتتال لحل خلافاتهم السياسية ، فيه الخير لهم والمنفعة ودفع المفسدة ، بغض النظر عن معتقداتهم ، والتشريع الذي ينفع أمة مؤمنة ، ينفع أمة كافرة إن هي أخذت به ، وأعود إلى مثال ذكرته في مقالاتي السابقة وهو تحريم الإسلام للربا وفرضه للزكاة ، وكيف لجأت أوربا وأمريكا في أزمتهم الاقتصادية الأخيرة إلى ما يشبههما ، من أجل أن يتعافى اقتصادهم ، إذاً تحريم الربا أو إلغاء الفوائد المصرفية بحكم القانون الوضعي ، يفيد اقتصاد

الأمة ، بغض النظر عن معتقدات أفرادها ، وكذلك ضخ الأموال في المجتمع للمحافظة على حد أدنى من القدرة الشرائية للناس ، فلا تكسد البضائع وتفلس الشركات وتتفاقم الأزمة ، وهو محاكاة للزكاة التي تضخ القليل من أموال الأغنياء في المجتمع بشل مستمر ، ويكفي منها هذا القليل كإجراء وقائي استباقي.

لو طبقنا ما شرعه الله لنا فسنسعد في هذه الدنيا ، سواء كنا مؤمنين ، أو كنا كافرين ، أو كنا خليطاً من المؤمنين والكافرين. إن الغذاء النافع ، والدواء الموافق للداء ، ينفع الجميع مؤمنهم وكافرهم ، وكذلك شرع الله وحلاله وحرامه ، ينفع كل من يأخذ به ويطبقه ، مؤمناً كان أو كافراً. وإن تحريم اقتتال أبناء الأمة الواحدة لحل خلافاتهم السياسية نافع لنا ، حتى لو كان بعضنا كافراً ، فالترياق ينفعنا من حيث أننا بشر ، نشترك بإنسانية واحدة ، ولدينا المشاعر والعواطف والدوافع النفسية المتشابهة ، فكلنا إخوة في الإنسانية ، ويصلح لنا ما يصلح للمؤمنين من شرع الله وهديه.

ثم إن الكثير مما حرمه الله علينا ينطبق ، حتى لو كان الطرف الآخر كافراً. فالزنا محرم ، سواء كان بمؤمنة أو بكافرة ، والسرقة محرمة ، سواء كانت سرقة لمال مؤمن أو مال كافر.. صحيح أن التحريمات كانت موجهة للمؤمنين ، وكان الخطاب للمسلمين ، لكننا لسنا مثل بني إسرائيل الذين أحلوا لأنفسهم أموال ودماء وأعراض غير اليهود ، لأنهم كفار بالنسبة لهم ،

وقالوا: ليس علينا في الأميين سبيل ، كما حكى لنا ربنا في سورة آل عمران عندما قال: {وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (75) بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ (76)}.

وزر أخرى

وأعود وأذكر بما قلته في مقالي الطائفية والثورة في سورية حيث بينت أن آية السيف ، التي أمرت المؤمنين بقتال المشركين وقتلهم ما لم يؤمنوا أو يرحلوا من أرض العرب ، كانت الاستثناء من القاعدة التي هي لا إكراه في الدين ، والتي تحرم دماء البشر جميعهم ، مؤمنهم وكافرهم ، إلا بالحق ، وبحكم قاض نزيه عادل ، أو دفعاً لصائل مهاجم معتدٍ. وكان هذا الاستثناء من أجل ضمان قيام دولة تحمي الاسلام من التحريف ، وكان منطبقاً على المشركين العرب وحدهم في حدود ما كان يسمى أرض العرب وقتها ، ولم يقم المسلمون بقتل مشرك من غير العرب لإجباره على أن يؤمن ، وهم قد فتحوا بلاداً كثيرة ، أهلها مشركون أو وثنيون يعبدون غير الله ، فلم يستحلوا دماءهم وأعراضهم وأموالهم ، إلا بما منحته لهم قوانين الحرب المتعارف عليها في ذلك الزمان ، من غنائم وامتيازات للأمة الغالبة.

أن يكون لقاء المسلمين بسيفيهما لحل خلافاتهما السياسية محرماً والقاتل والمقتول فيه في النار ، لا يعني أن لقاء المسلم بالكافر الذي يشاركه الوطن نفسه وينتمي للأمة ذاتها لحل الخلافات السياسية بينهما حلال ، لمجرد أن الطرف الآخر كافر. كان المؤمنون في مكة قبل الهجرة مضطهدين ، لكن لم يأذن الله لهم بالقتال الهجومي ، إلا بعد أن صارت لهم دولة يقاتلون تحت لوائها متميزين عن غيرهم ، أما عندما كانوا أفراداً في مجتمع مكة الذي اختلط فيه المؤمنون بالمشركين فإنهم لم يكن مأذوناً لهم بأي هجوم على المشركين حتى لو ظلموهم ، ومع أن حقهم في الدفاع عن أنفسهم مكفول ومن مات دون نفسه أو ماله أو عرضه فهو شهيد فإنهم التزموا بالعزيمة ، وهي أن يكفوا أيديهم مهما أصابهم من ظلم وعدوان ، ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة ، وكلنا يعرف التهديد الذي أطلقه عمر بن الخطاب ، عندما هاجر من مكة جهاراً نهاراً ، وتوعد من يلحق به من المشركين بالموت ، أي كان على استعداد لمقاتلة من يهاجمه ، ولم ينكر عليه نبينا ذلك فيما بعد ، لأن الإذن بالدفاع المحض عن النفس هو من المعروف ، الذي تقبله نفوس البشر جميعهم ، والإسلام جاء بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وإن كان الصحابة بلغوا مستوىً مثالياً في الأخذ بالعزائم التي أمروا بها.

فحتى لو هاجم أحياءنا وبلداتنا شبيحة أو ميليشيا تنتمي لطائفة معينة ، فإن لنا الحق أن ندافع بالسلاح ونقاتل ، فنقتلهم أو نقتل ، لكن لا نغزو قراهم ، ولا نقتل أحداً من أهليهم أو عشائرهم ما لم يكن مهاجماً لنا.

ومع أن هذا يعني إعطاء الأمان للطوائف والأقوام التي ينتمي إليها المعتدون، وعدم معاملتهم بالمثل، بل إعطاء الأمان لأسر وأقرباء من اعتدوا على أسرنا وأعراضنا، فإنه أبداً ليس وليد ضعف أو جبن أو تخاذل، ولا دليلاً على شيء من ذلك، إنما هو ضبط للنفس والتزام بشرع الله مع الثقة أننا بذلك سننتصر عليهم، فالقضية ليست حرب إبادة من طرف لطرف، إنما هي جهاد من أجل حياة أفضل لجميع السوريين مؤمنهم وكافرهم، ولا يتحقق هذا الهدف إلا بالامتناع عن مهاجمة أحد منهم، إلا انتقاماً وقصاصاً، إن كنا نعرف المعتدي منهم بشخصه، وتأكدنا من هويته، لكننا نميل إلى العزيمة ما استطعنا، لأنه لا بد أنها خير لنا مما رخص الله لنا فعله مراعاة لضعفنا البشري.

في الجهاد من أجل الحرية والديمقراطية ودولة القانون والمواطنة، الهدف، هو تحييد أكبر عدد من أعوان الطاغية من أجل عزله، وتغيير مواقف أعوانه والمخدوعين به، والإبقاء على خط رجعة لهم، وعلى مكان لهم في دولتنا المنشودة، رغم تورطهم في الدفاع عن النظام الظالم.. ألم يكن نبينا صلى الله عليه وسلم يقول: "اللهم إهدِ قومي فإنهم لا يعلمون"، مع أن من مات منهم في تلك اللحظة فإلى النار، أي كانوا مسؤولين عما يرتكبونه من فسق وعصيان، لكنهم كانوا لا يعلمون مصلحتهم أين، كما هو حال جند النظام وشبيحته الآن، فهم لا يعلمون أين هي مصلحتهم الحقيقية، ويظنونها مع النظام الجائر الظالم. الكثير من السوريين يجهلون عدالة القضية التي قامت من أجلها الثورة في سورية، وهم مغرر بهم،

ومتوهمون أن الثورة إن انتصرت فستكون نهايتهم، وستقطع أرزاقهم وأعناقهم، ويظنون أنهم بدفاعهم عن النظام إنما هم يدافعون عن أنفسهم وعن أرزاقهم، ولا يعلمون أنهم يبيعون أرواحهم للمحافظة على مكتسبات عصابة متسلطة على البلاد والعباد، ومستأثرة بخيرات الوطن، وتتمتع بالكبرياء في الأرض على حساب كرامة باقي السوريين، حتى لو كانوا من طائفتهم أو منطقتهم، ما لم يكونوا موالين لهم ومستعدين للموت في سبيلهم.

لن نكون قديسين، ولن نُدِر الخد الأيمن لمن لطمنا على الخد الأيسر، بل سنرد العدوان ونقاتل في سبيل أهلنا وعرضنا ومالنا حتى الموت، وهذا حق كفله لنا الإسلام، طالما أننا لم نحتمل أن نتلقى الاعتداءات، التي طالت أعراض نسائنا وأرواح أطفالنا، ندافع، ومن مات منا فهو شهيد، لكن لا نسعى إلى الثأر ممن لم يعتدِ علينا بنفسه، فنحن أمة العدل، ثم نحن في جهاد في سبيل الله، نطالب بحريتنا، وبأن نشارك في تقرير حاضر ومستقبل بلدنا، كما يشارك أي مواطن في دولة متحضرة، وليست العداوة شخصية، بل بمجرد أن نحصل على الحرية والديمقراطية ودولة المواطنة والقانون لجميع السوريين، نحتسب ما أصابنا عند الله، ونفتح قلوبنا لإخواننا مهما بلغت إساءاتهم لنا، ونبدأ معهم صفحة جديدة، أمة متحابة متماسكة، لا يفرقها عرق أو دين، تماماً كما يتحاب أعضاء الأسرة الواحدة، حتى لو اختلفوا في الدين أو العرق.. نعم نبدأ صفحة جديدة بلا

أحقاد ولا انتقام.. أليس قتلانا شهداء وأحياء عند ربهم يرزقون؟ وهل يصنع الانتقام فرقاً بالنسبة لهم؟.

البغاة

لا تتعجبوا من هذا الكلام، فهذا ديننا، لا يلاحق فيه البغاة إذا ما هُزموا، ولا إذا ما كفوا عن القتال ومالوا إلى السلم والصلح، البغاة في المجتمع المسلم هم من يخرجون بالسلاح على باقي الأمة، لغرض سياسي، يغلب أن يجدوا له مبرراً دينياً. وما أسهل أن تجد في الدين تبريراً لما تريد إن كنت ذكياً وعالماً بالتفاصيل. قال الشافعي رحمه الله تعالى في كتاب قتال أهل البغي وأهل الردة من كتابه الكبير "الأم": {والباغي خارج من أن يقال له حلالَ الدم مطلقا غير مستثنى فيه، وإنما يقال إذا بغى وامتنع، أو قاتل مع أهل الامتناع، قوتل دفعاً عن أن يَقْتُل، أو منازعة ليرجع، أو يدفع حقاً إن منعه، فإن أتى، لا قتال على نفسه، فلا عقل فيه ولا قود، فإنا أبحنا قتاله، ولو ولى عن القتال، أو اعتزل، أو جرح، أو أسر، أو كان مريضا لا قتال به، لم يقتل في شيء من هذه الحالات، ولا يقال للباغي وحاله هكذا حلال الدم، ولو حل دمه ما حقن بالتولية والإسار والجرح وعزله القتال}.

وقال الدكتور وهبة الزحيلي في كتابه الفقه الإسلامي وأدلته: {والفرق بين الباغي والمحارب: أن المحارب يخرج فسقاً وعصياناً على غير تأويل،

والباغي: هو الذي يحارب على تأويل ، فيقتل ويأخذ المال ، وإذا أخذ الباغي ولم يتب ، فإنه لا يقام عليه حد الحرابة ، ولا يؤخذ منه ما أخذ من المال وإن كان موسراً ، إلا أن يوجد بيده شيء بعينه ، فيرد إلى صاحبه (4)} .

وقال أيضاً: {قال الحنفية والمالكية والحنابلة ، والشافعية في أظهر القولين عندهم: لايضمن البغاة المتأولون ما أتلفوه حال القتال من نفس ولا مال ، بدليل ماروى الزهري ، فقال: «كانت الفتنة العظمى بين الناس ، وفيهم البدريون ، فأجمعوا .أي في وقائعهم كوقعة الجمل وصفِّين .على ألا يقام حد على رجل استحل فرجاً حراماً بتأويل القرآن ، ولا يقتل رجل سفك دماً حراماً بتأويل القرآن ، ولا يغرم مال أتلفه بتأويل القرآن» (2) ؛ ولأن البغاة طائفة ممتنعة بالحرب بتأويل سائغ ، فلم تضمن ما أتلفت على الأخرى كأهل العدل ، ولأن تضمينهم يفضي إلى تنفيرهم عن الرجوع إلى الطاعة ، فلا يشرع كتضمين أهل الحرب.}

صحيح أن هذا الحكم هو في الأصل للبغاة من المؤمنين ضمن أمة مؤمنة ، لكن لو تفكرنا في الحكمة من إسقاط الملاحقة عنهم ، لوجدناها تتعدى كونهم مؤمنين ولهم اجتهادهم في الدين الذي قاتلونا من أجله ، فالاجتهادات لا حدود لها ولا ضابط ، ولا يعلم ما في قلوبهم من إخلاص لاجتهاداتهم إلا الله ، لكن ذلك لا يغير من الحكم الشرعي شيئاً ، ذلك أن الحكمة هي مصلحة الأمة في حقن الدماء وحماية أبنائها من أن يقتل المزيد

منهم ، حتى لو لم تتحقق العدالة لمن قتلوا أو عذبوا أو اعتدي عليهم خلال النزاع ، لأن حفظ الأحياء مقدم على الانتقام والتشفي للأموات مهما كانوا عزيزين على قلوبنا ، حيث الإصرار على الملاحقة لمعاقبة كل من ارتكب جرماً في هذه الحرب الدائرة الذي يدغدغ مشاعر من أصيبوا ومشاعر أسر الذين ماتوا ، ثمنه سقوط المزيد من القتلى والمصابين ، لأننا عندما نغلق باب التوبة في وجه هؤلاء الذين باعوا أنفسهم للنظام ، يصبح دفاعهم عن النظام دفاعاً عن أنفسهم وعن وجودهم ، فهم إن سقط النظام ، لوحقوا وحوكموا وأعدموا وصودرت أموالهم ، وهم أمام هذا المصير لا أمل لهم إلا في القتال مع النظام حتى الموت ، أو ينتصر النظام وتكون لهم النجاة. هؤلاء بشر مثلنا ويحسبون الأمور بمدى المنفعة والضرر لهم ، فإن طبقنا ما أمرنا به ديننا بخصوص البغاة منا مع أنهم قد يكونون كفاراً بالنسبة لنا ، فإننا نستفيد من شرع الله ، ونوفر أرواحاً كثيرة وآلاماً عظيمة ، كانت ستستمر حتى يتم القضاء عليهم ، هذا إن أمكن ذلك. نعم نغفر لهم ، ومن الآن نعدهم بالعفو والمغفرة والأمان ، حتى تصبح فكرة تخليهم عن النظام واردة عندهم ، وبخاصة عندما يتبين لهم أن الأمل في بقائه ضعيف ، طالما أنهم لن يكونوا أسرى ماضيهم ، وسيمنحون الفرصة ليبدؤا حياة جديدة كمواطنين صالحين ، لهم ما لنا وعليهم ما علينا. لا تستهينوا بهذا العامل النفسي المهم الذي يجعل النظام معرضاً لأن يتخلى عنه المدافعون عنه في يوم من الأيام ، ولا تستهينوا بتأثير المطالبة بالمحاكمة والانتقام ولو من خلال محاكمات عادلة في جعل هؤلاء المدافعين عن النظام لا يتخلون عنه ، مهما بدى لهم أنه مهزوم وآيل للسقوط ، لأنهم وقتها لا يدافعون عن النظام بل يقاتلون ويقتلون الأبرياء دفاعاً عن أنفسهم ، ونكون نحن الذين

ألجأناهم لهذه الاستماتة في الدفاع عن النظام، مع ما تعنيه من خسائر ومعاناة كان من الممكن تجنبها.

في ديننا أحكام قد تبدو نوعاً من المثاليات، لكنها شرع من العليم الحكيم، لها غاياتها في تحقيق المصلحة لنا ودفع المفسدة، ولن يكون ذلك على حساب أسر الشهداء ولا المصابين ولا المغتصبات، بل يجب تعويضهم بسخاء من مال الأمة بعد الإطاحة بالنظام، التعويض المالي والمعنوي ماعدا الانتقام لهم، ويترك الانتقام للمنتقم الجبار الذي لا يضيع حقاً لأحد، وعلينا أن ننظر ونعتبر بالتاريخ القديم والحديث، لنرى إلى أي حد تحققت العدالة للذين قتلوا وعذبوا واغتصبوا خلال الحروب بعد أن هُزم المعتدون وحوكم بعضهم. هل يمكن اثبات التهم عليهم إن أنكروها؟ هل هنالك شهود عدول عليهم؟ هل هنالك أدلة وقرائن محفوظة تثبت جرائمهم؟ إن كنا نزعم أننا سنحاكمهم محاكمات عادلة المتهم فيها بريء حتى تثبت إدانته فلن نستطيع إثبات أكثر من واحد بالألف أو واحد بالمئة على أكثر تقدير من تلك الجرائم. لنكن واقعيين ولنتأمل هل تم القصاص لكل الضحايا في البوسنة والهرسك أو في رواندا، مع أن محكمة دولية تولت محاكمة المسؤولين عن تلك الجرائم؟ صدقوني ليست إلا عدالة رمزية لا تشفي الغليل على الإطلاق، وكما قلت سيكون ثمن الإصرار عليها باهظاً من أرواح ضحايا كان يمكن إنقاذها وتجنيبها القتل أو الإصابة أو الاغتصاب.

توبة تسقط الملاحقة القانونية

في ديننا حتى المجرمون قطاع الطريق لا يلاحقون بما ارتكبوا من قتل أو سرقة أو اغتصاب ، إن هم تابوا من قبل أن يقعوا في قبضة الدولة. هذا واضح في قوله تعالى: {مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ (32) إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (33) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (34)} { سورة المائدة}. وقد اجتهد كثير من علماء الأمة في تفصيل ما يسقط عن هؤلاء وما لا يسقط عند توبتهم قبل القدرة عليهم ، لكن الإمام الشوكاني وهو من أهم فقهاء الأمة أخذ بظاهر الآية فهو يقول في فتح القدير: { قوله: {إِلاَّ الذين تَابُواْ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُواْ عَلَيْهِمْ فاعلموا أَنَّ الله غَفُورٌ رَّحِيمٌ} استثنى الله سبحانه التائبين قبل القدرة عليهم من عموم المعاقبين بالعقوبات السابقة ، والظاهر عدم الفرق بين الدماء والأموال ، وبين غيرها من الذنوب الموجبة للعقوبات المعينة المحدودة ، فلا يطالب التائب قبل القدرة بشيء من ذلك ، وعليه عمل الصحابة. وذهب بعض أهل العلم إلى أنه لا يسقط القصاص وسائر حقوق الآدميين بالتوبة قبل القدرة ، والحق الأوّل (أي الحق أنها تسقط كلها) . وأما التوبة بعد القدرة فلا تسقط

بها العقوبة المذكورة في الآية ، كما يدل عليه ذكر قيد {قَبْلِ أَن تَقْدِرُواْ عَلَيْهِمْ}.

وقال الطبري في تفسيره: {عن عامر الشعبي أن حارثة بن بدر خرج محارباً ، فأخاف السبيل ، وسفك الدم ، وأخذ الأموال ، ثم جاء تائباً من قبل أن يُقدر عليه ، فقبل علي بن أبي طالب عليه السلام توبته ، وجعل له أماناً منشوراً على ما كان أصاب من دم أو مال}. وقال أيضاً: {حدثنا أسباط ، عن السدي قوله: " إلا الذين تابوا من قبل أن تقدروا عليهم" ، وتوبته من قبل أن يقدر عليه: أن يكتب إلى الإمام يستأمنه على ما قتل وأفسد في الأرض: "فإن لم يؤمني على ذلك ، ازددت فساداً وقتلاً وأخذاً للأموال أكثر مما فعلت ذلك قبل". فعلى الإمام من الحق أن يؤمنه على ذلك. فإذا أمّنه الإمام جاء حتى يضع يده في يد الإمام ، فليس لأحد من الناس أن يتبعه ، ولا يأخذه بدم سفكه ، ولا مال أخذه. وكل مال كان له فهو له ، لكيلا يقتل المؤمنين أيضاً ويفسد . فإذا رجع إلى الله جل وعز فهو وليه ، يأخذه بما صنع ، وتوبته فيما بينه وبين الإمام والناس . فإذا أخذه الإمام ، وقد تاب فيما يزعم إلى الله جل ثناؤه قبل أن يؤمنه الإمام ، فليقم عليه الحد}. أي إن ادعى أنه تاب من قبل أن يقبض عليه لا يؤخذ بكلامه ، ما لم يكن أعلن توبته قبل القبض عليه وأرسل للإمام أي الحاكم يعلمه بتوبته ويستأمنه.

إذن من قتل نفساً واحدة بلا حق كان في الإثم كمن قتل الناس جميعاً ، ومع ذلك من تاب من القَتَلَة قطاع الطريق وقد قتل قبل توبته العشرات من الأبرياء ، من تاب منهم قبل أن نقدر عليه ونأسره ، وكنا متأكدين من ذلك ، تسقط عنه في الدنيا المسؤولية والمحاسبة على ما فعل ، رغم أن ذلك يؤلم أهل المقتولين والمغتصبات والذين سرقت أموالهم ، لكن هذا لا يعني سقوط العقوبة عنه عند الله ، فالتوبة مهما كانت نصوحة وصادقة لا تسقط عن التائب حقوق العباد عليه ، ولن تسقط عنه إلا إن هو أعادها لأصحابها أو هم سامحوه بها. وهنا الحكمة واضحة من جعل هذا العفو القانوني الدنيوي عن جرائم بشعة جائزة للمجرم التائب تشجعه على التوبة ، وهذا الحكم مقصور على المجرمين المسلحين المحاربين للأمة ، التي هي المقصودة بقوله تعالى يحاربون الله ورسوله ، فالله جل في علاه لا يحاربه أحد ولا يقدر أحد لا على نفعه ولا على ضره ، إنما ما يكون لله يعود على الأمة ، كما نقرض الله عندما نتبرع بالمال لفقراء الأمة على سبيل المثال. الإسلام واقعي جداً وحكيم إلى أبعد الحدود ، ومن يعلم حدود قدرة الحكومات على ملاحقة قطاع الطرق هؤلاء ، وما تلقاه من صعوبة بالغة في القضاء عليهم واستئصالهم ، وما يكلف ذلك من مال وأرواح تزهق في محاربتهم ، لن يستغرب هذا الحكم الشرعي الذي شرعه الله ، لا حباً بهم ولا رضىً بما صنعوا ، بل ليشجعهم على التوبة والتوقف عن سفك الدماء وانتهاك الأعراض وترويع الآمنين. نترك لهم ما نهبوه ولانحاكمهم على ما ارتكبوه ، مقابل أن يكفوننا شرهم ويتوقفوا عن إجرامهم ، ولم يكلفنا الله أن نشق عن صدورهم لنتأكد هل توبتهم حقيقية وصادقة من القلب أم هي حيلة للتخلص من الملاحقة ، المهم أن يعلنوا

التوبة والعودة إلى حظيرة الأمة مسالمين لها يكفون أذاهم عنها من قبل أن يتم القبض عليهم ، وأمرهم إلى الله بعد ذلك.

ومرة أخرى هذا الحكم له نفعه للأمة إن طبقته ، بغض النظر عن كون هذا الذي يحارب الله ورسوله مؤمن أو كافر ، لأن التوبة الواردة في الآيات لم تقل كما هو الحال في مواقع أخرى تحدثت عن التوبة ، لم تقل إنهم تابوا وأصلحوا أو تابوا وأقاموا الصلاة وما شابه ، وهذا يعني أن التوبة المقصودة هي مجرد توبتهم من سلوكهم الإجرامي.

تغليب المصلحة على العاطفة

مرة أخرى يجب تغليب المصلحة على العاطفة ، ويجب تعويض من قتل أحد من أهله ، ومن اغتصبت ، ومن سرقت أمواله ، وغير ذلك ، التعويض السخي من مال الدولة ، لأن القانون أسقط عن هؤلاء الملاحقة كي يشجعهم على التوقف عن المزيد من الإفساد في الأرض ، وهذا لمصلحة الأمة ككل ، وعلى الأمة أن تعوض المتضررين.

ليس الذين يحاربون الله ورسوله كما جاء في هذه الآيات ، أقل سوءاً وإجراماً من الشبيحة والمخابرات وأعضاء الفرقة الرابعة وغيرهم من

العسكريين الذين يدافعون عن النظام، ولسنا أقل حاجة من الأمة المسلمة في الأحوال العادية لنقدم الإغراءات لهؤلاء المجرمين ليتوقفوا يوماً ما عن إجرامهم. علينا أن نكون أذكى من النظام وأن نطبق شرع الله في هذه المسائل التي نواجهها حالياً لنفوز بمنافعها، ولا نترك هؤلاء أسرى للنظام لا أمل لهم في الانفكاك عنه، مع أننا نكرههم ونكره ما يفعلونه كل يوم من فظاعات وجرائم تقشعر لها الأبدان، لكن الإقلال من الجرائم التي يمكن أن يرتكبوها قبل أن ننتصر عليهم يستحق منا أن نؤجل الانتقام منهم، وأن نحيلهم إلى الله الذي لا تضيع عنده الحقوق.

إن تشديد الثائرين على ما يسمى العدالة الانتقالية وعلى محاسبة من قتل ومن اغتصب له ضرره وهو مخالف لأحكام شريعتنا.

حكم الله خير

حتى ينقذ الغربيون اقتصادهم المهدد بالانهيار طبقوا أحكام الإسلام دون أن يقصدوا ذلك، فنفعتهم، وحتى تنجح ثورتنا في تغيير واقعنا المأساوي في سورية علينا أن نطبق أحكام الله هذه، بغض النظر عن كون الذين سنطبقها بخصوصهم مؤمنين أو كفاراً، لا يهم، فهي ستنفعنا في كلتا الحالتين. ولا يهم أن نطبقها تعبداً أو من أجل المصلحة التي يمكن أن

نحققها بتطبيقها ، فعلى كلا الحالين ستتحقق المصلحة ، وتبقى النية المخلصة شرطاً للفوز بالأجر والثواب من الله تعالى.

إننا إن قلنا: إن الأحكام المذكورة تُلزمنا بما يخص المؤمنين وتبقى لنا الحرية بما يخص الكافرين ، فإننا بذلك نفقدها تأثيرها في طوائف السوريين الذين يخشون على مستقبلهم إن سقط النظام وصار للإسلاميين السنة سلطة جزئية كانت أو كاملة ، وهم محقون في تخوفهم ، إذ ما يزال بعضنا يعمم النصوص التي جاءت في المشركين العرب زمن البعثة لتشمل كل من نعتبره كافراً ، مع أن صحابة رسول الله لم يطبقوها إلا على المشركين العرب في المنطقة التي فيها حالياً دول مجلس التعاون الخليجي ، وهم لم يعتبروا اليمن مشمولاً بها رغم أن العرب منه جاؤوا قديماً.

كما أدعوكم لقراءة مقالاتي الخمسة السابقة عن الثورة السورية فقد بينت فيها كيف أن ديننا يتسع لمفهوم المواطنة الذي يتساوى فيه المؤمن والكافر ، طالما أنهم مشتركون في وطن واحد وينتمون لأمة واحدة ، ولا أحب أن أكرر هنا ما قلته هناك ، لكنني أعيد التأكيد على أهمية أن تطمئن الطوائف في سورية على مستقبلها بعد زوال النظام ، ولا بد من أن نبذل الجهد الصادق لننجح في تطمينهم وجذبهم إلى الثورة ، لتكون ثورة لكل السوريين بمعنى الكلمة. ولن ننجح في ذلك إلا إن كنا صادقين فيما ندعيه ، وإلا إن نحن أعدنا النظر في بعض الأفكار التي ورثناها من أسلافنا ،

فنعود إلى نصوص الإسلام نفهمها مباشرة كما فهمها الصحابة ، ونراعي ما كان منها خاصاً بظروف تاريخية معينة ، بخلاف القواعد الكبرى التي تنطبق على كل زمان ومكان ، من مثل قوله تعالى: {لا إكراه في الدين}.

السلاح للدفاع فقط

لقد كان الجيش السوري الحر إضافة عظيمة للثورة السورية ، وبخاصة عندما أصر النظام إصراراً عنيداً غبياً على استفزاز السوريين ودفعهم إلى السلاح ، وذلك بلجوئه إلى اغتصاب النساء وإكراه الناس على النطق بكلمة الكفر ، ومن ثم تسريب ذلك في لقطات فيديو لتصل إلى الإنترنت ومنها إلى الفضائيات ، وأعتقد أن أغلب ما تسرب كان مقصوداً تسريبه لاستفزاز السوريين الأحرار ، الذين أصروا في البداية على تلقي الرصاص بصدورهم العارية وهم يهتفون لسلمية الثورة. السلمية أربكت النظام كثيراً ، فهو لا يعرف كيف يتعامل معها ، وقد استطاع أن يجرنا إلى الكفاح المسلح ظناً منه أنه سيقضي على الثورة بيسر وسهولة عندما تكون مسلحة ، لأنه لا يتورع عن ارتكاب أبشع الجرائم ، لكن حساباته كانت خاطئة ، فكلما أمعن في جرائمه ومذابحه ، زاد إصرار السوريين على التحرر منه مهما كان الثمن ، رغم غرور النظام وغبائه ، الذي لا يقل عن غرور صدام وغبائه ، يوم أوحت له أمريكا أنها لا شأن لها بما سيفعله إن هو احتل الكويت ، وكان ذلك فخاً له وغلطة تنتظرها منه ، لتحقق مخططاتها في المنطقة ، وأمريكا اليوم وغيرها يبعثون بالرسائل للنظام التي تشجعه على المزيد من البطش والإجرام في حق

الشعب السوري ، وهو يظن أنه مرغوب بقاؤه من أمريكا وإسرائيل ، وأنها أطلقت يده يفعل ما يشاء ليقضي على الثورة ، وفاته أنها تدفعه إلى الغرق في مستنقع آسن لن يخرج منه سالماً ، فهو مع كل جريمة جديدة يرتكبها يخسر من أنصاره والمخدوعين به في سورية وخارجها ، ولو كان يأمل في البقاء فإن ما يفعله عين الغباء ، إذ من يريد البقاء حاكماً لهذا الشعب الأبي عليه ألا يخلق الثارات والأحقاد في نفوس أبنائه ، أما إن كان يتوقع أن يرحل فعليه أيضاً لو كان يعقل أن يرحل برائحة طيبة كما يقول السوريون ، كي يحتفظ لنفسه ولأولاده بمكان آمن في هذا الوطن ، الذي سيكون من الصعب كثيراً عليهم أن يغادروه إلى غير رجعة.. النظام يعمل ضد ذاته سواء بقي أو زال ، وما ذلك إلا لأنه مكون من أناس لا يجيدون السياسة على الإطلاق ، وليسوا إلا شبيحة في بذلات أنيقة وسيارات فارهة ومكاتب فاخرة.

تسليح الجيش السوري الحر شيء مهم جداً ومطلب للثورة لا تنازل عنه ، لكن يجب ألا يكون ثمنه من استقلال سورية ، ولا على حساب وحدتها. والذي أخشاه أن يقع الجيش الحر ضحية خداع وتغرير من قبل الغرب إذ يشجعه على تحرير الأحياء والبلدات ورفع علمه عليها وإقامة حواجزه فيها ، مما يدفع النظام ، إلى استخدام الطيران والصواريخ والدبابات لقصف المناطق المحررة للتغلب على الجيش الحر فيها ، فتكون خسائر الجيش الحر وخسائر المدنيين رهيبة وتصبح المناطق المحررة في النهاية مهجورة من سكانها الذين تشردوا هنا وهناك. الجيش الحر يَعِدُهُ الغرب وبالذات الأمريكان أنه إن حرر مناطق مهمة فيمكن أن يفرضوا حظراً جوياً ،

ومن ثم تعلن مناطق عازلة ، تكون منطلقاً لتحرير سوريا كلها بدعمهم الذي لن يأتينا منه إلا النذر اليسير ، وبذلك يورطون الثورة في المزيد من الحرب الأهلية التي على المدى البعيد تحقق لهم أحلامهم في تقسيم المنطقة وربما وضع قواعدهم العسكرية فيها.

لنذكر كيف فرضوا حظراً جوياً على جنوب العراق وشماله منذ عام 1991 دون أن يكون هنالك مناطق محررة ، كما لنذكر كيف أن حظرهم الجوي هذا فشل في حماية أهل البصرة ، الذين بطش بهم صدام وجنوده عندما انتفضوا ، شر بطشة.. كانوا مدنيين ، وسحق المدنيين ممكن دون طائرات.. ولا ننسى ما عاناه الليبيون من صواريخ جراد التي كانت كتائب القذافي تقصفهم بها ، رغم الحظر الجوي والقصف المكثف الذي قامت به طائرات الناتو.

الدفاع خير

علينا أن نبدل استراتيجيتنا بأن نتحول إلى الدفاع فقط ، ونعود إلى المظاهرات والعمل السياسي السلمي والإعلامي النشط ، وأن يقتصر دور الجيش الحر على حماية المناطق الآمنة لا المحررة ، حمايتها من شبيحة النظام ومخابراته وعسكرييه ، مع الاعتراف للدولة من حيث هي كيان مؤسسي مدني ينظم حياة الناس أنها مازالت صاحبة الأمر وواجب لها

الطاعة في كل ما يخص سير الحياة اليومية للناس ، ونعود لنطالب بإسقاط نظام القمع والمخابرات التي تَعُدُّ على الناس أنفاسهم ، وتتدخل في جميع شؤونهم ، وتحرم عليهم أي نشاط مدني أو سياسي أو إعلامي لا يكون مكرساً لخدمة النظام وتحت رايته ، ولنطالب بالديمقراطية وبدولة مواطنة وقانون ، يتساوى فيها الجميع في الحقوق والواجبات على اختلاف أجناسهم وقومياتهم ولغاتهم وأديانهم وطوائفهم طالما هم سوريون.

النظام يغيظه جداً إعلان المناطق المحررة ، ويتعمد البطش بالأهالي وتجويعهم وقطع ما يملكه من حاجياتهم كالخبز والغاز والمازوت والكهرباء والماء والهاتف والانترنت ، وذلك ليعاقبهم على احتضانهم للجيش الحر ، على أمل أن يأتي اليوم الذي يُرْهقون فيه ويملون حياة الحصار والنزوح والخوف والفقر ، فيتخلون عن الجيش الحر وينقلبون عليه. علينا ألا نستهين بهذه الخطة الماكرة ، وألا ننسى أن الأهالي بشر لهم حدود للتحمل ، وهم وجدوا أنفسهم وسط الثورة دون أن يختاروا ذلك ، ودون أن يكونوا قد أُعِدوا لذلك من قبل ، لا نفسياً ولا فكرياً ، فثورتنا كانت مرتجلة ، والنظام بوحشيته لا يترك للثوار فرصة إعداد أحد ولا حتى أنفسهم ، لذا ما لم نفكر من الآن لنحتاط للأمر ، فقد يأتي اليوم الذي يتحقق فيه للنظام انقلاب الأهالي على الجيش الحر ، وهذا وارد جداً إذا طالت الأمور ولم يستطع الجيش الحر أن يحسم الصراع لصالحه ، وإذا استشعر الأهالي أن الأمل في الإطاحة بالنظام بسرعة قد خاب. لذا علينا تغيير استراتيجيتنا ، وبخاصة أن

تحرير المناطق مكلف جداً لنا ، ولا يمكننا الاحتفاظ بها إلا عندما تتحول إلى خرائب مهجورة من سكانها.

يريدون تقسيمنا

استراتيجية أمريكا وإسرائيل هي: إطالة الصراع في سورية ، وتوريط جميع الطوائف فيه ، وجر اللبنانيين إليه ، على أمل تفتيت سورية ولبنان إلى دويلات طائفية متناحرة ، فلا تقوم لسورية قائمة ولا بعد مئة عام. لذا هم سيمدون الثورة بما يبقيها مشتعلة ، لا بما ينصرها على النظام ، لأن إسرائيل تخشى من انتصار الثورة ومجيء حكم وطني ديمقراطي لن يكون صديقاً لإسرائيل ، ولن يبقى ساكتاً على حقوق السوريين في الجولان والفلسطينيين في فلسطين ، إذاً فليبق النظام ضعيفاً مستنزفاً ، فهو إما أن ينتصر على الثورة ، ويكون وقتها منهكاً ومكروهاً من الغالبية العظمى من السوريين ، وبالتالي يكون مستعداً لأن يقدم لإسرائيل أكثر بكثير مما قدم من قبل ، وإلا فليتحقق حلم إسرائيل في تقسيم سورية ولبنان بعد أن أنجزت تقسيم العراق.

يجب ألا تغرنا أعذارهم وحججهم بأن المعارضة السورية غير موحدة ، وبأن الجهاديين دخلوا على الخط ويحاولون اختطاف الثورة ، وبأن روسيا

والصين تعيقان جهودهم لنصرة الشعب السوري ، فلو أرادوا أن يفعلوا لأعدوا لذلك عدته ، ولما صعب عليهم رغم كل ما يقولونه من حجج وأعذار.

هم يريدون من الثورة تنازلات لصالح إسرائيل أعتقد أنه لن يجرؤ أحد من المعارضة أو الثورة على إعطائها ، فالسوريون ذاقوا طعم التحرر من الاستعمار الأجنبي ولن يعودوا إليه ، وهم اليوم يسعون للتحرر من الاستعمار الداخلي ، الذي أذلهم نصف قرن من الزمان. السوريون أغلبهم قومي النزعة ، أو إسلامي ، وليس فيهم من هو على استعداد لأن يتعاون مع إسرائيل على حساب استقلال البلاد وكرامتها ، ولو كان المقابل ترك النظام يسقط. نريد إسقاط النظام ، ولكننا لا نريد إسقاط الدولة ، ولا نريد التحول إلى الفوضى والحرب الأهلية ، و ما تجره من آلام ومآسٍ يكون الخلاص منها في التقسيم. لا تستقيم حياة الناس دون دولة تنظمها ، ورغم عيوب دولتنا فإنها يقيناً خير من الفوضى. لذلك علينا أن نحافظ عليها ، ونحرص على بقاء مؤسساتها المختلفة من وزارات ومحاكم ومدارس ومؤسسات استهلاكية وجامعات ومعامل قطاع عام وشرطة سير وموظفي الماء والكهرباء ، وغير ذلك مما لا يمكنني عده الآن ، ولو كان ثمن ذلك أن نتخلى عن نشوة الفوز التي نحس بها عندما نعلن تحرير مناطق وبلدات. نحن لا نحارب الدولة وإن كانت دولتنا تعاني من فساد كثير من موظفيها من أصغرهم إلى أكبرهم ، لأن فسادهم ناتج عن ممارسات النظام الأمني الذي يسخر كل شيء من أجله ، ويقرب إليه الذين ينافقون له ، ويضطهد المخلصين للبلد ، ما لم

يوالونه ويوافقونه على أخطائه ويكون إخلاصهم له مقدم على إخلاصهم للبلد.. نحن نحارب النظام الذي أفسد الدولة وحولها إلى خادم له ولأطماعه.

صحيح أن إيران وفرنسا وروسيا ضد هذه الاستراتيجية الهادفة إلى تفتيت المنطقة ، لكن التقسيم وقيام دويلات طائفية تواليهم خير لهم من فقدان كل شيء ، إن انتصرت الثورة وبقيت البلاد موحدة يحكمها أبناؤها المخلصون المنتخبون ديمقراطياً. فكما وافق تقسيم العراق هوى إيران فشاركت فيه ، فإن تقسيم سورية ولبنان ، إن تعذر بقاء النظام مسيطراً عليهما بكاملهما ، يعني قيام دولة علوية ودولة شيعية ، كلاهما ولاؤه لإيران مضمون وغير محدود ، وإيران كدولة ذات مطامع وطموحات في المنطقة لا تبالي بمعاناتنا ، إنما يهمها تحقيق مصالحها ولو على حسابنا. وفرنسا ليست الأخرى أحرص علينا من إيران ، ولئن استحال عليها الاحتفاظ بكامل سورية ولبنان منطقة نفوذ لها ، فإن التقسيم يضمن لهل ولاء دولتين طائفيتين هما الدولة العلوية والدولة المسيحية ، وكما قال فقهاؤنا ما لا يدرك كله لا يترك جله ، والعاقل لا يترك القليل إن استحال عليه الاحتفاظ بالكثير ، إنما تؤخذ الدنيا غلاباً. أما روسيا فأعجز من تقف في وجه مشاريع إسرائيل وأمريكا في منطقتنا وقوفاً ثابتاً لا تراجع فيه.

علينا ألا نشكك بنوايا المعارضين والثوار الذين يخالفوننا بالرأي ، حتى إن كانت آراؤهم تلتقي مع رغبات النظام مثل رفض التدخل الخارجي

العسكري ، فليس كل من يرفضه عميل للنظام ، وعلينا أن نتيقن أننا إن شاء الله تعالى سنسقط النظام إن نحن غيرنا استراتيجيتنا وتحولنا إلى إعلان مناطق آمنة لا مناطق محررة ، وتحولنا من الهجوم والدفاع إلى الدفاع فقط. ومن المعروف عسكرياً أن الدفاع أهون وأقل كلفة ، وينجح بما يتيسر من السلاح ، وبذلك لا نكون مضطرين لتقديم التنازلات لأحد من أجل الحصول على الأسلحة المتطورة ، وكلما استغنينا عنهم كلما فرضنا عليهم شروطنا ، فهم دائماً يخشون أن ننتصر وتخرج الأمور من يدهم ، لذا يحافظون على العلاقة معنا والتظاهر أنهم يدعموننا وأنهم مستعدون لتقديم المزيد ، كي يكسبوا معنا جميلاً ، نرده لهم إن انتصرنا وفاجأناهم بانتصارنا من دونهم ، وهذه الاستراتيجية ستكون أرحم بالأهالي بخاصة أن النظام لن يكون حريصاً على قصف المناطق الآمنة التي نعلنها كما هو حريص على قصف المناطق المحررة ، وإن هو قصف المناطق الآمنة التي تعترف بسلطة الدولة في جميع النواحي المدنية فإنه سيخسر كثيراً من الناحية الأخلاقية حتى أمام أنصاره ، وسيقل احتمال أن ينقلب الأهالي على الجيش الحر بفعل الدمار والتشريد الذي يوقعه بهم النظام ، لأنهم سيرون بوضوح ، أن ما يقوم به النظام من جرائم ضدهم لا يبرره شيء على الإطلاق ، وأن الجيش الحر لا يعتدي على أحد ، إنما هو يحميهم من بطش الشبيحة والمخابرات والجيش.

التأمين بدل التحرير

سياسة الهجوم التي يتبعها جيشنا الحر حالياً تجعل جرائم النظام وقصفه للمناطق المحررة مبرراً في نظر الكثيرين ، والنظام كما نذكر جميعنا ادعى وجود جماعات مسلحة منذ بداية الثورة ، كي يقنع أنصاره ويبرر أمامهم وحشيته وجرائمه ، فهم بشر ولا يخلون من الحس الأخلاقي والقيم الإنسانية. فلو تحولنا إلى الدفاع ، وعدنا إلى النشاطات السلمية ، واعترفنا بالدولة من دون النظام الأمني ، فسنحرمه من المبررات التي يجدها في عملياتنا العسكرية الحالية.

ثم إن استراتيجية الهجوم واستهداف العسكريين الذين أكثرهم مجبرون ، يحولهم إلى أعداء للثورة ، لأنها لا تقدر ظرفهم ولا ترحمهم ، بل تقتلهم وتباهي بذلك ، نحن بحاجة إلى كسب قلوبهم وتعاطفهم ، وعلينا إن استسلم لنا أحدهم أو أسرناه أن نتلطف به ، لا أن نقتله ونباهي بذلك ، فيضطر غيره من بعده إلى الاستماتة في معاركه معنا ، لأنه يعلم أن الأسر يعني الموت ، وحب الحياة فطرة عندنا جميعنا.

ولنكن صرحاء مع أنفسنا فنراجعها وننتقدها كي نصحح أخطاءنا ونتعلم منها. المعروف للجميع أن الاستراتيجية المثلى في حروب العصابات والمقاومة الشعبية هي "اضرب واهرب" ، كي تجعل العدو مستنفراً باستمرار

لا يقدر على الراحة والاسترخاء أبداً لأنه لا يعلم متى تأتيه الضربة المؤلمة ، أما الثوار فيضربون ثم يختفون يتحينون الفرص لضربات جديدة ، وهكذا مع الوقت يرهق العدو ويستنزف ويصبح مستعداً لتقديم التنازلات التي يسعى إليها الثائرون. وكلنا يعلم أن من الخطأ في حروب العصابات والمقاومة الشعبية محاولة الاحتفاظ بأي أرض ، لأن ذلك يستوجب حمايتها وحماية سكانها من بطش النظام ، ويستوجب تأمين حاجات الناس فيها ، ويستلزم الموت من أجل الاحتفاظ بها ، وليس خافياً أن القوى غير متكافئة في سورية بين الثورة الشعبية والنظام الذي يملك جيشاً منظماً وطيراناً وصواريخ ومدفعية وحتى أسلحة كيماوية ، وهو يحارب معركة وجود أو فناء بالنسبة له ، ولا يلتزم بأية ضوابط أخلاقية أو دينية أو قانونية ، ولن يتورع عن أي شيء في سبيل البقاء والنجاة والمحافظة على مكتسباته.

أرى أن تحرير المناطق استراتيجية غير موفقة ، وأن الظن أن النظام سيسقط بهذه البساطة ظن خاطىء ، فهذه الاستراتيجية ستستنزف قوانا بينما قوى النظام متجددة ، فهو يجند شباب سورية من جميع الطوائف ويزج بهم في المعركة ، ولا يهمه من يموت منهم فكل يوم لديه مجندون جدد من أبنائنا ، لذا لن يؤلمه كثيراً أن نقتل كل يوم العشرات من الجنود ، فهم ليسوا أبناء عمته ولا أبناء خالته ، هم أبناؤنا نحن وأغلبهم مُكْرَه على القتال ضد الثورة لكنه ضعيف غير قادر على الانشقاق. المهم ليس كسباً أن نقتل المزيد من أبنائنا المغلوبين على أمرهم ، ونحن نظن أننا قد أصبنا النظام إصابات مؤلمة حقاً ومؤثرة.

إن إعلان المناطق المحررة يشكل عبئاً ثقيلاً على الثوار ، ولا كسب منه يستحق كل الجهد المبذول فيه ، إذ لا يهم أي يكون العلم المرفوع بنجمتين أو بثلاث نجمات ، ولا يهم أن تسير حياة الناس اليومية تحت راية الجمهورية العربية السورية أو تحت راية الائتلاف الوطني أو الحكومة المؤقتة طالما أن معيشة الناس ستكون مؤمنة أكثر والثوار متفرغين للحماية والنضال السلمي أكثر. المناطق المحررة تحتاج من الثورة الحماية والكفاية ، أما المناطق الآمنة فتحتاج إلى الحماية فقط ، والجيش الحر أهون عليه القيام بواجب الحماية ويربكه كثيراً مسؤوليته عن كفاية المناطق المحررة وتأمين احتياجاتها المعيشية. إن تحرير مناطق والدفاع عنها بوصفها مناطق محررة استهلك كل الطاقات ، فتراجع النضال السلمي من مظاهرات واضرابات وإعلام تراجعاً كبيراً ، وصار كل الأمل معقود على الحسم العسكري ، والانتصار على النظام بالسلاح وحده.

الحروب قد تطول دون أن تنحسم ، وبخاصة عندما يكون هنالك من يمد هؤلاء وهؤلاء ليستمروا في القتال والدمار ، حتى يأتي اليوم الذي نرضى فيه بالتقسيم ، بل قد نطالب به مطالبة ، ونسعى إليه بكل طاقتنا. الحرب الأهلية اللبنانية استمرت خمسة عشر عاماً ولم تنحسم لصالح أي من الطوائف المتحاربة ، رغم الدمار والقتل الرهيبين الذين عانى منهما لبنان واللبنانيون ، والحرب بين شمال السودان وجنوبه استمرت أكثر من أربعين

عاماً على فترتين ولم تنحسم حتى رضي الشمال بالتقسيم، والفوضى والحرب الأهلية في الصومال مستمرة من أكثر من عشرين عاماً رغم أن الصوماليين كلهم تقريباً طائفة واحدة، فكل قبائلهم من أصل عرقي واحد، وكلهم تقريباً مسلمون، وكلهم تقريباً سُنَّة، وكلهم تقريباً شافعيون، ولا يفرقهم إلا انتماء كل منهم إلى قبيلته وعصبيته لها، مع وجود مئات قليلة من المسيحيين والشيعة. أي أن ما يوحد الصوماليين أكثر بكثير مما يوحد السوريين، ومع ذلك نجحت الفتنة لديهم في تدمير الدولة وقتل مئات الألوف إن لم يكن الملايين، سواء بالسلاح أو بالمجاعات. فهل لو وصلنا إلى الحرب الطائفية بين مكونات الشعب السوري واللبناني سنكون أحس حالاً؟

استراتيجية الصراع الداخلي

لا تخلطوا بين الاستراتيجية التي تصلح لمحاربة عدو خارجي وتلك التي تصلح لمقاومة عدو داخلي، فإن الحكمة تكون في وضع كل شيء في موضعه المناسب، ولْنُجْرِ حسبة بسيطة في أذهاننا، فحتى لو استطاع الثوار أن يقتلوا كل يوم مئة من جنود النظام، أي ثلاثة آلاف كل شهر، وستة وثلاثين ألفاً في السنة، فلن يأتي يوم لا يبقى فيه لدى النظام رجال يقاتلون دفاعاً عنه. النظام غبي في أمور السياسة، لكنه مجرم وماكر فيما سواها، وهو يدفع بالمجندين من أبنائنا ومن كل طوائفنا ويجعلهم في المقدمة، لأن خسارة أي عدد منهم لا تؤلمه، فهو قادر على تعويضهم بما

يسحبه للتجنيد الالزامي من شباب الأمة كل يوم ، وقد يستدعي الاحتياط ويزج بهم في معركته ضد الثورة ، وهو يحرص على أن تكون خسائره من الرجال المخلصين له أقل ما يمكن. ومن ناحية أخرى فكما دخل الجهاديون غير السوريين على الخط وجاء الكثير منهم ليقاتل مع الثورة ، فإن النظام يستغل مشاعر الشيعة بكافة طوائفهم ، وسيجد منهم جهاديين يتصورون أنهم إن ماتوا دفاعاً عنه ، ماتوا دفاعاً عن آل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم. إن النظام ومن يدافع عنه من أبناء الطائفة العلوية لا ينتمون إلى التشيع إلا بالاسم ، فهم ليسوا متدينين أبداً ، ولا يصلون ولا يصومون ولا يحجون ولا يزكون ولا يبنون المساجد في قراهم ، لكن سياسة إيران رغم أنها لا تعترف بهم كشيعة حقيقيين ، وحرصاً منها على مصالحها ، ستجعل الفتاوى بوجوب الدفاع عن هذا النظام على أنه دفاع عن آل البيت وشيعتهم تنهمر على جماهير الشيعة في المنطقة ، وسيكون هنالك مغررون كثيرون من إخوتنا الشيعة في المنطقة كلها على اختلاف فرقهم مستعدين أن يضحوا بأموالهم وأرواحهم دفاعاً عن النظام السوري ، الذي لا يؤمن بدين إلا دين استكباره على باقي السوريين واستغلاله لخيرات البلاد واستخدامه لباقي العباد.

من أجل المكاسب السياسية يتم استغلال المتدينين من كافة المذاهب ، ويزج بهم في معارك يحسبونها جهاداً في سبيل الله ، وهم لا يدرون أن المصالح السياسية وحدها هي الغاية ، ولا يدركون أنهم ضحايا للنظام من نوع آخر.

إنه لا في الثورات ولا في الحروب يكون الحسم عسكرياً محضاً ، اللهم إلا عندما تكون هنالك قوة ساحقة تجعل العدو يستسلم دون قيد أو شرط ، كما استسلمت اليابان لأمريكا بعد قنبلتين ذريتين أبادتا كل شيء في هيروشيما وناكازاكي. لذا علينا أن نعود إلى السياسة والوسائل السلمية ونعتبرها هي الأصل ، وهي وسيلتنا الأولى للإطاحة بالنظام ، وتبقى القوة العسكرية لمجرد الدفاع عن الأنفس والأموال والأعراض. يجب أن نسعى لإسقاط النظام مع المحافظة على الدولة وعلى وحدة أراضيها ، وإلا لكان الأولى بنا ألا نثور ، بل نصبر وننتظر حتى يأتي الفرج من عند الله. نريد إصلاح بناء بلادنا ، لا هدمها أولاً ثم بناءها ، فالهدم سهل لكن إعادة البناء شاقة وتحتاج للكثير ، فلنسعَ إلى تخليص سورية من نظام القمع والإذلال والاستئثار بالخيرات ، لنوجد نظاماً يدافع عن حريتنا وكرامتنا ويضمن لكل السوريين المساواة والعدالة وتكافؤ الفرص ، وهذا لا يستلزم هدم الدولة وإعادة بنائها من جديد ، إنما هو إصلاح للدولة السورية القائمة ، واستئصال للمفسدين فيها الذين ندعوهم بمجموعهم النظام. النظام شيء غير الدولة ، والنظام في سورية هو العدو وليست الدولة ككيان من مؤسسات وتشريعات تنظم معيشة الناس وتسعى لتأمين حاجاتهم. نريد إصلاح دولتنا ولا نريد تدميرها على أمل إنشاء دولة مكانها تكون كما نحلم ، لأنه إن هدمنا دولتنا الحالية تحولنا إلى الفوضى وشريعة الغاب ولن نستطيع أن نوجد النظام من قلب الفوضى. علينا أن نحافظ على الدولة السورية ونسعى في إصلاحها لأن ذلك أهون كثيراً جداً من هدمها والعمل على إنشاء دولة جديدة. لقد اهتزت الأرض من تحت النظام السوري الذي لم يخطر له ببال أن يرى في سورية شيئاً مما شهدته بلدان عربية أخرى من ثورات ، واستطاعت الثورة أن تقضي

على هيبته في عيون السوريين ، وهذا يكفي وعلينا العودة بالثورة إلى مسارها الأصلي ثورة سلمية ولكل السوريين وإن كانت محمية بالسلاح.

بلا سلاح لا يكون خروجاً

ولا بد لي من الرد على شبهة أثارها الدكتور البوطي وهو يحاول حماية النظام حتى من مجرد المظاهرات السلمية المطالبة بالحرية ، وهي ادعاؤه أنها مع باقي أشكال العصيان المدني خروج على حاكم لم يجاهر بالكفر البواح الذي عندنا فيه من الله برهان. صحيح ما يقوله من أنه لا يجوز الخروج على الإمام أي الحاكم أو السلطان ما لم يستعلن بالكفر الذي لا تأويل له ولا شك فيه ، لكن الخروج المقصود بالتحريم هو التمرد والثورة المسلحة ، حيث لا ترد عبارة الخروج على السلطان أو الإمام في كتب التراث ولم يوصف بها فعل إلا حمل السلاح والثورة العنيفة على الحاكم ، وكان الأمر بديهياً للمسلمين القدامى لدرجة أن معجماً موسوعياً مثل لسان العرب لم يفصل في شرح معنى الخروج على السلطان رغم أنه خصص حوالي ألفي كلمة لتبيين معاني خَرَجَ ومشتقاتها ، ومثله القاموس المحيط ومختار الصحاح ، لكن معجم اللغة العربية المعاصرة يقول: {خرَجَ على الحاكم: تمرّد وثار عليه ونبذ طاعته - خرَج عليه: برز لقتاله}. إذ لم يكن الناس يعرفون أسلوب اللاعنف والعصيان المدني والمظاهرات السلمية في النضال من أجل التغيير السياسي ، إنما كان خروج المسلمين على حكامهم دائماً مسلحاً ، وهجومياً مبادراً في كل مرة ، وكان دائماً يبدأ بنزع الاعتراف بشرعية

الحاكم بتأويل فقهي أو غيره ، وينطلق محاولاً الإطاحة به بقوة السلاح. هذا هو الخروج على الحاكم أو السلطان أو الإمام ، ولن يصعب على أي منكم أن يبحث من خلال الغوغل أو غيره ليستعرض ما قيل عن أمثلة الخروج في تاريخنا ، ليتأكد من أن المقصود به كان دائماً الخروج الهجومي المسلح المبادر ، وحتى حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم يؤكد هذا المعنى للخروج على السلطان أو على الأمة فقد روى مسلم في صحيحه عن عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ، عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم أَنَّهُ قَالَ: «مَنْ خَرَجَ مِنَ الطَّاعَةِ ، وَفَارَقَ الْجَمَاعَةَ ، فَمَاتَ ، مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً. وَمَنْ قَاتَلَ تَحْتَ رَايَةٍ عُمِّيَّةٍ ، يَغْضَبُ لِعَصَبَةٍ ، أَوْ يَدْعُو إِلَى عَصَبَةٍ ، أَوْ يَنْصُرُ عَصَبَةً ، فَقُتِلَ ، فَقِتْلَةٌ جَاهِلِيَّةً. وَمَنْ خَرَجَ عَلَى أُمَّتِي ، يَضْرِبُ بَرَّهَا وَفَاجِرَهَا. وَلاَ يَتَحَاشَ مِنْ مُؤْمِنِهَا ، وَلاَ يَفِي لِذِي عَهْدٍ عَهْدَهُ ، فَلَيْسَ مِنِّي وَلَسْتُ مِنْهُ». وفي رواية لنفس الحديث في مسند أحمد عن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلّم يقول: «من فارق الجماعة وخرج من الطاعة فمات فميتته جاهلية ، ومن خرج على أمتي بسيفه يضرب برها وفاجرها ، لا يحاشي مؤمناً لإيمانه ولا يفي لذي عهد بعهده فليس من أمتي ، ومن قتل تحت راية عمية يغضب للعصبية ، أو يقاتل للعصبية ، أو يدعو إلى العصبية فقتلة جاهلية».

الطاعة الواجبة

كما روى مسلم في صحيحه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «إِنَّهُ يُسْتَعْمَلُ عَلَيْكُمْ أُمَرَاءُ. فَتَعْرِفُونَ وَتُنْكِرُونَ. فَمَنْ كَرِهَ فَقَدْ بَرِىءَ. وَمَنْ

أَنْكَرَ فَقَدْ سَلِمَ. وَلكِنْ مَنْ رَضِيَ وَتَابَعَ» قَالُوا: يَا رَسُولَ اللّهِ أَلاَ نُقَاتِلُهُمْ؟ قَالَ: «لاَ. مَا صَلَّوْا» وفي مسند أحمد قال رسول الله صلى الله عليه وسلّم: «يكون عليكم أمراء تطمئن إليهم القلوب، وتلين لهم الجلود، ثم يكون عليكم أمراء تشمئز منهم القلوب، وتقشعر منهم الجلود، فقال رجل: أنقاتلهم يا رسول الله؟ قال: لا، ما أقاموا الصلاة».

وروى مسلم في صحيحه عن عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ قَالَ: دَعَانَا رَسُولُ اللّهِ فَبَايَعْنَاهُ. فَكَانَ فِيمَا أَخَذَ عَلَيْنَا، أَنْ بَايَعَنَا عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ، فِي مَنْشَطِنَا وَمَكْرَهِنَا، وَعُسْرِنَا وَيُسْرِنَا، وَأَثَرَةٍ عَلَيْنَا. وَأَنْ لاَ نُنَازِعَ الأَمْرَ أَهْلَهُ. قَالَ: «إِلاَّ أَنْ تَرَوْا كُفْراً بَوَاحاً عِنْدَكُمْ مِنَ اللّهِ فِيهِ بُرْهَانٌ». والمقصود بالأمر الذي علينا أن لا ننازع أهله عليه هو الحكم .. وفي رواية أحمد في مسنده للحديث نفسه: «بايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلّم على السمع والطاعة في العسر واليسر والمنشط والمكره ولا ننازع الأمر أهله، نقول بالحق حيثما كنا، لا نخاف في الله لومة لائم، - قال سفيان زاد بعض الناس- ما لم تروا كفراً بواحاً». وسفيان هذا هو راوي الحديث عن جده عبادة.

نعم الخروج على الحاكم المسلم بالسلاح لا يجوز إلا أن يُظْهِر هذا الحاكم الكفر الصريح الذي لا يختلف فيه المسلمون، لكن الطاعة الواجبة للحاكم بالمقابل ليست طاعة مطلقة وعمياء، فالأحاديث واضحة أنه لا طاعة إلا في معروف، وأن العصيان فريضة إن أمر الحاكم مسلماً كان أو غير

مسلم بمعصية. ومن جهة أخرى فإن إنكار المنكر في الإسلام واجب على كل مسلم ، كل بحسب استطاعته وسلطته ، فالذي له سلطة وحق الأمر في مجال من المجالات ، عليه أن يغير المنكر بيده فيما له فيه سلطان ، والذي يستطيع تغيير المنكر بلسانه ، أي بالكلمة ، سواء كانت مكتوبة ، أو مرسومة ، أو هتافاً في مظاهرة سلمية ، أو من خلال الفن التمثيلي ، أو الغناء ، أو أي وسيلة من وسائل التعبير باللسان ، أو بما يقوم مقامه كالإنترنت ، فعليه ذلك ، إلا إن خشي على نفسه أو أهله أو ماله أو عرضه من الأذى ، عندها يكون له الخيار: إن شاء أنكر المنكر وتحمل الأذى ، فكان مجاهداً ، وإن قتل فهو سيد الشهداء ، وإن شاء صبر وصمت وأنكر بقلبه ، وذلك أضعف الإيمان ، بينما هو ينتظر الفرصة المواتية لينكر المنكر بلسانه. قال صلى الله عليه وسلم فيما رواه مسلم في صحيحه: «مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ. فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ. فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ. وَذَلِكَ أَضْعَفُ الإِيمَانِ». وروى أحمد في مسنده عن النبي صلى الله عليه وسلّم أنه قال: «إذا رأيت أمتي لا يقولون للظالم منهم أنت الظالم فقد تُوُدِّعَ منهم». وفي رواية ثانية عند أحمد: «إذا رأيت أمتي تهاب الظالم أن تقول له: أنت ظالم ، فقد تودع منهم».

العصيان الواجب

نحن مأمورون بتغيير المنكر بيدنا في المجالات التي تقع تحت سلطتنا ، وبلساننا فيما عدا ذلك إلا أن نخشى على أنفسنا فبالقلب وحده ،

وهذا ينطبق على المنكر أياً كان الواقع فيه حاكماً أو محكوماً، أميراً أو مأموراً.. هذا وإن كان في قوانين الأرض للسلطان حصانة من الملاحقة القضائية ما دام على كرسي الحكم، فإن الإسلام لا يعطيه أية حصانة، ويوجب على الرعية أن تقوِّمَه، لكن دون استخدام العنف، وذلك بأن تنصحه، فإن لم يستجب تنتقده على رؤوس الأشهاد، فإن لم يستجب تضغط عليه بالطرق السلمية التي ابتكرتها البشرية من مظاهرات وملصقات وإضرابات وغير ذلك، فإن لم يستجب وكانت أغلبية الأمة تطالبه بالتغيير دون فائدة، تكون المطالبة بعزله وتولية غيره، لكن دون عنف.. وفي سبيل الضغط عليه كي يستقيم ويرفع ظلمه عن المظلومين لا بد من عصيانه، لأنه بالتأكيد سيأمر الناس أن لا يتظاهروا وأن لا يُضْربوا، فإن هم أطاعوه، يكونون قد قصروا في تغيير المنكر وإنكاره، ويكونون قد أطاعوه في معصية ومنكر، والرسول صلى الله عليه وسلم يقول فيما رواه مسلم في صحيحه: «لاَ طَاعَةَ فِي مَعْصِيَةِ اللّهِ. إِنَّمَا الطَّاعَةُ فِي الْمَعْرُوفِ». وقال فيما رواه أحمد في مسنده: «لا طاعة لمخلوق في معصية الله عز وجل». والرواية المشهورة لهذا الحديث هي: "لا طَاعَةَ لِمَخْلُوقٍ فِي مَعْصِيَةِ الْخَالِقِ".

والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر عبادة، وقربة إلى الله، وواجب على المؤمن قدر استطاعته وعلمه في جميع أحواله حاكماً كان أو محكوماً، يقول تعالى في آل عمران: {كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْراً لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ[110]}، ويقول في سورة الحج عن المؤمنين

إن صارت لهم دولتهم ومكن الله لهم في الأرض: {الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ[41]}. إذن كل صور الاحتجاج والضغط على الحاكم إن كان ظالماً أو مقصراً مشروعة ، إن لم تكن واجبة ومفروضة كفرض كفاية ، شريطة أن نمتنع عن العنف بكل أشكاله ، وإن كانت الأساليب المستجدة لم تعرفها البشرية في عصور الإسلام الأولى ولم تذكر فيما أمرنا به ، فإننا في الوقت نفسه لم نُنْهَ عنها ولم تحرم علينا ، والأصل في الأمور الإباحة إلا ما يثبت تحريمه بنص قطعي الثبوت قطعي الدلالة ، وبالتالي لا وجاهة لرأي من يطلب من الأمة أن تطيع حكامها في كل شيء عدلوا أم جاروا ، وتحرم عليها عصيانهم في أي شيء حتى لو أمروها بالسكوت على المنكر والظلم.

الدفاع بالسلاح ليس خروجاً

والخروج المحرم هو الانتفاضة المسلحة المهاجمة والمبادرة للقتال ، أما القتال دفاعاً عن النفس والأهل والمال والعرض فمشروع ، ومن يقتل فيه فهو شهيد عند الله ، وهو ليس خروجاً على الحاكم حتى لو كان مقاومة لعدوان جنده ورجال أمنه ، فالدفاع عن النفس حق لكل إنسان كائن من كان المعتدي عليه ، والحاكم ببيعة أو بلا بيعة لا يحل له أن يعتدي هو أو رجاله على أموال أو أعراض أو دماء أحد من رعيته ، والنظام في سورية وقبله في مصر واليمن وليبيا استعان بالمجرمين لقهر الناس وإخضاعهم ، ولو كان عدوان الحاكم على المحكوم تم بوسائل قانونية وبحكم قضائي لوجب

الطاعة دون مقاومة عنيفة ، بل تكون المقاومة السلمية باللسان وغيره كالعصيان المدني ، حتى رفع الظلم واستعادة الحق ، لقد أباح الله للمظلوم أن يفضح الظالم بكل وسائل التعبير غير العنيفة ، قال تعالى في سورة النساء: {لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظُلِمَ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا (148)}.

أما مع ما نراه من النظام من بطش غير منضبط لا بقانون ولا بشرع ولا بأخلاق ، بطش المجرمين القتلة واللصوص وقطاع الطرق ، فإن لنا الحق في الدفاع عن أنفسنا بكل الوسائل وحتى نموت في سبيله أو نرد العدوان ، والمخابرات والشبيحة والفرقة الرابعة وغيرها لا يتصرفون كما تتصرف الدول التي لتصرفاتها ضوابط مهما كانت هذه الضوابط فيها ثغرات ، لكن هؤلاء يحاربون الثورة بوحشية همجية غابت عنها كل معايير الانضباط والتقيد بنظام او قانون شأن الحكومات والدول ، وهو ما من أجله ودرءاً للفتنة حرم الله الخروج بالسلاح على الحكام وإن جاروا ، طالما أن الوضع ما يزال وضع سلطة منظمة تتصرف ضمن قانون معلن حتى لو كان قانون طوارىء ، فقانون الطوارىء رغم سمعته السيئة يبقى قانوناً ، لكن ما يمارس في سورية الآن هو الوحشية والفوضى واللانظام المنفلت من أية ضوابط أخلاقية أو قانونية ، وهذا يفقد النظام أي حق على الناس أن يطيعوه كما عليهم طاعة أميرهم حتى لو أخذ مالهم وضرب ظهرهم ، ولهم وقتها أن يقاوموا ظلمه بالوسائل السلمية ، كما جاء في الحديث الشريف الذي رواه مسلم في صحيحه عن حذيفة بن اليمان أنه قال: {قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللّهِ إِنَّا كُنَّا بِشَرَ.

فَجَاءَ اللّهِ بِخَيْرٍ. فَنَحْنُ فِيهِ. فَهَلْ مِنْ وَرَاءِ هَذَا الْخَيْر شَرٌّ؟ قَالَ: «نَعَمْ» قُلْتُ: هَلْ وَرَاءَ ذلِكَ الشَّرِّ خَيْرٌ؟ قَالَ: «نَعَمْ» قُلْتُ: فَهَلْ وَرَاءَ ذلِكَ الْخَيْرِ شَرٌّ؟ قَالَ: «نَعَمْ» قُلْتُ: كَيْفَ؟ قَالَ: «يَكُونُ بَعْدِي أَئِمَّةٌ لاَ يَهْتَدُونَ بِهُدَايَ ، وَلاَ يَسْتَنُّونَ بِسُنَّتِي ، وَسَيَقُومُ فِيهِمْ رِجَالٌ قُلُوبُهُمْ قُلُوبُ الشَّيَاطِينِ فِي جُثْمَانِ إِنْسٍ» قَالَ قُلْتُ: كَيْفَ أَصْنَعُ؟ يَا رَسُولَ اللّهِ إِنْ أَدْرَكْتُ ذلِكَ؟ قَالَ: «تَسْمَعُ وَتُطِيعُ لِلأَمِيرِ. وَإِنْ ضُرِبَ ظَهْرُكَ. وَأُخِذَ مَالُكَ. فَاسْمَعْ وَأَطِعْ»}..

الأمر بالطاعة وتحريم العنف هدفه درء الفتنة والفوضى والهرج ، والخروج بالسلاح محرم من أجل ذلك للمحافظة على السلم الأهلي. لكن النظام عندنا هو الذي ينشر الفتنة والفوضى والهرج ، لذا لم يعد النظام نظاماً ، بل هو عصابة من المفسدين في الأرض لنا الحق في دفعهم وحماية أنفسنا وأهلنا وأموالنا وأعراضنا ، وعلينا أن نتعاون في ذلك حتى لا يستفرد هؤلاء القتلة بأي منا لضعفه ، أي لا ننظر حتى يكون العدوان علينا شخصياً ، فالأمة كيان واحد يدافع عن نفسه ، لكنه يتقيد بالضوابط الشرعية والأخلاقية ، فلا يمارس أعمال الانتقام التي يتم فيها الاعتداء على من لم يمارس العدوان بنفسه ضد الأمة حتى لو كان المعتدي أباه أو أخاه ، أي ننتقم إن قدرنا من القاتل نفسه والمغتصب نفسه لا من زوجته أو ابنه أو أخيه أو قريبه ، نعم في الحروب بين الأمم يمكن أخذ الثأر من أي محارب ينتمي للعدو حتى لو لم يكن هو الذي ارتكب العدوان فقتل واغتصب وسلب.. أما في الصراع بين مكونات الأمة الواحدة فلا يمكن أن تزر وازرة وزر أخرى ، بل تبقى المسؤولية فردية ، وكل معتدٍ مسؤول عن عدوانه ،

يحمل الإثم ويتحمل العقوبة والانتقام وحده ، كما هو الحال في كل الأعمال الإجرامية التي يرتكبها الجناة ، فيحملون مسؤولية ما اقترفوه ولا ننتقم من غير الذي اعتدى كما كان حال العرب عندما يأخذون ثأرهم من أبناء عشيرة القاتل أو أسرته ، فهذه عودة إلى الجاهلية ستدخل البلاد والعباد في فتنة عظيمة يفرح لها أعدؤنا وتحقق لهم ما يتمنونه من تفتيت لبلادنا وأمتنا.

النظام دائماً يدعي أن هنالك مؤامرة على سورية كونية تريد الإطاحة به لصموده وممانعته ، ذلك أنه يرى نفسه هو سورية ولا يرى معه أحداً غيره من السوريين ، والحق أنه بالفعل هنالك مؤامرة من أمريكا وإسرائيل على سورية تهدف إلى دفعها إلى الحرب الأهلية الطائفية وتدميرها ثم تفتيتها ، وعلينا تفويت الفرصة عليهم ، لكننا على يقين أن النظام السوري ليس هو المستهدف بهذه المؤامرة.. هي مؤامرة على البلد وعلى الأمة ، وليست على النظام الذي يحقق لهم ما يريدون بقصد وغير قصد ، فيدفع الأمور بالاتجاه الذي يحبون لها أن تتجه إليه ، وهو بغبائه وضيق أفقه وتمسكه بمكاسبه شريك في هذه المؤامرة ، لأنه منذ البداية حاول تحويل الثورة من عصيان مدني سلمي إلى ثورة مسلحة طائفية ، إنه متآمر على البلد والأمة وليس أرحم بهما من إسرائيل وأمريكا عندما يتهدد وجوده ومكاسبه ، ألم يقولوا: الأسد أو لا أحد ، والأسد أو ندمر البلد؟.

الانتقام جائز

لقد مدح الله المؤمنين بأنهم إذا بُغِيَ عليهم أي أعتدي عليهم ظلماً "هم ينتصرون" أي يدفعون الظلم عن أنفسهم وينتصفون وينتقمون ممن ظلمهم ، ولا محاسبة لهم على ما ارتكبوه من انتقام وانتصاف طالما أنهم لم يعتدوا أي لم يكونوا هم البادئين ولم يعتدوا بأكثر مما اعتدي عليهم ، ولم ينتقموا ممن لم يعتد عليهم بنفسه أو يشارك في العدوان عليهم.. قال تعالى في سورة الشورى: {وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ (39) وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (40) وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ (41) إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (42) وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (43)}.. وواضح لنا في هذه الآيات الكريمة التشجيع على المغفرة والعفو مع إباحة الانتصار في وجه الظلم والبغي ، وعدم ذمه ، بل اعتباره مما يمتدح الله به المؤمنين. وابن منظور في لسان العرب يفسر كلمة انتصر بما يلي: {وانْتَصَر الرجل إذا امتنع من ظالِمِه. قال الأَزهري: يكون الانْتصَار من الظالم الانْتِصاف والانْتِقام ، وانْتَصَر منه: انْتَقَم}. لكن في جهاد كالذي نحن فيه في سورية ، علينا أن نضبط أنفسنا ، ونحتسب قتلانا وجرحانا ومصابينا عند الله ، لأنهم إنما أوذوا في سبيله ، ولا نسعى وراء الثأر والانتقام من غير المجرمين الذين اعتدوا علينا ، هذا إن لم نستطع الصبر دون الانتصار لأنفسنا والصبر خير وأحب إلى الله وأعظم أثراً في حسم الصراع لصالحنا.

نعم ندافع حتى الموت ، لكن نصبر بعد ذلك كي لا تتحول الثورة إلى ثارات تغلب عليها الطائفية ، إلا إن تمكنا من الانتقام من الشخص الذي اعتدى علينا بذاته ، لا من أهله أو من عشيرته أو بني طائفته. هذا مادام الصراع قائماً ، فإن حسم لصالحنا إن شاء الله ، عفونا كما أمرنا الله ، وأجرنا عليه ، وتعويضنا في الدنيا على الدولة والأمة.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما رواه البخاري ومسلم: «مَن قُتِلَ دُونَ مالِه فهو شَهيد». وقال فيما رواه أحمد في مسنده: «من قتل دون ماله فهو شهيد ، ومن قتل دون أهله فهو شهيد ، ومن قتل دون دينه فهو شهيد ، ومن قتل دون دمه فهو شهيد». وروى النسائي في سننه الصغرى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «مَنْ قُتِلَ دُونَ مَظْلَمَتِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ».كما روى مسلم في صحيحه عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ، قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ اللّهِ . فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللّهِ! أَرَأَيْتَ إِنْ جَاءَ رَجُلٌ يُرِيدُ أَخْذَ مَالِي ؟ قَالَ: «فَلاَ تُعْطِهِ مَالَكَ» قَالَ: أَرَأَيْتَ إِنْ قَاتَلَنِي ؟ قَالَ: «قَاتِلْهُ» قَالَ: أَرَأَيْتَ إِنْ قَتَلَنِي ؟ قَالَ: «فَأَنْتَ شَهِيدٌ» قَالَ: أَرَأَيْتَ إِنْ قَتَلْتُهُ ؟ قَالَ: «هُوَ فِي النَّارِ».

وهذه الأحاديث تثبت شرعية الدفاع عن النفس والمال والعرض بالسلاح وبدونه ، وإذا قتل المدافع فهو شهيد ، وله أن يقتل من يريد الاعتداء عليه أو على عرضه أو على ماله كائناً من كان ، وليس في ذلك شبهة

الخروج المحرم ولا الاقتتال الذي يكون القاتل فيه والمقتول في النار. فقد روى مسلم في صحيحه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إِنَّهَا سَتَكُونُ فِتَنٌ. أَلاَ ثُمَّ تَكُونُ فِتْنَةٌ الْقَاعِدُ فِيهَا خَيْرٌ مِنَ الْمَاشِي فِيهَا. وَالْمَاشِي فِيهَا خَيْرٌ مِنَ السَّاعِي إِلَيْهَا. أَلاَ، فَإِذَا نَزَلَتْ أَوْ وَقَعَتْ، فَمَنْ كَانَ لَهُ إِبِلٌ فَلْيَلْحَقْ بِإِبِلِهِ. وَمَنْ كَانَتْ لَهُ غَنَمٌ فَلْيَلْحَقْ بِغَنَمِهِ. وَمَنْ كَانَتْ لَهُ أَرْضٌ فَلْيَلْحَقْ بِأَرْضِهِ». قَالَ: فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَرَأَيْتَ مَنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ إِبِلٌ وَلاَ غَنَمٌ وَلاَ أَرْضٌ؟ قَالَ: «يَعْمِدُ إِلَى سَيْفِهِ فَلْيَدُقَّ عَلَى حَدِّهِ بِحَجَرٍ. ثُمَّ لْيَنْجُ إِنِ اسْتَطَاعَ النَّجَاءَ. اللَّهُمَّ هَلْ بَلَّغْتُ؟ اللَّهُمَّ هَلْ بَلَّغْتُ؟ اللَّهُمَّ هَلْ بَلَّغْتُ؟» قَالَ: فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَرَأَيْتَ إِنْ أُكْرِهْتُ حَتَّى يُنْطَلَقَ بِي إِلَى أَحَدِ الصَّفَّيْنِ، أَوْ إِحْدَى الْفِئَتَيْنِ، فَضَرَبَنِي رَجُلٌ بِسَيْفِهِ، أَوْ يَجِيءُ سَهْمٌ فَيَقْتُلُنِي؟ قَالَ: «يَبُوءُ بِإِثْمِهِ وَإِثْمِكَ. وَيَكُونُ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ». وهذا الحديث يدعو من أكره على المشاركة في الفتنة ولم يجرؤ على الانشقاق لأن يكون سلبياً ولا يرتكب أية جرائم ولو أدى ذلك لاستشهاده، فهو شهيد ويبوء قاتله بإثمهما معاً كما باء ابن آدم الأول الذي قتل أخاه.

هل فات الأوان؟

وقد يقول قائل إن هذا الكلام فات أوانه وانقضى، والثوار يحررون كل يوم مناطق جديدة، حتى خرج فاروق الشرع يعرض لأول مرة تسوية تاريخية بين النظام والثورة، وهذا دليل واضح على أن النظام يشعر بالهزيمة والعجز، بعد أن كان متغطرساً مستكبراً لا يعترف لا بثورة ولا بمعارضة إلا

على أنهم عصابات خارجة عن القانون وعملاء لدول متآمرة على سورية والسوريين ، وقد يجادل هذا القائل فيؤكد مستيقناً أن النظام سيسقط قريباً جداً ولا مصلحة للثورة في التفاوض معه ، وسيكون هو المستفيد من أي تفاوض أو حوار أو مرحلة انتقالية. صحيح أنه سيستفيد من ذلك لكنه لن يكون المستفيد الوحيد.. قد ينجح الثوار في السيطرة على تسعين بالمئة من الأرض السورية ومع ذلك لن ينهار النظام وسيبقى مصراً على قتل الناس وتجويعهم وتشريدهم وتدمير بيوتهم طالما لديه طائرات تقصف ومدفعية وصواريخ ، وقد تطول الحرب لسنين وتنهار الدولة لكن النظام مستمر ، فلا المناطق المحررة يعيش الناس فيها حياة طبيعية ، ولا المناطق التي يسيطر عليها النظام يمكن تطهيرها منه لطي صفحته إلى الأبد ، وهذا يعني أن تطول معاناة الناس وفقرهم وتشردهم وجوعهم وبردهم وتعطل مصالحهم ، فلا يكون هنالك حسم يمكنهم من استئناف حياة طبيعية ، بل يستمر القتل والتدمير ، ويعود الناس لحياة القرون الأولى الشاقة بلا ماء ولا كهرباء ولا وقود للتدفئة أو للسيارات ولا غاز لطهي الطعام ولا مدارس ولا جامعات ولا تجارات ولا صناعات ، فيشقى الناس ويرهقون دون أمل بحسم قريب. عندما يهدد حسن نصر الله أن المعارضة لن تنتصر بالسلاح وحده فهو يتحدث عن احتمال قائم بل برأيي هو الغالب ، حيث ستصل انتصارات الثورة العسكرية إلى حد تتوقف عنده ويستعصي النظام على القضاء عليه ويبقى متحصناً بمناطق قليلة ينطلق منها ليقصف ويدمر ويقتل ، وحيث يمنع عن المناطق المحررة كل ما يتحكم به من أرزاق وحاجيات لا غنى للناس عنها في هذا الزمان. كل خوفي أن ننساق وراء رغبتنا بالتخلص الكامل من النظام وكل ما له به صلة ، وننساق وراء أحلام غير واقعية أننا

بالسلاح القليل الذي بين أيدينا سنقضي على النظام قضاءاً مبرماً ونستأصله استئصالاً جذرياً ، فنرفض أي تفاوض معه ونستمر في القتال إلى أمد لا نعلم متى ينتهي. إن نجاحات الثورة المسلحة متعاظمة يوماً بعد يوم لكنها ستبلغ مداها الأقصى يوماً ما دون أن يسقط النظام ، اللهم إلا إذا تدخل الغربيون كما تدخلوا في ليبيا ، وهو ما لا يبدو وارداً حتى الآن والذي قد يكلفنا استقلالنا أو وحدة دولتنا وربما التنازل عن أرضنا المحتلة ، ثمناً لنصرتهم لنا. قال تعالى في سورة الأنفال: {وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآَخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ (60) وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (61)} أي أننا مدعوون من المولى تعالى أن نتجاوب مع أي ميل لدى العدو للسلم ما لم تكن خدعة ومكيدة ، وإننا إن جنحنا للسلم وفرضنا شروطنا أن لا تدخل القوات الأسدية بكافة مسمياتها مناطقنا الآمنة وأن يستأنف النظام تزويد هذه المناطق بكل ما يمنعه عنها من مقومات الحياة المعاصرة ، وعلى أن لا يقصفها لا بطائراته ولا بصواريخه ، ونرضى بمرحلة انتقالية يتم فيها نقل السلطة إلى حكومة منتخبة ديمقراطياً ، ولا نلاحق مجرمي النظام قضائياً بل نعطيهم الأمان حتى لو رغبوا في البقاء في سورية لكن لا يوكل إليهم شيء من الوظائف ، فإننا إن فعلنا ذلك ولم نتأخر فيه قطفنا ثمرة الانتصارات العسكرية التي حققتها الثورة ، أما إن كابرنا على أمل أن نفوز بكل شيء فالأغلب أننا سنضيع هذه الثمرة وندخل في حالة ركود قد لا تنتهي إلا بالتقسيم أو بالمجاعات.

بدأنا ثورتنا سلمية وكنا نتمنى أن تبقى سلمية ولم نكن نتوقع أنها ستنجح في الإطاحة الجذرية بالنظام ، وعلينا رغم الشهداء الكثيرين أن نرضى بمثل الذي كنا سنرضى به لو بقيت ثورتنا سلمية ، نعم نرضى به رغم الشهداء والجرحى والمغتصبات والمشردين ، لأننا نريد أن نحقن الدماء وننهي معاناة الأهالي ونعود للبناء والإصلاح ونحتسب كل ما أصابنا في سبيل الله دون أن يسقط حق المتضررين بالتعويضات السخية من مال دولتنا الجديدة. إن التغلب على عواطفنا والتصرف بحكمة وصبر ورحمة وغفران سيمكننا من تحقيق ما يمكن تحقيقه في هذه المرحلة وسيمكننا من حقن الدماء وتوفير المعاناة على ملايين السوريين. علينا أن نتذكر أننا لسنا نحن والنظام وحدنا نتصارع ، بل هنالك قوى دولية عديدة تتدخل لتحقيق مآربها ومصالحها وهي لن تسمح لنا أن ننتصر الانتصار الكامل الذي نتمناه. دماء الشهداء لم تذهب هدراً ، إذ لولاها لما قامت ثورة في سورية ، فجرائم النظام وحمقه دفعا السوريين إلى الثورة وهذا كسب عظيم ما كنا نحلم به قبل سنتين. اقطفوا ثمار انتصارات ثورتنا بالتفاوض والمساومة مع استمرار الضغط على النظام لانتزاع أحسن ما يمكن انتزاعه منه من تنازلات ، واحرصوا على بقاء الدولة وعلى عودة أهالينا إلى الحياة الطبيعية ، ولا تستعجلوا تحقيق الأهداف التي تنادون بها ، فحتى الثورة الفرنسية احتاجت إلى مئة عام من الكفاح بعدها لتتحقق أهدافها تحققاً فعلياً في الواقع. اقبلوا بالحلول التي تنهي هذه الأزمة وتريح السوريين مما يعانون منه الآن ، فليسوا كلهم مثلكم يسعون إلى الجنة من طريق الموت في سبيل الله ، بل

هم يريدون العيش الكريم والسعي إلى الجنة بالطرق الأخرى التي شرعها الله لهم.. هم يريدون الحياة لأنفسهم ولأولادهم وهذا مطلب مشروع وفطرة فطر الله الناس عليها ، فلا تضيعوا فرصة استعادتهم للحياة الطبيعية ، وبعد كل ما جرى فإن الساعة لن ترجع إلى الوراء ولن يقبل هذا الشعب الحر أن يعود إلى الذل والهوان ، فلا تخافوا إن جنحتم إلى السلم أن تندموا بعدها ، ولا تظنوا أن الثورة في مصر وتونس واليمن كانت مخطئة عندما رضيت بالتغيير الجزئي ، فإن ما حصلوا عليه دون الدماء التي أريقت عندنا والملايين التي تشردت أو جاعت أو عانت برد الشتاء القارس بلا جذوة نار تدفئهم لهو كسب رائع وكبير وما هو إلا جيل واحد وتتحقق لهم أكثر أحلامهم إن شاء الله. اذكروا دوماً دعوة نبينا صلى الله عليه وسلم لنا إلى الرفق في كل أمورنا وتنفيره لنا من العنف في كل صوره ، روى مسلم في صحيحه عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «يَا عَائِشَةُ إِنَّ اللّهَ رَفِيقٌ يُحِبُّ الرِّفْقَ . وَيُعْطِي عَلَى الرِّفْقِ مَا لاَ يُعْطِي عَلَى الْعُنْفِ. وَمَا لاَ يُعْطِي عَلَى مَا سِوَاهُ».

وختاماً لا بد لنا لتنجح ثورتنا وتحقق ما نريده نحن لا ما يريده النظام أو يريده أعداؤنا من أن:

- ✓ نحافظ على الدولة في سورية ونميز في كفاحنا بينها وبين النظام الذي نسعى للإطاحة به.

- ✓ نحافظ على وحدة السوريين كأمة لا يفرق بين مكوناتها عرق أو دين أو لغة ، فلا نثير ما يفرق طوائف السوريين ويحولهم إلى إخوة أعداء.

- ✓ نحرص على تخفيف معاناة الأهالي ما استطعنا فنحن لا ندري كم ستطول هذه المعاناة ومتى ستجعلهم ينقلبون علينا.

- ✓ لتكن مطالبنا واقعية ولنرضَ بالحلول الوسط حقناً للدماء وحفاظاً على وحدة بلدنا الحبيب. ولنعلم أن ما لا يتحقق لنا اليوم يمكن أن يتحقق لنا في المستقبل إن مضينا في نضالنا لكن دون المزيد من الدمار والقتل والتشريد.

- ✓ أن نذكر أن أول ما يقضى به يوم القيامة الدماء ، سواء كانت دماء مؤمنين أو دماء كافرين ، فالتي حبست هرة حتى ماتت جوعاً ستدخل النار ، فكيف بنا إن قتلنا بشراً ولم نكن متيقنين أننا نقتله بحق بغض النظر عن دينه وطائفته.

- ✓ ولنذكر أن القتال الوحيد في الحالة السورية الراهنة الذي لا شك في مشروعيته وفي استحقاق الشهادة لمن يموت فيه هو قتال

الدفاع عن النفس والأهل والمال والعرض ، لأن قواعد الجهاد ضد أمة أخرى معتدية علينا لا تنطبق على قواعد الجهاد ضمن المجتمع الواحد والأمة الواحدة مهما تنوعت مكوناتها.

- ✓ ولنذكر أن الهجوم ومبادرة الأعداء شيء حميد طالما كان عدونا من غير أمتنا ، لكن ضمن الأمة الواحدة (أقصد الأمة السورية) لا يحل لنا إلا الدفاع عن أنفسنا وأعراضنا وأموالنا ، ويكون أفضل الجهاد قولة حق عند سلطان أو حاكم جائر ظالم. وإن اختلاف مكونات الأمة السورية دينياً لا يلغى حق السوريين على بعضهم بعضاً بالتراحم والتعاون ، مثلما لا يلغي اختلاف الزوجين في الدين حق كل منهما بالمودة والرحمة ، حتى لو كان أحدهما بمنظور الآخر كافراً ، كما تكون الزوجة المسيحية عند زوج مسلم.

- ✓ مهما كان كرهنا للنظام ولمن يؤازره كبيراً يجب أن يكون حبنا لسورية الموحدة أكبر ، فلا ننزلق في الاعتقاد أن أي نتيجة ستكون خيراً من بقاء النظام ، حتى لو كانت تفتيت ودمار البلاد وقتل العباد وتشريدهم ، علينا أن نكون رحماء بأنفسنا وبباقي السوريين وأن لا نستعجل الأمور إلا إن ضمنا أن الثمن لن يكون فادحاً ، ولنذكر أننا لا نستأذن الأهالي ونحن نزج بهم في أتون المعركة ، لذا علينا بذل كل ما نقدر عليه لحمايتهم وتقليل مصائبهم بسبب الثورة ، وإن كانوا في

النهاية وعند انتصارنا سينتفعون بالنصر وزوال النظام من على صدورهم.

- ✓ لا يجرمنكم شنئان قوم على أن لا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

المقال السابع

احذروا تقسيم سورية

2013/07/18

القضية أكبر من دويلة علوية

وصلتني دراسة عنوانها: {الدولة العلوية بين الحقيقة والخيال.. نظام الأسد يبدأ برسم معالم دولته الجديدة}، وهي دراسة رائعة لكنني أختلف معها بنقطة هامة ، فأحببت أن أطلعكم عليها وعلى وجهة نظري المختلفة معها. لقد اعتبرت الدراسة حرص النظام منذ الأيام الأولى للثورة على تحويلها إلى صراع طائفي دليلاً على نيته إقامة الدولة العلوية. لكن لي تفسير مختلف لسعي النظام إلى تطييف الثورة منذ بدايتها.

كنت من أوائل من حذر من تحول الثورة إلى صراع طائفي تستغله إسرائيل ومن ورائها أمريكا لتحقيق حلم إسرائيل القديم وهو: تقسيم سورية ولبنان إلى دويلات طائفية متناحرة ، وتقسيم العراق إلى ثلاث دويلات: كردية وسنية وشيعية. حاولت إسرائيل أن تبدأ التقسيم من لبنان حيث

وجدت من الموارنة تعاوناً وحرصاً على إنشاء دويلة مسيحية في بيروت ، فكانت الحرب الأهلية اللبنانية التي امتدت خمسة عشرة عاماً من 1975 حتى 1989 حيث أنهاها اتفاق الطائف رسمياً لكنها استمرت بعده ربما أكثر من سنة. لم تنجح إسرائيل في مسعاها لتقسيم لبنان حيث وقف النظام السوري ومن ورائه فرنسا حائلاً دون أن تتغلب أية طائفة على غيرها. ومعروف أن الجيش السوري لم يقصر في إذاقة كل الطوائف اللبنانية من قصفه لمناطقهم دون رحمة. جاءت حرب الكويت لتعطي لفرنسا وسورية فرصة لا تعوض ، فتمنعت فرنسا ومعها سورية من الانضمام إلى التحالف الدولي ضد العراق ، حتى عقدوا على ما أعتقد صفقة مع أمريكا أن توقف دعمها لمشروع تقسيم لبنان مقابل انضمام سورية وفرنسا إلى التحالف ، كما ضمن الأسد الأب حياد إيران حيث سافر وقتها إلى طهران وأمضى فيها عدة أيام.

لم تتخل إسرائيل عن حلمها الاستراتيجي في تقسيم المنطقة لكن تحولت جهودهم إلى العراق وقد نجحوا في تقسيمه.

جاءت الثورة السورية ، ثورة حرية وكرامة ، وثورة سلمية حيث يتلقى الشباب رصاص النظام بصدور عارية وأيدٍ خالية من أي سلاح. لكن النظام كان حريصاً جداً على تحويلها إلى ثورة دينية طائفية مسلحة.. كان يريدها مسلحة لأن السلاح هو اللعبة الوحيدة التي يجيدها وبخاصة أن النية مبيتة

لديه أن يبطش بطش جبار لا يرحم كما رأيناه يفعل بعد ذلك وإلى اليوم. السلمية أربكته وأحرجته فبدأ يفقد أنصاره في الداخل والخارج لأنه كان يواجه المظاهرات السلمية بالرصاص الحي ، لذا كان تسلح الثورة يرفع عنه الحرج ، ويعطيه المبرر لمزيد من الوحشية ، بحجة أنه يواجه عصابات مسلحة جهادية أو متآمرة ضد سورية ، وبالتالي من حقه استخدام السلاح ضد الثورة المسلحة والبادىء أظلم كما يقال. بقذارته وجرائمه التي طالت النساء والأطفال والمقدسات الدينية ثم الأعراض ، وبروح الاستشهاد عند شباب الثورة ، تحول الصراع إلى صراع مسلح وكان للنظام ما أراد.

النظام يستغل العلويين

من جهة أخرى لم يكن مسعاه لتحويل الثورة من ثورة وطنية إلى ثورة طائفة ضد طائفة يهدف إلى إنشاء دولة علوية ، إنما لأن تحول الثورة إلى إسلامية طائفية مسلحة ، هي الوسيلة الوحيدة لبقاء النظام جاثماً على صدور السوريين جميعهم.

عندما كانت الثورة ثورة شعب مظلوم ومهان ضد نظام مستبد ومستأثر بخيرات البلد ، كان من الممكن أن ينضم إليها أبناء الأقليات كلها بما فيهم العلويون.

العلويون هم جند النظام الذي حرص على إبقائهم فقراء وقليلي العلم ليبقى منتهى طموح أكثر شبابهم هو أن يصبح جندياً أو عنصر مخابرات. النظام اعتمد على العلويين في الجيش والمخابرات لا لإنه نظام ديني يريد نشر عقيدة طائفته ، إنما لأنه لا يثق ولا يطمئن لغيرهم ولن يجد مخلصين له أكثر منهم بحكم أنهم عشائر تجمعها عصبية العربي لقبيلته ، إضافة إلا أنهم أبناء طائفة مميزة عن غيرها بمعتقدات خاصة.

النظام استخدم الطائفة العلوية واستفاد منها أكثر مما استفادت منه. وعندما بدأت الثورة كان من الممكن ان يشارك العلويون فيها لأنهم مثل باقي الطوائف يريدون ان تزدهر مناطقهم المهملة ويريدون حرية وديمقراطية حقيقية. كان الضمان الوحيد لبقاء الطائفة العلوية مع النظام تدافع عنه حتى النهاية ، هو ان تتحول الثورة من ثورة ضد النظام إلى ثورة ضد الطائفة العلوية ، أو على الأقل أن يعتقد العلويون أن الثورة هي ضدهم كطائفة وليست ضد النظام كنظام. عندها يرتبط مصير الطائفة بمصير النظام ولا يبقى لها خيار غير الاستماتة وراءه.

إضافة إلى ضمان ولاء العلويين وعدم انقلابهم على النظام فإن تحول الثورة إلى طائفية تقوم بها جماعات سلفية جهادية كما كان النظام يزعم كذباً من أول يوم ، يضمن له أن لا تنخرط الطوائف الأخرى بالثورة ، لأنهم

يخشون من حكم إسلامي يعاملهم كمواطنين درجة ثانية ، هذا إن لم يكسب النظام تأييد هذه الطوائف في صراعه مع الثورة. وهذا يفسر لنا أعمال الاستفزاز للمشاعر الدينية استفزازاً ما كان يخطر بالبال ، حيث صاروا يعذبون المعتقلين حتى يقولوا: (لا إله إلا بشار) ثم يفرجون عنهم ليخبروا أهلهم وأصدقاءهم. بل سربت لقطات فيديو بشكل متعمد تظهر جنود النظام ومخابراته يجبرون الناس على قول كلمة الكفر ، كل ذلك كي يستفزوا الشباب المتدين فيحمل السلاح ويعلنها جهاداً في سبيل الله ، فيزداد رعب العلويين وباقي الطوائف من سقوط النظام ووقوعهم تحت سيطرة الجهاديين.

الجهاد خدم النظام

كما كسب النظام الكثير عندما تحولت الثورة إلى جهاد استقطب آلاف الشباب المسلم من خارج سورية وداخلها ، وعندما بدأ الشحن ضد النظام على أساس طائفي وتكفيري ، الشيء الذي صوره النظام لشيعة الشرق الأوسط بكافة فرقهم ومذاهبهم على أنه هجوم على نظام حكم لأنصار وشيعة آل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأن دولاً معادية للشيعة والتشيع تقف وراء هذه الثورة ، فكسب النظام بذلك تعاطف وتأييد جميع شيعة البلاد المحيطة ، وهم كثيرون ولهم قوة أكبر بكثير مما يظنه أغلب السوريين. شيعة العراق وشيعة لبنان وشيعة السعودية والخليج وشيعة إيران وشيعة تركيا ، عشرات الملايين ورثوا من أسلافهم الشعور المزمن

بالاضطهاد من قبل السنة ، والاعتقاد أن السنة يكرهون آل البيت ولذلك يضطهدون شيعتهم ، فتقبل الجميع رواية النظام وادعاءه أنه ضحية مؤامرة دولية لأنه نظام ممانع في وجه إسرائيل ولأنه نظام شيعي ، علماً أن العلويين السوريين يكثر بينهم الملحدون ، وحتى غير الملحدين منهم ، وبحسب مذهبهم ، لا يصلون ولا يصومون ولا يحجون ولا يزكون ولا يبنون المساجد في مناطقهم ، على عكس الشيعة في الدول المحيطة بسورية الذين يغلب عليهم التدين والالتزام. بلغ تعاطف شيعة المنطقة مع النظام أن بدأ المتطوعون منهم يقاتلون معه ويموتون في سبيله. وكذلك كانت فتاوى آيات الله في إيران وغيرها عاملاً قوي التأثير على الشيعة ليدعموا النظام.

هذا كله جعل إسقاط النظام أصعب مما ظن الثائرون ، وبخاصة أن الجهات الدولية التي تدعم الثورة كانت وماتزال تدعمها بحيث تستمر ولا يستطيع النظام القضاء عليها ، لكن دون أن تكون قادرة على الحسم ، أي بحيث تستمر دون أن تنتصر ، لأن إطالة الصراع المسلح يخدم إسرائيل على المدى القريب والبعيد ويسير بالمنطقة نحو التفتيت. وهكذا تورطت الثورة السورية في صراع مسلح يغلب عليه الطابع الديني الطائفي ، وتحقق للنظام ما كان يسعى إليه.

كما جعل ظهور الجهاديين سواء منهم السوريون أو القادمون من بلاد أخرى وحديثهم عن دولة إسلامية في سورية يقاتلون من أجلها ، جعل الكثير من القوى الدولية تفضل بقاء النظام إلى أن يتوفر بديل عنه يكون موالياً ومخلصاً لأمريكا وإسرائيل ، مما سمح لحزب الله أن يدخل الحرب مع النظام دون خشية من أية ضربات إسرائيلية أو أمريكية تأتيه من الخلف وتستغل تورطه في سورية للقضاء عليه كقوة عسكرية تهدد إسرائيل.

التقسيم قائم

النظام حتى الآن مايزال حريصاً على سورية كلها وبخاصة دمشق وحمص تكون له ، ومايزال يقاتل لاستعادة كل المدن التي تحررت منه أو على الأقل تدميرها. المذابح التي ارتكبت في البداية كانت استفزازية للقضاء على سلمية الثورة ولجعلها طائفية مسلحة ، والمذابح الأخيرة كلها انتقامية بالدرجة الأولى ، وليست نوعاً من التطهير العرقي الطائفي. بالتأكيد إذا انهزم النظام فستكون الدولة العلوية ملاذه الأخير ، لكن حتى الآن هو لم يصل إلى هذه المرحلة ، والمناطق التي هجرها أهلها ليست فقط القرى والبلدات والأحياء التي يمكن أن تكون يوماً ما جزءاً من دولة علوية ، بل هي كل المناطق المحررة ، ولا أحد يعتقد أن دير الزور مثلاً داخلة في الحلم العلوي.

أعتقد أن الخطر القريب الآن هو ما يبدو أن أمريكا تخطط له من إنشاء دويلة على حدود الأردن ودويلة على حدود تركيا كمرحلة أولى لتقسيم المنطقة. هم نَفَسُهم طويل وغير مستعجلين ، طالما هم متحكمون بخيوط اللعبة جيداً. علينا أن نكون حذرين من أن تترك الدول المتورطة الثوار وحدهم أمام النظام في دمشق وحمص ، ليستقر له الأمر فيهما ، ويترسخ إنفصال درعا وحلب وشرق سورية ، وتكون المرحلة الأولى من التقسيم قد أنجزت. إن مجرد التقصير بالدعم الذي نلاحظه هذه الأيام مع استمرار روسيا والقوى الشيعية في المنطقة في دعم النظام بكل ما يلزمه سيؤدي إلى أن يستعيد حمص وريف دمشق ومناطق أخرى قد تكون متفق عليها بين الذين يقفون وراء النظام ، روسيا بالذات وإيران من خلفها ، وأمريكا وإسرائيل. السياسة لعبة قذرة والغربيون يمارسونها بلا أخلاق وبلا ضمير.

نعم لا تستبعدوا وجود صفقات واتفاقات على حساب وحدة أراضينا ووحدة شعبنا. ولا تستبعدوا أن يكون النظام طرفاً مباشراً فيها ، وأن يكون قد قدم لإسرائيل ما تشتهيه من تنازلات ، كي يسمحوا له أن ينتصر على الثوار في دمشق وحمص والبقاء مسيطراً على نصف مساحة سورية ، بحيث تتضمن كل مناطق الدولة العلوية إن قامت يوماً ما ، ويبقى هذا المتبقي من سورية بيد النظام اسمه سورية ويتمتع بكل الاعتراف والامتيازات التي هي لسورية الآن على المستوى العربي والدولي. لا دليل عندي على هذه النقطة لكنني أعتقد أن القوى الاستعمارية التي تلعب دور المؤيد للشعب السوري وثورته يمكن أن تتصرف هكذا ودون تردد إن خدم مصالحها ومصالح

إسرائيل. ما زال أمام منطقتنا العربية الكثير من الجهد والعمل لنصل إلى مرحلة الاستقلال الحقيقي عن أمريكا وأوربا.

قصة تقسيم سورية

كانت سورية حتى الحرب العالمية الأولى تضم ما يعرف حالياً باسم سورية ولبنان والأردن وفلسطين وما كان يسمى لواء اسكندرون ، وبموجب اتفاقية سايكس بيكو بين فرنسا وبريطانيا تم فصل الأردن وفلسطين عن باقي سورية واحتلتهما بريطانيا ، بينما احتلت فرنسا ما تبقى من سورية. كان اقتطاع الأردن وفلسطين أول عملية تقسيم لسورية. ثم احتل الفرنسيون سورية عام 1920 حيث رحب بهم الموارنة اللبنانيون على أنهم محررون لهم من استعمار إسلامي امتد ثلاثة عشرة قرناً ، بينما قاوم باقي السوريين الاحتلال الفرنسي بكل ما استطاعوا. وما أن احتلت فرنسا المتبقي من سورية بعد تقسيمها واقتسامها مع بريطانيا ، حتى قامت بتقسيم هذا الجزء الذي بقي اسمه سورية إلى ست دويلات على أساس طائفي. أصبح للموارنة دولة وأعطوا إضافة لمناطقهم في جبل لبنان مناطق واسعة حوله بحيث صار يسمى جبل لبنان الكبير ، وسميت دويلتهم دولة لبنان الكبير. كانت الميول الانفصالية لدى الموارنة موجودة من قبل ذلك بقرنين على الأقل. لكن باقي طوائف السوريين من سنة ، ودروز ، وعلويين ، رفضوا التقسيم بشدة ، وناضلوا حتى ألغي بشكل تام عام 1937 ، لكن مع بقاء دولة لبنان منفصلة ، لتصبح دولة مستقلة يسيطر فيها الموارنة رغم أنهم لم

يكونوا أكثرية السكان فيها. وهكذا تمت المرحلة الثانية من تقسيم سورية. تلاها بعد سنتين فصل لواء اسكندرون عن سورية لا ليشكل دولة مستقلة بل ليتم ضمه إلى تركيا. ثم بإعطاء فلسطين لليهود وقيام دولة إسرائيل تمت المرحلة الثالثة من تقسيم سورية. إذن مابين عام 1920 وحتى 1948 تم تقسيم دولة سورية التي تسمى بلاد الشام إلى أربع دول إضافة إلى لواء اسكندرون الذي أعطي لتركيا. وما تزال لدى القوى الاستعمارية وعلى رأسها إسرائيل رغبة قوية في تقسيم ما يسمى سورية ولبنان الآن إلى عدة دويلات طائفية تكون بعضها لبعض عدو، وتكون إسرائيل في المنطقة هي الأخ الأكبر الذي يوفق بينهم إن شاء.

لو تحقق حلم إسرائيل بتقسيم سورية ولبنان فسيبقى الجولان معها إلى الأبد، ولن تبقى هنالك دولة يحق لها أن تطالب به على أنه جزء محتل من أرضها.. وهذا كسب عظيم جداً لإسرائيل يدركه كل من يعرف قيمة الجولان لها من الناحية العسكرية والاقتصادية. لذلك علينا أن لا نستهين بخطر أن يقسمونا من جديد، إذ لهم في ذلك مصلحة كبرى، وعلينا الانتباه إلى مخططاتهم وإلى ما يقومون به من خطوات قد تبدو في الظاهر مناصرة ودعماً للشعب السوري في معركته مع الاستبداد، لكنها في الحقيقة ترسخ انفصال أجزاء من وطننا، لتصبح بعد سنين تطول أو تقصر دويلات مستقلة، تماماً كما كان فرض الحظر الجوي على جنوب العراق وشماله منذ 1991 وحتى الغزو الأمريكي للعراق عاملاً قوياً في ترسيخ انقسام العراق الذي نشهد هذه الأيام عملية تحويله إلى واقع معلن عنه.

دولة سنية ودولة للطوائف

أغلب العلويين نزعتهم قومية وضد أي تقسيم للوطن العربي ، لذا علينا أن لا ننشغل بخطر إقامة الدولة العلوية الذي نتصوره كخطر قريب ، عن ما يخطط له من فصل مناطق غيرها عن سورية ، وتأجيل تقسيم المتبقي منها بضع سنين بما في ذلك إنشاء دولة علوية. خطر الدولة العلوية قائم ، لكن خطر سلخ المناطق المحررة الآن من سورية وتقسيمها ربما إلى أربع دويلات هي: درعا وما حولها ، وحلب وما حولها ، ودير الزور وما حولها من مناطق عربية ، والرابعة القامشلي وما حولها من مناطق كردية ، خطر أولى بالتدارك في هذه المرحلة ، وقد نكون غافلين عنه ومنشغلين بخطر الدولة العلوية.

وسنكون محظوظين لو اكتفت القوى الدولية المتحكمة بمنطقتنا بأن تنشىء في الجزء المحرر من سورية دولة واحدة ، تكون دولة سنية تكسر الهلال الشيعي الممتد من إيران إلى العراق إلى سورية وإلى لبنان ، وهذا إنجاز كبير للذين يحاربون نفوذ إيران في المنطقة وتمددها متخذة من الشيعة وممن يتشيع من السنة أولياء لها يعينونها في تحقيق أهدافها السياسية وهم يظنون أنهم يحققون فتوحات دينية ، وهذه الدولة الجديدة ستكون منطقة نفوذ أمريكي تركي ولا يستبعد أن تقيم أمريكا فيها قواعد عسكرية.

قد يستمرون في ادعاء الحرص على سورية موحدة لكنهم سيكرسون تقسيمها بوضع قوة دولية تفصل بين المتحاربين، وتكون حكومة المعارضة الجديدة بنفوذها الذي سيقتصر على المناطق المحررة هي حكومتها، وستعمل على استعادة الحياة الطبيعية فيها وعلى عودة اللاجئين السوريين إليها، فتستأنف الحياة فيها من خلال مؤسسات جديدة غير التي كانت تتبع للحكومة السورية الأم، وأتوقع أن تكون حلب عاصمتها، وتمر السنون ويعتاد شرق سورية على العيش من دون غربها، وبعد أن يصبح التقسيم أمراً واقعاً يكون هنالك صلح، وتغادرنا القوات الدولية التي كانت تفصل بين المتحاربين.

إن إنشاء دولة سنية تقسم الهلال الشيعي جزئين وتنهي التواصل الجغرافي البري الذي يتمتع به سيحقق أهدافاً استراتيجية لقوى دولية يهمها تحجيم إيران، ولا يهمها أن يكون ذلك على حساب وحدة سورية. وهذا التقسيم لسورية سيترك في غربها دولة مشابهة للبنان مؤلفة من عدة طوائف من سنة وعلويين وإسماعيليين ومسيحيين ودروز لا يكون السنة فيها أغلبية مطلقة، لأن الكتلة السكانية التي ستخرج من سورية لتشكل الدولة الجديدة تكاد تكون كلها سنية، وهذا يعني انخفاض نسبة السنة فيما سيتبقى من سورية إلى ما دون الخمسين بالمئة، وستدعي القوى الدولية أنها بذلك ضمنت للطوائف السورية من غير السنة أن لا يقعوا تحت حكم أغلبية سنية تمارس عليهم دكتاتورية من خلال صناديق الاقتراع بحكم

كونها الأغلبية السكانية. سيخرجون الأمر على أنه هو الخير وهو الأحسن للسوريين كي يعيشوا بسلام ورغد ورفاه ، بينما هي لعبتهم التي من أجلها ساهموا مع النظام في تحويل الثورة من ثورة سلمية وطنية إلى ثورة طائفية مسلحة تحرر المدن والقرى وتسقط فيها الدولة السورية وليس النظام السوري وحده.

لا تضحوا بها بل ضحوا من أجلها

لا تسألوني ما العمل لتجنب هذه الهجمة التقسيمية التي تتعرض لها سورية الآن.. يكفي إدراككم لهذا الخطر وإدراككم أن التقسيم ليس في مصلحة أية طائفة أو قومية لتعرفوا ما يجب فعله للحفاظ على سورية موحدة. جاء في صحيح البخاري عن النبي صلى الله عليه وسلم أن امرأتين من بني إسرائيل كل واحدة منهما معها طفلها الرضيع ، ففغلت الكبرى منهما عن رضيعها فأكله الذئب. فسطت على ابن الصغرى مدعية أن الذئب إنما أكل ابن الصغرى وأن هذا المتبقي هو ابنها ، وتحاكمتا إلى داود عليه السلام ، وكانت الكبرى على ما يبدو ألحن في حجتها من الصغرى وأقدر على المجادلة ، فظن داود أن الطفل المتبقي هو فعلاً ابن الكبرى وحكم لها به. لكنهما صادفتا سليمان بن داود عليهما السلام وكان حكيماً رغم صغر سنه وقصتا عليه قصتهما. لم يكن سهلاً على سليمان أن يعرف لمن الطفل

ألصغرى أم للكبرى وبخاصة أنه لم يكن في عصره تحليل البصمة الوراثية ومعرفة النسب بواسطتها. حكمته هدته لتصرف ذكي جداً يعرف بواسطته من هي أم الرضيع. أخذ سليمان الرضيع وأوهمهما أنه سيقسم الطفل نصفين تأخذ كل واحدة منهما نصفاً وتنحل المشكلة. ما كان سليمان ليفعل ذلك حقاً ، لكن أم الطفل التي خشيت أن ينفذ ابن الملك حكمه الغريب ، قالت على الفور: "لا تفعل يرحمك الله.. هو ابنها". لقد تنازلت عنه لتُبقي على حياته ، فعرف الحكيم أنها هي أمه وحكم به لها. عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: {كانت امرأتان معهما ابناهما ، جاء الذئبُ فذهب بابنِ إحداهما ، فقالت لصاحبتِها: إنما ذهب بابنِك ، وقالت الأخرى: إنما ذهب بابنِك ، فتحاكمتا إلى داودَ عليه السلام فقضى به للكبرى ، فخرجتا على سليمانَ بنِ داودَ عليهما السلام فأخبرتاه ، فقال: ائتوني بالسكينِ أشقه بينهما ، فقالتِ الصغرى: لا تفعلْ يرحمُك اللهُ هو ابنُها ، فقضى به للصغرى}. (رواه البخاري في صحيحه). هذه القصة تعلمنا كيف نفكر لنحافظ على سورية موحدة.

الخاتمة

وفي ختام هذا الكتاب أصارحكم أنني لا أدري هل سأكتب المزيد من المقالات عن الثورة السورية أم لا، فأنا الآن ليس في ذهني شيء يستحق الكتابة، وأنوي إن شاء الله أن أبذل وسعي في نشر هذا الكتاب وإيصاله إلى أكبر عدد من أحرار سورية، وبمشيئة الله سأقرأ المقالات كلها وأسجلها بالفيديو لتصل من خلال اليوتيوب للذين يجدون السماع أو المشاهدة أهون من القراءة وأكثر جذباً وإمتاعاً. أسأل الله أن يعينني على ذلك وأسألكم أن تدعوا لي.

والحمد لله رب العالمين